مقـالات ٢٠٢٠

نشرت في جريدة الأهرام المصرية

أ.د. محمد الخشت

أستاذ الفلسفة ورئيس جامعة االقاهرة

www.elkhosht.com

الفهرس

يناير ٢٠٢٠

لو جاء المسيح في زماننا!! ---------- ٥ يناير ٢٠٢٠م
أسئلة إلى العبد الصالح! (١) ---------- ١٢ يناير ٢٠٢٠م
أسئلة إلى العبد الصالح! (٢) ---------- ١٩ يناير ٢٠٢٠م
أسئلة إلى العبد الصالح! (٣) ---------- ٢٦ يناير ٢٠٢٠م

فبراير ٢٠٢٠

الإسلام المنسي لا الإسلام المزيف ---------- ٢ فبراير ٢٠٢٠
هل يمكن أن يتطور الفقه الإسلامي؟(المصري اليوم) ---------- ٤ فبراير ٢٠٢٠
تكفير من يقول بكروية الأرض! ---------- ٩ فبراير ٢٠٢٠
فنون السب والتعيير دفاعا عن العقائد! ---------- ١٦ فبراير ٢٠٢٠
الثوابت والمتغيرات في الإسلام (١) ---------- ٢٣ فبراير ٢٠٢٠

مارس ٢٠٢٠

الثوابت والمتغيرات في الإسلام (٢) ---------- ١ مارس ٢٠٢٠
تعددية الصواب ---------- ٨ مارس ٢٠٢٠
تعددية الصواب في التفسير ---------- ١٥ مارس ٢٠٢٠
تعددية الصواب في التفسير(٢) ---------- ٢٢ مارس ٢٠٢٠
قوانين الدعاء وقوانين الطبيعة والتاريخ ---------- ٢٩ مارس ٢٠٢٠

ابريل ٢٠٢٠

الكتابان المقدسان ---------- ٥ ابرايل ٢٠٢٠
الإرهاب والمرض النفسي ولعبة الشيطان ---------- ١٣ ابرايل ٢٠٢٠
أيوب بين الدين والتراث (١) ---------- ٢٦ ابرايل ٢٠٢٠

مايو ٢٠٢٠

النبي أيوب بين الدين والتراث (٢) ---------- ٣ مايو ٢٠٢٠

التجديد الديني والمعركة الزائفة حول التراث ---------- ١٠ مايو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (١) ---------- ١٧ مايو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٢) ---------- ٢٤ مايو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٣) ---------- ٣١ مايو ٢٠٢٠

يونيو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٤) ---------- ٧ يونيو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٥) ---------- ١٤ يونيو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٦) ---------- ٢١ يونيو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٧) ---------- ٢٧ يونيو ٢٠٢٠

يوليو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٨) ---------- ٥ يوليو ٢٠٢٠

المتن المقدس والمتون البشرية (٩) ---------- ١٢ يوليو ٢٠٢٠

العقل المغلق والمتون البشرية ---------- ١٩ يوليو ٢٠٢٠

إفي الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (١) ---------- ٢٦ يوليو ٢٠٢٠

أغسطس ٢٠٢٠

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٢) ---------- ٢ أغسطس ٢٠٢٠

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٣) ---------- ٩ أغسطس ٢٠٢٠

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٤) ---------- ١٦ أغسطس ٢٠٢٠

تجديد المسلمين لا الإسلام (١) ---------- ٢٣ أغسطس ٢٠٢٠

تجديد المسلمين لا الإسلام (٢) ---------- ٣٠ أغسطس ٢٠٢٠

ديسمبر ٢٠٢٠

تغيير رؤية العالم عند المسلمين ---------- ٦ ديسمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان ---------- ١٣ ديسمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٢) ---------- ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٣) ---------- ٢٧ ديسمبر ٢٠٢٠

اكتوبر ٢٠٢٠

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٤) ---------- ٤ اكتوبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٥) ---------- ١١ اكتوبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٦) ---------- ١٨ اكتوبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٧) ---------- ٢٥ اكتوبر ٢٠٢٠

نوفمبر ٢٠٢٠

صلوات النور والحياة في ذكرى مولد الحبيب ---------- ١ نوفمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٨) ---------- ٨ نوفمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (٩) ---------- ١٥ نوفمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٠) ---------- ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (١١) ---------- ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٠

سبتمبر ٢٠١٩

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٢) ---------- ٦ سبتمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٣) ---------- ١٣ سبتمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٤) ---------- ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠
ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٥) ---------- ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠

لو جاء المسيح في زماننا!!

٥ يناير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

« جاء في إنجيل لوقا : (.. ولكن متى جاء ابن الإنسان، ألعله يجد الإيمان على الأرض؟). عندما قرأت هذ السؤال، شعرت برغبة عارمة في الإجابة عليه، وأول ما جاء في ذهني أن تعريف الإيمان قد نختلف فيه، وقد يتصارع البعض عليه حتى داخل الديانة الواحدة، فهل أفرض مفهومي عن الإيمان على الآخرين ونظل مختلفين؟ أم ألجأ إلى المسيح لكي يساعدني في الوصول إلى معيار؟ اخترت البديل الثاني؛ فماذا وجدت؟ وجدت المسيح يقول كما روى إنجيل متى : (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم).

هكذا تحدث المسيح عن المعيار الحاسم :(من ثمارهم تعرفونهم).. إذن لو جاء المسيح ووجد ثمارنا تتنوع بين الكراهية والحقد والغش والإرهاب والتطرف ورفض الآخر وأخذ أموال الناس بالباطل، والتعدي على منابع الثروة في الدول الأخرى، فماذا يقول؟ يقول : (ليس كل من يقول: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السموات)، ويُصرّح لهم: (إنّي لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم).

وسوف يؤكد المسيح جازما أننا نبني إيماننا على الرمل؛ فالعمل معيار الإيمان.. يقول: (وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يُشبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح وصدمت ذلك البيت، فسقط. وكان سقوطه عظيماً).

هنا لا نجد الإجابة فقط على سؤال الإيمان، بل نجد الإجابة عن سؤال التقدم والتخلف أيضا، ونعرف لماذا نحن دون التقدم الحضاري. إننا نأخذ من الإيمان الشكل والقشور وما تنطق به الشفاه، ولا نأخذ الأعمال، ولذا تأتي ثمارنا سيئة كما نراها في أرض الواقع. لكننا نصر على أننا الأفضل على الرغم من أن ثمارنا علقم، نزعم أن شجرتنا عظيمة بين الجماعات والأمم، على الرغم من أن ثمارها التخلف، نزعم أن الله يحبنا على الرغم من أننا نكره الآخرين لاختلافهم عنا في الثقافة أو اللون أو الجنس أو العرق أو حتى المذهب العقائدي! جاء في إنجيل متى : (الشجرة الرديّة فتصنع أثماراً ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة).

لو عاد المسيح ووجد ثمرتنا ليست عنبا ولا تينا، فماذا يقول عن شجرتنا؟ يجيبنا إنجيل متى : (هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا، كل شجرة جيّدة تصنع أثماراً جيدة). إن شجرتنا شوك وحسك، لكننا نخادع أنفسنا (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (البقرة: ٩).

ماذا يقول المسيح لو عاد ورأى تجليات الكثير منا في مجالس النميمة في البيوت، وأحاديث الإثم في الفضائيات، وعلى على الفيس بوك وسائر مواقع التواصل الاجتماعي.. قذفا وسبا، وتسرعا في الحكم على الناس، وتدنيا في الحوار، والابتزاز، وادعاء الفضيلة؟ ماذا يقول المسيح لأصحاب منابر تصيد عيوب الآخرين؟ ماذا يقول لأصحاب منابر الفتوى في كل شيء في الدنيا والدين؟ ماذا يقول المسيح لمن يزعم أنه يؤمن به وهو سَبّاب ، متسرع لا يتثبت من معلوماته، ولا يتأكد من صحة الأخبار؟ ماذا يقول لمن يسير مع قطعان الفيس بوك وتويتر دون أن يتحقق من المصادر الأصلية للخبر، ودون أن يتأكد من تنوعها ومدى يقينها؟ ماذا يقول المسيح عن أصحاب كلمات الحقد، ومنصات جلد الآخرين، وأصحاب أسلوب قتل الشخصية؟ ماذا يقول المسيح عنا وعن كل من يزعم الإيمان به (حتى وإن اختلفت طريقة الإيمان)؟ هل سوف يرضى عنا؟ أم سوف يوبخنا؟

يجيبنا المسيح: (لا تَدِينُوا لِئَلاَّ تُدَانُوا. فَبِمَا تَدِينُونَ تُدَانُون، وبِمَا تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُم. مَا بَالُكَ تَنْظُرُ إِلى القَشَّةِ في عَيْنِ أَخيك، ولا تُبَالي بِالخَشَبةِ في عَيْنِكَ؟ بَلْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيك: دَعْني أُخْرِجُ القَشَّةَ مِنْ عَيْنِكَ، وهَا هِي الخَشَبَةُ في عَيْنِكَ أَنْتَ؟ يا مُرائِي، أَخْرِجِ الخَشَبَةَ أَوَّلاً مِنْ عَيْنِكَ، وعِنْدَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا فَتُخْرِجُ القَشَّةَ مِنْ عَيْنِ أَخِيك).

هكذا يوبخنا المسيح وهكذا ينصحنا، أما نحن فلا نزال ندين الآخرين، ونكيل لهم، وننهش في لحومهم، ونتداول الشائعات عنهم، وننظر إلى عيوبهم، ونرى القشة في عيونهم، ولا نهتم بالنظر في عيوبنا وإصلاحها، بل نهتم بعيوب الآخرين ونترك الخشبة في أعيننا، نحن كما قال السيد: مراؤون! نصدر الأحكام بكل سهولة عن الآخرين دون أن نتحقق منها، ودون أن نعرف حقيقة دوافعهم وظروفهم، وندون أن نقدر ضعفهم، نتعدى على اختصاص الحكم العدل الديان المطلع على الباطن والظاهر (رب العالمين)! نحن نضخم من أخطاء الآخرين، ونركز الضوء على كبواتهم وهفواتهم، وكأننا معصومون لا نخطأ ولا نزل، وكأننا ملائكة في الملأ الأعلى! وهل الملائكة أيها الملائكة على الأرض- يكذبون ويتعالون ويتكبرون ولا يرحمون؟!

هنا يظهر محمد عليه الصلاة والسلام فجأة راويا عن ربه :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (الحجرات: ١٢). ويعود فيؤكد في حديثه :«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ». حسنه الترمذي وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وهنا يستمر اللحن المقدس ويعود المسيح قائلا :(إنّي لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم)».

أسئلة إلى العبد الصالح! (١)

١٢ يناير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في فجر يوم دافئ استيقظ «يس» يقظة غير كاملة، وفي تلك اللحظة بين النوم واليقظة، تصوره في مخيلته قادما عند «مجمع البحرين»، وبينهما شعاع خافت يأتي من المشرق يزداد في الأفق فوق صفحة الماء. دقق النظر فرأى وجها له قسمات خاصة لا يملك مفاتيح لغة فنان لكي يصفه، خاصة أن تلك القسمات تصدر ضياء روحية تحبو على أرض خضراء. ووجد في عقله نداء غامضا لا يقاوم لكي يسأله عن موضوعات متجددة في كل العصور وتحتاج إلى مزيد من التوضيح عند عقول ضلت الطريق!

وهنا عرفه يس بنفسه قائلا: لقد تعلمت من مناهل شتى من أقصى اليمين إلى اليسار، وأخذت من علماء ومراجع علمية عديدة ومتباعدة لدرجة التضارب، وسمعت لأفكارهم تلك التي تعارض بعضها بعضا وترفض أفكار المفكرين الأخرين الذين أخذت عنهم أيضا، لكنني أبدا لم أكن أسيرا لأي منهم فقد وُلدت حرا وحرصت أن أكون حرا في عقلي وفي طريقة تفكيري، ولقد نجوت من كل معارك الأسر إلا لرب الوجود. لكنني لم أجد مثلك من المعلمين أيها العبد الصالح. وعلى الرغم من أن الجميع يعتقدون أن ما يميزك هو «العلم اللدني»، وهو العلم من لدن الله، ويعتقدون دوما أن «العلم اللدني» هو علم روحاني غير عقلاني؛ فإني أتصور على خلافهم أن «العلم اللدني» علم عقلي يترعرع في بيئة روحانية، ولا أدري لماذا يعدون العقلاني مخالفا للروحي، وكأنهم يعدون العقل حقلا معرفيا مباينا لحقل الروح. ولا أعلم لماذا يصرون على أن العقلاني غير روحاني، مع أن العقل من لدن الله!

وأضاف يس: الغريب -أيها العبد الصالح- أن الجميع عدَّ إجاباتك على أسئلة موسى النبي عليه السلام، إجابات تعبر عن علم روحاني غير عقلاني، أما أنا فأراها إجابات عقلانية لأنها تفسر المواقف والظواهر بالأسباب وعلى أساس منطقي، وما الفرق بين فهم موسى الأول لتلك الظواهر وتفسيرك لها، سوى فرق بين الذين يفهمون الظواهر بطريقة حسية مباشرة دون معرفة أسبابها وحقيقتها ودوافعها ومقاصدها، وأولئك الذين لا يحكمون على الأمور إلا بعد معرفة أسبابها وحقيقتها ودوافعها ومقاصدها، ما هو سوى فرق بين الذين يحكمون على الأمور بالاستناد إلى الجزء، وأولئك الذين يحكمون على الجزء في إطار كلي.

إن الفهم الجزئي المباشر السريع هو : (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا .فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) (الكهف: ٧١- ٧٧).

هنا قال العبد الصالح : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: ٧٩- ٨٢).

رد يس قائلا: خرقتها لتعيبها مؤقتا حفاظا على حقوق وملكية المساكين، لكن لم تغرقها ولم تدمرها. والغلام كان طاغيا إرهابيا ضد والديه؛ ومن ثمَّ كان ضد مجتمعه المؤمن المستقر، أما إقامة الجدار فلا يشترط الحصول على منفعة فردية، بل الأهم هو العطاء من أجل الآخرين. وفي الأحوال الثلاثة تتبدى العقلانية الإيمانية والاجتماعية والاقتصادية، والتي تقوم على تعظيم فكرة حقوق الملكية وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين وملكيتهم سواء كانوا أفرادا أو دولا ، وتعظيم فكرة العدالة الاجتماعية، وتعظيم فكرة الصلاح، ورفض ضغيان الأفراد الذي يولد الإرهاب، وتعظيم فكرة البناء، وتعظيم فكرة التنمية، وكلها تتكون منها الفكرة الأعم، أعني المصلحة العامة.

قال العبد الصالح: ألا تلاحظ أنك قلت في البداية أنك سوف تسألني، وحتى الآن لم تسأل أي سؤال، بل تقول إجابات!

فقال يس : بل أصنع أرضية مشتركة بيننا ومفاهيم معرفية واضحة في طريقة النظر إلى الأمور.

قال العبد الصالح : لا تزال تجيب ولا تسأل!

قال يس : هل تسمح لي أن أسألك في فجر اليوم التالي؟

قال العبد الصالح : نعم.. إنه الوقت المناسب عندما يبدأ شعاع خافت يأتي من المشرق يزداد في الأفق فوق صفحة الماء.

قال يس: إذن اتفقنا على الزمان، فأين المكان؟

قال العبد الصالح: ابحث في الفجر عند مجمع العقل والروح .. وسوف تجدني!

أسئلة إلى العبد الصالح! (٢)

١٩ يناير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في هذا الفجر لم يكن التصور مكتملا، لكن المخيلة أصرت أن تسير في طريقها تستهدف مجمع العقل والروح مستهدية بخرائط غير خرائط الجغرافيا، في ظلمة فجر ينيره نجم ثاقب على إيقاع المتون المقدسة التي تتوارد إلى سمعه المغسول بماء الفجر، في ممر بدأت تصدح فيه رويدا طيور تعزف على إيقاعات كون أبدي. وسمع قلبه صوتا يخترق أصوات الطيور الطاهرة، يقول: سر واقترب، فمن بدأ السير سوف يجد العون، ومن جاهد في البحث سوف يهتدي، اقرعوا يُفتح لكم.

سار يس على مسار الصوت فوجده مبتسما قائلا : لنستمع هذه المرة إلى أسئلة وليست إجابات! لكني أحذرك أن تسألني على خلفية حكايات مروية حول المتون المقدسة تذكرها التفاسير، بل اسأل على خلفية المتون نفسها خالصة من الحكايات التي شوهت المقاصد والدلالات مع أنها أمتعت العوام وقادت الأحبار إلى بحور من الأساطير في عالم آخر لا يتلامس مع الكتاب الكوني المقدس الذي يتوسطه مجمع البحرين!

هنا فكر يس أن يسأله: هل الله تعالى رب المسلمين فقط أم رب العالمين كلهم؟ لكنه قال لنفسه قبل أن ينطق ويتلفظ بهذا السؤال: هل نسيت أن الله الذي يدعو له النبي الكريم ليس رب المسلمين فقط، بل رب العالمين؟ هل نسيت أن أول آية في القرآن تختص من بين أسماء الله (الرحمن الرحيم)؟ هل نسيت أن ثاني آية في القرآن تختص من أسمائه (رب العالمين)؟ هل نسيت أن معنى هذا أنه رب المسلم وغير المسلم، رب الصالح والفاسد، رب الأسود والأبيض، رب الذكر والأنثى، رب الإنسان والحيوان، رب الأنبياء والكذبة، رب النظيف و«النتن»... رب جميع العالمين مثلما هو رب جميع الألوان على صفحة الغابات التي ترتوي بماء السماء المنهمر. واستمر في حديثه الداخلي مع نفسه: ألست أنت والمصريون والعرب المسلمون تقرؤون الفاتحة كل يوم في صلواتكم؟ ألا تفهمون؟ هل حدث عندكم انفصام بين ما تتعبدون به وبين ما تعيشونه؟ ما هذا الإسراف في رفض الآخر؟ ما هذه الحرائق التي تشعلونها حول المختلفين معكم؟

فقال العبد الصالح مبتسما: أنت سألت وأنت أجبت على الرغم من أنك لم تنطق!

فقال يس : في هذه المرة سوف أنطق لكني متردد، هل يجوز أن نسأل السؤال الآتي: هل صوت الكافر يصل أيضا إلى الله؟!

فرد العبد الصالح قائلا: افتح مسند الإمام أحمد بن حنبل فسوف تجده يروي حديثا صحيح المتن عن المبعوث رحمة للعالمين: «دعوة المظلوم -وإن كان كافرًا - ليس دونها حجاب» .

قال يس موجها سؤاله إلى السماء: يا ربي.. أفهم أنك مع المظلوم.. لكن هل أنت سبحانك مع المظلوم الكافر أيضا؟ يجيب العبد الصالح: نعم إنه سبحانه مع المظلوم الكافر أيضا.. انظر في الحديث نفسه فسوف تجد «دعوة المظلوم -وإن كان كافرًا - ليس دونها حجاب»؛ نعم، يا يس، إن الله مع المظلوم الكافر أيضا. ألا تؤمن أن الله هو العدل المطلق، بلا تمييز، وأن القرآن الكريم يقول: (يَا أَيُّهَآ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ). ألا تعلم أن رحمة الله تتسع للجميع بقدر اتساع الألوهية واتساع أسمائها اللامتناهي. وأضاف العبد الصالح: لابد أن تعيد التفكير في دلالة أن أول آية في القرآن تختص من بين أسماء الله (الرحمن الرحيم)؛ فاسم الرحمن يشير لاتساع الرحمة واسم الرحيم يشير لاستمرار فعل وممارسة الرحمة تجاه المخلوقات. لكن يبدو أنكم ترددون (بسم الله الرحمن الرحيم) كثيرا جدا قبل أعمالكم وفي صلواتكم لمجرد التبرك وليس للفهم والعمل! ألا تفكرون لماذا جاء أولا الاسم الأعظم (الله) الذي يشمل أسماءه الحسنى وأعماله اللانهائية سبحانه، ثم اختص منها (الرحمن)، وهو في اللغة على وزن فعلان مما يدل على الاتساع والكثرة والامتلاء والشمول، ويأتي هذا الاسم غالبا في الاقتران والترتيب بعد الاسم الأعظم (الله)، مثل قوله تعالى :(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن...).

وأعود فأقول لك: إنكم ترددون لفظيا (بسم الله الرحمن الرحيم) كثيرا جدا قبل أعمالكم وفي صلواتكم لمجرد التبرك وليس للفهم والعمل!

- عاد يس فسأل العبد الصالح: هل لأننا مختلفون يجب أن نكون أعداءً؟

أجابه بقول الله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا). وهنا أدرك يس من إجابته ضرورة الإيمان بالتنوع حسب المتن المقدس. لكنه عاد ليسأله: هل المتن المقدس يتحدث عن أمر مثالي غير ممكن تحققه في التاريخ؟

فأجابه : إنكم مثلما تعيشون المتن المقدس لفظا لا معنى، وتبركا لا عملا، تعيشون التاريخ على هامشه وفي أغلب الأحيان خارجه! أنتم لا تقفون إلا عند الظاهر المباشر الحسي، ولا تنظرون في منطق الأشياء، ولا أسباب الأحداث ولا مقاصدها، ولا تتعلمون من قوانين التاريخ، إنكم كما قال عنكم أعداؤكم تقرؤون التاريخ من أجل التغني بالمجد في سالف الدهر، ولا تستقرئون التاريخ من أجل فهم سننه التي داعكم المتن المقدس تكرارا إلى فهمها، وتحولون السنن إلى معجزات خارقة بتدخل إلهي لكنكم لم تفهموا أبدا أنها قوانين يجب استنباطها والعمل بها، وأن من يعمل بها سوف ينتصر حتى لو كان كافرا! إنني أقول لكم جميعا وأقول لك -كما قلت لموسى من قبلكم- (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا).

وهنا قال يس للعبد الصالح : أرجوك اصبر أنت قليلا معي ومع قومي لعلنا نفهم، حتى وإن أرهقناك فلا ترهقنا من أمرنا عسرا!

قال العبد الصالح: إذن نلتقي مع فجر جديد في مجمع العقل والروح عندما يتقاطع اللفظ مع الدلالة وتتقاطع الحروف مع المقاصد! « .

أسئلة إلى العبد الصالح! (٣)

٢٦ يناير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«مضى في طريقه يتلمس طلعة العبد الصالح مثلما يتلمس شروق شمس المعارف في فضاء مفعم بالوجود، على أرض متناغمة في دورتها مع النظام الكوني وعناصر الطبيعة المزدهرة بالتنوع في الوحدة، والوحدة في التنوع، لكنها لم تستطع أن تعبر أبدا حدود عقول مليئة بكوابيس الكراهية والسواد والحسد الوجودي.

وقبل أن يصل يس إلى مجمع البحرين وجد أقواما يتعاركون ويرفع كل منهم كتابا مقدسا، بعضهم يحمل الكتاب نفسه في مواجهة بعضهم البعض، وآخرون يحملون كُتبا مختلفة -لكنها ليست متباينة - في مواجهة بعضهم البعض أيضا. إنها حرب الجميع ضد الجميع. حرب يستخدمون فيها كل الوسائل لتدمير بعضهم البعض، وفي بعض الأحيان يدمرون أنفسهم تدميرا ذاتيا لتحقيق تدمير أكبر في خصومهم! لقد وصلت بهم عمليات غسيل الأدمغة إلى كراهية تتسع للعالم كله، وهم يسيرون بمبدأ أموت ويموت معي غيري، وأتعذب ويتعذب معي الآخرون، مثل النار التي تأكل نفسها وتأكل ما حولها، تغتر بنفسها في البداية لأنها تزيد سريعا، لكنها لا تدرك أنها بعد قليل سوف تنتهي تماما وتصبح والعدم سواء لكن بعد تدمير نفسها وتدمير كل شيء.

لم يستطع يس أن يقف ليشاهدهم كثيرا، فلم يعتد البقاء في عوالم مغلقة تعيش كائناتها في كهوف عقلية بلا نوافذ إلا نوافذ الكراهية، ولم تتطلع منها يوما ما على جمال الكون وتنويعاته وهوائه الذي يتنفسه الجميع من الفرقاء والمختلفين في اللون والدم والثقافة والعقيدة ونمط الحياة.

سار قليلا، لكن ليس بعيدا، فدخل حدود مجمع البحرين وهنا وجد خلية من النحل تأخذ وتعطي، تأخذ الرحيق من على كل زهرة، لكنها تتمثله فتخرجه عسلا وشمعا. وهذا ليس العطاء الوحيد الذي تقدمه في مقابل ما أخذته؛ فليس وظيفة النحل إنتاج العسل والشمع فقط، بل النحل يقوم أيضا بتلقيح كثيرا من النباتات بمختلف أشكالها وأنماطها. وهنا حدث يس نفسه قائلا: إن مجتمع النحل مجتمع تعاوني منظم يتمتع بالذكاء لأنه يقيم مجتمعه على أسس تكافلية تدور على الأخذ والعطاء المتبادل سواء مع نفسه أو مع المجتمعات المحيطة، والعطاء عندها مثل النحل عطاء مباشر في لحظة الأخذ للرحيق والقيام بالتلقيح، إما بالقيام بنقل حبوب اللقاح من متك الزهرة إلي مياسم الزهرة نفسها، أو بنقله إلي مياسم زهرة أخرى، في حركة كونية يستفيد منها جميع الأطراف. إنه عطاء وأخذ مباشر Cash Value، لكن هناك عطاء من نوع آخر؛ فالقصة الجميلة لم تنته، فلا يزال هناك عطاء آخر، إنه عطاء غير مباشر لكائنات أخرى؛ فبعد أن يأخذ النحل الرحيق يقوم بتمثله ليخرجه بعد ذلك عسلا وشمعا.

لم يكد يغادر موقع مجتمع النحل حتى وجد العبد الصالح ماثلا أمامه قائلا: هل تعلم أن الإنسان قد تعرف على مجتمع النحل منذ آلاف السنين؟ هل تعلم أن الإنسان قام بتربية مجتمعات من النحل في معظم المجتمعات البدائية والمتحضرة؟

أجاب يس: أعلم طبعا.

فرد العبد الصالح: هل تعلم أن هذا الإنسان نفسه استفاد من عطاء النحل في دورة حياة الجسد لكنه لم يستفد منه في دورة حياة العقل الجمعي إلا قليلا في المجتمعات المتحضرة، أما في المجتمعات المتخلفة فالإنسان يربي النحل ويأكل من عطائه، دون أن يستفيد من المعاني التي تصلح لإقامة المجتمع النظامي؟ ومع أن النحل دخل مجتمع الأدب والفنون عبر التاريخ، وربما دخل المجتمع العام عبر المجتمع المدني في الدول المتقدمة، والنظام المؤسسي الديناميكي والقوي، والتكوين العقلاني النفسي للأفراد، لكنه لم يدخل بعدُ مجتمعات العالم الثالث إلا دخولا مريضا لأن المجتمع المدني بها ليس إلا انعكاسا لوعي مريض لا يعرف معنى الدولة الوطنية، فكثير منه يعمل كطابور خامس لصالح مؤامرات خارجية، أو يعمل استرزاقا لا تطوعا؟ كما أن كثيرا من الناس في هذه المجتمعات يريدون أن يعيشوا على نظام الكفالة وليس نظام التكافل المتبادل القائم على الأخذ والعطاء بين جميع الأطراف.

هنا خاطب يس العبد الصالح: أُلاحظ أنك تستخدم مفردات عصرنا وليس مفردات عصور قديمة كان ظهورك الأول فيها؟

رد العبد الصالح: ولِم تتخيلني عجوزا يتحدث من عصور عتيقة؟ يبدو أن بعض بقايا أساليب التفكير القديمة لا تزال تعلق بحواف عقلك؟!

يا بُني، إن العبد الصالح هو الذي يعيش عصره حاملا تجارب العصور السابقة، وليس العبد الصالح مَن يعيش في عصور انقضت، إن العبد الصالح يعيش في الحاضر من أجل المستقبل، يعيش حياته المتجددة لا حياة غيره! ولو عاش في عصر قديم، ثم بُعث مرة أخرى في عصر جديد، فسوف يعيش العصر الجديد لا القديم؛ فموجات الحياة لا نهائية عبر الزمن وعبر الأبدية.

وأضاف العبد الصالح: لقد أخرجتني عن الموضوع الأصلي لحديثنا اليوم، يبدو أنك أحيانا مثل قومك الذين يتحدثون في سبعين موضوع دفعة واحدة، ولا يركزون في موضوع واحد حتى انتهائه. للأسف يحزنني أن أقول لقومك الحقيقة المُرة: إنكم مثلما تعانون الفوضى في طريقة حياتكم تعانون الفوضى في طريقة تفكيركم. أخبرهم عني: لابد من إصلاح طريقة تفكيركم.

هنا تبسم يس قائلا: إنك الآن أيضا وقعت فيما نقع فيه؛ لقد خرجت إلى موضوع ثالث؛ فأنت الآن تتحدث عن إصلاح طرق التفكير!

قال العبد الصالح: هذا لأنك تأخذ بالظاهر، فطرق التفكير هي أساس اختلاف مجتمع النحل عنكم. ولا تحدثني عن الفطري والمكتسب؛ فطرق التفكير الفطرية عند كائن يمكن أن تكتسب عند كائن آخر بالتعلم والتدريب. هذا أصلا إذا صحت قسمتكم للفطري والمكتسب.

ولنا حديث آخر مع فجر جديد عند مجمع البحرين.

قال يس: عند أي منعطف؟

قال العبد الصالح: لن تجدني عند أي منعطف، بل تجدني عند الملتقيات».

الإسلام المنسي لا الإسلام المزيف

٢ فبراير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا يمكن أن يقنعني أحد أن الإسلام السائد في عصرنا هو الإسلام الأول الخالص والنقي، حتى عند أكثر الجماعات ادعاء للالتزام الحرفي بالإسلام؛ فأنا أقيس صواب كل فكرة أو نسق فكري بالنتائج المترتبة عليه؛ فالفكرة الصواب هي التي تعمل بنجاح في أرض الواقع وتنفع الناس. والإسلام الأول كانت نتائجه مبهرة في تغيير الواقع والتاريخ، أما طريقة فهم الإسلام التي نعيشها اليوم، فهي خارج التاريخ ومنفصلة عن واقع حركة التقدم. والمقصود هنا هو الخطاب الديني البشري، وليس القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة. والمقصود هو نقد الخطاب الديني الذي يضفي القداسة على بعض البشر ويعدهم ملاكا للحقيقة المطلقة، ناسيا أن إخلاص الدين لا يكون إلا لله، ومتجاهلا أن القداسة لله وحده سبحانه وتعالى، وأنه هو الوجهة وهو المقصد، (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: ٧٩).

ولذلك باتت من الضرورات الملحة اليوم العودة إلى «الإسلام المنسي»، لا «الإسلام المزيف» الذي نعيشه اليوم، حتى نكون مخلصين له الدين. ولا يمكن هذا إلا بتخليص الإسلام الحقيقي (قرآنا وسنة صحيحة) من التفسيرات المتعصبة، والموروثات الاجتماعية، والعناصر الراكدة في قاع التراث، والرؤية الأحادية للإسلام، فالنظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة تزيف الإسلام، ولذا من الفرائض الواجبة توجيه النقد الشامل لكل التيارات أحادية النظرة، سواء كانت إرهابية أو غير إرهابية.

إن المشكلة ليست في الإسلام النقي في طهارته الأولى، بل في عقول كثير من المسلمين وحالة الجمود الفقهي والفكري التي يعيشون فيها منذ أكثر من سبعة قرون. لقد اختلط المقدس والبشري في التراث الإسلامي، واضطربت المرجعيات وأساليب الاستدلال؛ ولذا من غير الممكن «تأسيس عصر ديني جديد» دون تفكيك العقل الديني التقليدي وتحليله للتمييز بين المقدس والبشري في الإسلام، فهذه مقدمة من بين مقدمات عديدة من أجل تكوين خطاب ديني جديد يتراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذي كان يحتكر فيه المتعصبون الحقيقة الواحدة والنهائية.

إن كل ما جاء في التاريخ بعد لحظة اكتمال الدين التي أعلنها القرآن الكريم: (اليوم أكملت لكم دينكم) (المائدة: ٣)، جهد بشري قابل للمراجعة، وهو في بعض الأحيان اجتهاد علمي في معرفة الحقيقة، وفي أحيان أخرى آراء سياسية تلون النصوص بأغراضها المصلحية المنحازة. وفي كل الأحوال ۖ سواء كانت موضوعية أم مغرضة- ليست هذه الآراء وحيا مقدسا، بل آراء بشرية قابلة للنقد العلمي. وهذا ما سعينا إليه على مستوى الخطاب الديني في كتابنا (نحو تأسيس عصر ديني جديد)

ويقتضي الدخول إلى عصر ديني جديد مجموعة من المهام العاجلة، مثل: تفكيك الخطاب الديني البشري التقليدي، وتفكيك العقل المغلق، ونقد العقل النقلي، وفك جمود الفكر الإنساني الديني المتصلب والمتقنع بأقنعة دينية مزعومة؛ حتى يمكن كشفه أمام نفسه وأمام العالم.

وليس هذا التفكيك للدين الخالص نفسه من قرآن وسنة صحيحة، بل تفكيك للبنية العقلية المغلقة والفكر الإنساني الديني الذي نشأ حول «الدين الإلهي الخالص».

وعملية «التفكيك» يجب أن تمر بمجموعة من المراحل، من أهمها:

المرحلة الأولى: «التفكير المنهجي»

المرحلة الثانية: التمييز بين المقدس والبشري في الإسلام

المرحلة الثالثة: إزاحة كل «المرجعيات الوهمية» التي تكونت في «قاع التراث»

وبعد التفكيك يأتي التأسيس، وأهم أركانه:

الركن الأول: تغيير طرق تفكير المسلمين

الركن الثاني: تعليم جديد منتج لعقول مفتوحة وأسلوب حياة وطريقة عمل جديدة

الركن الثالث: تغيير رؤية العالم.. تجديد المسلمين

الركن الرابع: تأسيس مرجعيات جديدة

الركن الخامس: العودة إلى الإسلام الحر «الإسلام المنسي»

الركن السادس: نظام حكم يستوعب سنن التاريخ

ولن يتحقق كل هذا بدون توظيف مجموعة من الآليات لتحقيق «حلول قصيرة ومتوسطة المدى» تشمل: التعليم، والإعلام، والثقافة، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة وذلك لـ«صناعة عقول نقدية» مفتوحة على الإنسانية تستطيع فهم المنابع الصافية (القرآن والسنة الصحيحة) فهما عقلانيا غير ملوث.

لقد بات ضروريا تغيير المرجعيات البشرية التقليدية التي تقدس البشر أيا كانت مكانتهم، ولا تخلص لله الدين. وتأسيس فقه جديد، وتفسير جديد، وعلم حديث جديد، وإزاحة كل «المرجعيات الوهمية» التي تكونت في «قاع تراثٍ» صُنع لغير عصرنا. ذلك القاع الذي يشتمل على العناصر الميتة والسوداء التي لا تزال تقود قطيعا لا يعرف إلا لغة الموت والكراهية ونفي الآخر، لا يعرف تسامح الإسلام، ولا يمكنه فهم عقيدة (رب العالمين) الذي تتسع سماؤه وأرضه للجميع.

إن الكائن الحي ينمو وتتغير خلاياه كل يوم، دون أن يفقد هويته، ولو توقف نموه وتغيره سوف يموت. وإذا ظللنا مصرّين على تجميد التراث كله وتقديسه كله، فسوف نكون السبب في موته. ولابد أن يدرك الزاعمون لتقديس التراث كله، أن تقديسهم هذا سوف يجمده ويوقفه عن النمو الطبيعي.

إن الكائن الحي هو الذي يتطور، والكائن الميت هو الذي يتم تجميده عند لحظة معينة دون أن ينمو. لذا لابد أن ندع التراث ينمو بعيدا عن التقديس، في هواء متجدد منفتح على كل العناصر الجديدة، واستبعاد العناصر الميتة والسلبية فيه، وإعادة بناء العناصر الحية والإيجابية ضمن مركب جديد تتفاعل فيه مكتسبات التطور والعلوم الحديثة والعقلانية النقدية ومناهج البحث العلمي الجديدة.

وبدون هذا لن نستطيع صناعة تاريخ جديد نخرج فيه من هذه الدائرة المقيتة لكهنوت صنعه بشر بعد اكتمال الدين الإلهي، وتلقفه مقلدون أصحاب عقول مغلقة ونفوس ضيقة لا تستوعب رحابة العالم ولا رحابة المتن المقدس ولا رحابة السماء.

أرجو أن ينفتح النقاش حول الأفكار المطروحة في هذا المجال لمزيد من الأفكار الجديدة التي نتجاوز فيها «عصر الجمود الديني» الذي طال أكثر من اللازم في تاريخ أمتنا؛ من أجل تأسيس عصر ديني جديد، وتكوين خطاب ديني من نوع مختلف، وليس تجديد الخطاب الديني البشري التقليدي؛ لأن تجديد الخطاب الديني البشري عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة، لا تتكئ للعناصر الحية في التراث، لكن تعيد استيعابها في مركب جديد مع كل مكتسبات تطور العلوم الحديثة ومتغيرات التاريخ والتطور الحضاري، مركب جديد ينتج عن تفاعلات عقلية تامة وليست ملفقة، مثل التفاعلات التامة التي تحدث وفق قوانين الكيمياء في المعمل أو الطبيعة. واستنادا لما سبق لابد أن نتوقف طويلا لنعيد التعلم من قوانين الله في الطبيعة إذا كنا نريد فعلا أن نقرع أبواب عصر ديني جديد!

هل يمكن أن يتطور الفقه الإسلامي؟

٤ فبراير ٢٠٢٠ بجريدة المصري اليوم

د. محمد الخشت

من أكبر النماذج الفقهية التي كافحت الجمود ورفضت التعصب والمواقف المنغلقة، الإمام الشافعي الذي اختلف مذهبه الفقهي في مصر عن مذهبه القديم في العراق. ومن بين أسباب هذا الاختلاف مراعاة ظروف الزمان والمكان، وأتصور قياسا على ذلك أن الإمام الشافعي نفسه الذي يحتضنه تراب مصر وقلبها لو عاد إلى عصرنا لأصبح له فقه جديد يلائم الزمان الجديد ومتغيراته المعقدة.

ومن المعلوم أنه تلقى العلم على يد مالك، فالشافعي تلميذ مالك، ومالك نفسه تلميذ لأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل تلميذ للشافعي. لكن أي فقيه منهم لم يتجمد على مذهب أستاذه، بل جاء بمذهب مختلف، والإمام أحمد نفسه الذي يرمونه بالتشدد لا يوجد له رأي واحد في كل المسائل، بل في كثير من المسائل تجد له رأيين؛ ويجمع له البعضُ في المسألة ثلاثة آراء؛ مما يدل على وجود تنوع وتطور في الفقه الحنبلي ذاته.

ومن هنا فإن أئمة الفقه ضد التقليد والتعصب والجمود؛ لأنه ضد روح الإسلام ومقاصده التي تستهدف تحقيق المصالح الإنسانية وتراعي ظروف العصر ومتغيراته، ومن هنا أيضا استقر المجتهدون من عصور الإسلام الذهبية على بطلان الجمود والتجمد، وعلى عدم ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. قال الحصفكي، وهو من أشهر المؤلفين الأحناف في الفقه الحنفي:» إذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفنا قلنا وجوبا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب»(محمد بن إسماعيل الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد). ويروى القول نفسه عن الإمام الشافعي. والكتب التي أُلفت لرد التقليد والتعصب كثيرة، مثل «أعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم؛ مما يدل على ازدراء التعصب والجمود.

لكن من جهة أخرى يتسم بعض علماء الفقه وأصوله بالتعصب والجمود؛ حيث يأخذون بالتقليد، ويرفضون مراعاة ظروف المكان والزمان، ولا يأخذون بالمصالح المرسلة والاستحسان وغيرهما. ومن أسف فإن هذا التيار المنغلق هو الذي كتبت له السيادة مع انتهاء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وهو الذي سيطر على الغالبية من أصحاب الصوت العالي الذين يزايدون على الدنيا والدين!

إن الجمود الفقهي والتعصب الدوجماطيقي مرض يرفضه كثير من علماء أصول الفقه الذين يراعون في تفكيرهم المصالح المرسلة، والضرورات، والاستحسان، وظروف العصر. وتعطي النصوص يقينية الثبوت وظنية الدلالة المجال لذلك إلى أبعد مدى في ضوء الشروط العلمية للتفسير واستنباط الأحكام، بل إن قاسما من النصوص التشريعية قطعية الثبوت والدلالة تعطي مجالا للاجتهاد من حيث طرق إنزالها على الواقع، فمع أنها تقدم قواعد عامة ومطلقة تصلح لكل زمان ومكان، لكن يوجد مجال للاجتهاد فيها عن طريق الاجتهاد في إنزال النص على الواقع، وطريقة إنزاله تختلف باختلاف ظروف البيئة والموقف والحالة والعوامل الداخلة فيها .. مثل : (إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل إنّ اللّه نعمّا يعظكم به إنّ اللّه كان سميعا بصيرا) (النساء:٥٨).. (أصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا)(الحجرات: من الآية٩). فالعدل قيمة مطلقة لا يختلف عليها اثنان من العقلاء، وهو مطلب لكل زمان ومكان. لكن «الاجراءات الضامنة للعدالة» يدخل عليها باستمرار تطوير يسد الثغرات التي يدخل منها المتلاعبون والفسدة والمحتالون.

وهناك مثل آخر ربما يكون أكثر واضوحا وهو «المؤلفة قلوبهم»؛ فالنبي صلّى اللّه عليه وسلم «أعطى المؤلفة قلوبهم من المسلمين والمشركين» (الشوكاني، نيل الأوطار) .ولم يعطهم الخلفاء الراشدون بعد النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم، قال عمر رضي اللّه عنه: «إنا لا نعطي على الإسلام شيئا، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر». فقد انقطع هذا الصّنف بعزّة الإسلام وظهوره، وهذا مشهورٌ من مذهب مالك وأصحاب الرّأي. وقد ادّعى بعض الحنفيّة أنّ الصّحابة أجمعت على ذلك. وقال جماعةٌ من العلماء: سهمهم باق لأنّ الإمام ربّما احتاج أن يتألّف على الإسلام، وإنّما قطعهم عمر لمّا رأى من إعزاز الدّين في زمنه.

والشاهد من هذا النص القرآني أن القرآن الكريم يعطي مجالا للاجتهاد من حيث طرق إنزال النصوص على الواقع الذي يختلف باختلاف ظروف البيئة والحالة والموقف والعوامل الداخلة فيه. فلا مجال للرأي الواحد المطلق، ولا مجال للانغلاق على «دوجما»، وإنما المجال مفتوح دوما للاجتهاد الذي يدور حول «المصلحة المجتمعية» المحكومة بمعايير الشرع ومقاصده، و»الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما» كما يقول علماء أصول الفقه.

إن الجمود موقف متهافت؛ خاصة أن أصحابه يؤكدون معتقداتهم غالبا بسلطة الأمراء الدينيين أو سلطة عقل شخصي يجزم أنه يملك الحقيقة، دون أي احتمال لكونها ناقصة أو خاطئة، ودون برهان محكم من الوحي أو العقل أو الواقع، ودون مراعاة الظروف المتغيرة. ولذا فإن الجمود نتاج للتعصب، والتعصب نتاج للدوجماطيقية، والدوجماطيقية عدو التطور وعدو الحياة وعدو سنن اللّه في تطور الإنسانية، ولا سبيل للتجديد الديني والدنيوي دون إزاحة «الدوجما» من العقول أولا.

وهكذا نعود مجددا إلى ضرورة تغيير «منهج التفكير» كشرط أولي مطلق نلح عليه دون كلل من أجل تأسيس عصر ديني جديد.

لمزيد من التفصيلات يمكن الرجوع إلى كتابنا (نحو تأسيس عصر ديني جديد).

تكفير من يقول بكروية الأرض!

٩ فبراير ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في عام ١٩٨٨م. من القرن الماضي، نشرت مكتبة ابن سينا تحقيقي ودراستي لكتاب (الفَرق بين الفِرق) لعبد القاهر البغدادي المتوفى عام ٤٢٩ هـ، وهذا الكتاب يوضح الفروق بين الفرق العقائدية، وما تختلف فيه كل فرقة عن الأخرى.

ومن المعروف أن البغدادي من أكبر علماء أصول الدين الأشاعرة، والمصنفين في مذهبهم، وأستاذه هو أبو إسحق بن محمد الاسفراييني، وكان الاسفراييني قد تلقى علم الأصول عن الإمام أبى الحسن الباهلي المتوفى ٣٧٠هـ، وهذا بدوره قد تلقى علم أصول الدين عن الإمام أبى الحسن الأشعري مؤسس المدرسة الأشعرية في العقائد. وهم كلهم أعلام المدرسة الأشعرية. إذن فنسب عبد القاهر العلمي يرجع إلى الأشعري. رحمهم الله جميعا.

وقد بذل البغدادي كل جهده لبيان وحصر ما أسماه آراء الفرق الضالة، وفرق الأهواء، وبيان فضائح كل فرقة منها من وجهة نظره، وهذه الفرق طبعا جزء كبير من التراث الذي يقدسه البعض كله دون تمييز بين الإيجابي والسلبي، مثل فرق الرفض، وفرق الخوارج، وفرق الاعتزال والقدر، وفرق المرجئة، وفرق النجارية، ومقالات الضرارية والبكرية والجهمية، ومقالات الكرامية، ويعد البغدادي مقالات المشبهة داخلة في غمار الفرق المذكورة. كما يتعقب بيان الفرق التي عدها خارجة عن الإسلام، مثل السبئية، والشيعة الباطنية، والميمونية، واليزيدية، والعمارية.

وهنا نلاحظ أن هذا الإمام الأشعري، وهو أحد المرجعيات الكبرى في المذهب الأشعري، لا يعد التراث كله مقدسا، ويحمل حملة شعواء على معظم فرقه، ففريق منهم عنده من أهل الأهواء، وفريق آخر من الفرق الضالة، وفريق ثالث من الكفار الخارجين عن الإسلام. ويحرص على تعقب ما سماه فضائحهم، ويعدد كل الفرق العقائدية، وفي المقابل يعد فرقة واحدة هي الناجية.

ومن الملاحظ أنه يسارع بالتكفير في حالات كثيرة انطلاقا من أدلة ظنية وليست يقينية، وهذه الطريقة في الاستدلال تغلب على الكتاب من أوله إلى آخره، ويتضح هذا من خلال عرضه لآراء الفرق المختلفة ثم مناقشة هذه الآراء بالاستناد غالباً إلى مقدمات شائعة عند العوام، وهي غير يقينية لا نصا مقدسا ولا عقلا صريحا ولا حتى في ثوابت العلوم الطبيعية، وبالتالي فإنه يصل إلى نتائج محتملة، لكنه يعدها يقينية بشكل مطلق ويكفر الآخرين على أساسها حتى لو كانوا يؤمنون بكل أصول الدين.

نضرب على ذلك مثلاً أنه عندما يعارض الذين يقولون بحركة الأرض وكرويتها، يلجأ إلى قول شائع عند العوام في عصره، لكي يفند به تلك المقولة فيقول مؤكداً على عدم كروية الأرض وثباتها وأنها لا تتحرك: «وأجمعوا (أي أهل الحق عند البغدادي) على وقوف الأرض وسكونها!! وأن حركتها إنما تكون بعارض يعرض لها من زلزلة ونحوها. خلاف قول من زعم من الدهرية أن الأرض تهوى أبدا ولو كانت كذلك لوجب ألا يلحق الحجر الذى نلقيه من أيدينا الأرض أبدا؛ لأن الخفيف لا يلحق ما هو أثقل منه في انحداره... وبطلان قولهم ظاهر من جهة عود الشمس إلى مشرقها كل يوم وقطعها جرم السماء وما فوق الأرض في يوم وليلة، ولا يصح قطع ما لا نهاية لها من المسافة في الأمكنة في زمان متناه... وأجمعوا أنها ليست بكروية تدور حول الأرض خلاف قول من زعم أنها كرات بعضها في جوف بعض، وأن الأرض في وسطها كمركز الكرة في جوفها. ومن قال بهذا (والكلام لا يزال للبغدادي)، لم يثبت فوق السماوات عرشا ولا ملائكة ولا شيئا مما يثبته الموجودون فوق السماوات». انتهى كلام البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٢٨٥- ٢٨٦ بدراستي تحقيقي.

هكذا يؤكد البغدادي متيقنا يقينا كاملا، أن الأرض ثابتة ساكنة وأنها ليست كروية، وأن الشمس هي التي تتحرك وتعود إلى مشرقها كل يوم فوق الأرض في يوم وليلة.

ولا يجوز لنا أن نحاسبه بمنجزات العلم الحديث، والمسألة نفسها كانت خلافية في عصره، ولا شك أن في هذا ظلما له، لكن المشكلة الحقيقة أنه يكفر دون دليل صريح من المتن المقدس، كل من يقول بخلاف رأيه -في مسألة علمية من العلوم الطبيعية- حتى ولو كان المخالف يؤمن بالإسلام!

النقطة التي نريد التوقف عندها، أنه يلجأ إلى قضايا كانت محتملة في عصره لكي يعارض بها أقوال المخالفين له، الغريب أنه لا يتوقف عند حد الاختلاف، بل يسارع إلى تكفير مخالفيه لأسباب استنتاجية يعتمد فيها على الاستدلالات الظنية التي تقوم على مقدمات شائعة محتملة غير يقينية، ويرتب عليها استنتاجا متسرعا جازما فيه أنهم ينكرون عقائد أخرى مع أنهم لم يقلوا ذلك!

ومن المعلوم أن كثيرا من علماء أصول الدين والتفسير والفلك المرموقين -قبل البغدادي وبعده- كانوا يؤمنون بكروية الأرض على خلاف البغدادي ومذهبه. وقد نقل الإمام القرطبي هذا في تفسيره عن الضحاك في معنى التكوير. وقال الفخر الرازي في تفسيره: «ثبت بالدلائل أن الأرض كرة، فكيف يمكن المكابرة فيه؟!»، كما قال ابن حزم: «إن أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضي الله تعالى عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة». وقد قرر ذلك أيضاً ابن القيم وابن تيمية والمقدسي في (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، وابن خُرْداذبة في كتابه (المسالك والممالك)، والإصطخري والبيروني والإدريسي والحَمَوي وغيرهم كثير.

المشكلة الحقيقة أن البغدادي يتحدث بيقين مطلق في أمر نسبي، ويحاول أن يؤكد هذه المقولة فيلجأ إلى استدلال جدلي يعتمد على مقدمة محتملة فيقول: «ولو كانت كذلك لوجب ألا يلحق الحجرُ الذي نلقيه من أيدينا الأرض أبداً؛ لأن الخفيف لا يلحق ما هو أثقل منه في انحداره»، فهذا الاستدلال والذي قبله استدلالان خاطئان؛ لأنهما استندا إلى مقدمات شائعة عند العوام قد ثبت خطأها الآن، بل ثبت خطأها عند علماء أصول دين وعلماء فلك آخرين في التراث نفسه! حيث كانوا قد أثبتوا بشكل برهاني، وأيضا من النص القرآن، أن الأرض ليست ثابتة وإنما هي متحركة. كما أنه في الاستدلال الثاني يستند إلى مقولة كانت شائعة في عصره ظهر خطؤها منذ قرون طويلة، وهي: «أن الخفيف لا يلحق ما هو أثقل منه في انحداره»، فهذه مقدمة كانت شائعة عند العوام، لكن أثبت العلم عدم صوابها؛ لأن قانون الأجسام الساقطة ينص على أن الريش يسقط بنفس سرعة سقوط الحديد على الأرض، إذا كان سقوطهما سقوطاً حراً لا تعوقه حركة الهواء.

وأيضاً فإن قوله:» لو كانت كذلك لوجب ألا يلحق الحجرُ الذي نلقيه من أيدينا الأرض أبداً». فهذا قول كان شائعاً عند العوام في عصره قد ثبت خطأه؛ لأن قوة الجاذبية الأرضية تتدخل في الحركة الطبيعية للأجسام فتجذبها نحوها، حتى لو كان الاثنان متحركان.

واستنادا إلى كل ما سبق، فإن التراث ليس كله مقدسا، وليس كله متروكا، بل به الإيجابي وبه السلبي.

ما النتائج المترتبة على هذا كله؟

اترك الحكم لك عزيزي القارئ. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى».

فنون السب والتعيير دفاعا عن العقائد!

١٦ فبراير ٢٠٢٠م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في عصر تغيب فيه الواضحات، لابد من إعادة توضيح الواضح! إن القرآن والسنة الصحيحة ليسا تراثًا، بل فوق التراث. ولا يعني تأسيس عصر ديني جديد، الإتيان بدين جديد. ومن أسف البعض تسرع بالحكم دون أن يقرأ على الرغم من أنه من أمة (اقرأ)، تسرع بالحكم بأن المقصود هو الإتيان بدين جديد.. هكذا مرة واحدة: دين جديد!! إن الأمر ببساطة هو محاولة تأسيس مناهج جديدة في فهم القرآن والسنة الصحيحة وفق ضوابط علمية دقيقة، وهذه الضوابط علمية وليست على طريقة الشاردين وراء أفكارهم دون تأسيس علمي رصين من العلوم الدقيقة.

أما التراث فمنه الحي ومنه الميت، منه الإيجابي ومنه السلبي. حتى في علم أصول الدين، وهو علم بشري، نجد السلبي ونجد الإيجابي، نجد ما يبتعد عن مقاصد القرآن والسنة الصحيحة، ونجد ما يتفق معهما. وحتى لا أستمر في التنظير، سوف أضرب مثلا على ذلك من العالم الأشعري الجهبذ في علم أصول الدين القديم، عبد القاهر البغدادي المتوفى عام ٤٢٩ هـ في كتابه (الفَرق بين الفِرق) المنشور بتحقيقي ودراستي منذ اثنين وثلاثين عاما. وغني عن البيان أن تحقيق ودراسة كتاب لا يعني بالضرورة الاتفاق مع آرائه، لكن في عصر غياب البديهيات الواضحات، ربما يخرج عليك شخص يحملك كل تبعة آراء الكتاب الذي حققته، متناسيا أو متجاهلا أو جاهلا بأن التحقيق عمل علمي يمكن أن تقوم به حتى مع كتاب من دين آخر أو من حضارة أخرى. ليست هذه مشكلتنا الآن، ونرجع إلى موضوع هذا المقال.

في علم أصول الدين القديم ومجال الدراسات العقائدية في التراث، تجد أنواعا عدة من الخطاب تستخدم طرقا ومناهج متنوعة، وهي تدور حول ثلاثة مناهج:

أولاً: المنهج الخطابي: وهذا المنهج يعتمد على أساليب الإقناع العاطفي، ودغدغة مشاعر العوام، والعبارات التي توهم بالانتصار، ويلجأ مستخدمو هذا المنهج كثيرا إلى تعنيف الخصم والسخرية منه وتعييره، مستخدمين تعبيرات بلاغية وألفاظ رنانة على طريقة الشجار في حروب الشوارع. وطبعا تجد بقوة في هذا النوع من الخطاب الاستدلالات السفسطائية التي تخيل على العوام وجماهير كرة القدم التي يحركها العصبية والتعصب وغريزة القطيع. كما تجد في هذا النوع من الخطاب الاستدلال بالشعر الذي يستخدم أساليب وتركيبات تؤثر في المشاعر وتثير الفخر الكاذب.

ثانياً: المنهج الجدلي: هو المنهج الذي يعتمد على الاستدلالات التي تقوم على مقدمات ظنية محتملة، أي آراء شائعة أو مقبولة عند العامة. ومعنى ذلك أنه منهج احتمالي، وهو يتوسط المنهج الخطابي والمنهج البرهاني.

ثالثاً: المنهج البرهاني: يقوم على الاستدلال الذي ينتقل فيه الذهن من مقدمات يقينية ثابتة صادقة علميا أو عقليا، أو مقدمات أولية مسلمة إلى قضايا تنتج عنها بالضرورة. وقد عد المناطقة القدامى هذا النوع أسمى صور الاستدلال؛ لأنه يقوم على أساس من مقدمات يقينية وينتهي تبعا لذلك إلى نتائج يقينية.

وتتوقف قيمة الكتاب في علم أصول الدين أو غيره من العلوم، من الناحية الموضوعية البحتة بشكل كبير، على استخدام المؤلف لأي من هذه المناهج؛ فأعلى الكتب قيمة هي التي تستخدم المنهج البرهاني، يليها الكتب الجدلية، ثم الكتب الخطابية. وليس بالضرورة أن المؤلف يتحتم عليه أن يستخدم منهجاً من هذه المناهج الثلاثة دون المنهجين الآخرين، فقد يلجأ المؤلف إلى استخدام المناهج الثلاثة معاً تبعاً لمقتضيات السياق سواء كان واعياً بهذا، أو غير واع، وهو الأغلب، وقد يكون استخدامه لهذه المناهج بشكل متوازن دون أن يطغى منهج منها على الآخر، وقد يغلب إحداها ويتراجع الباقيان.. وهكذا حسب منطق الاحتمالات.

وبالنسبة إلى عبد القاهر البغدادي، فإنه قد تعامل مع العقائد في كتابه (الفَرق بين الفِرق) بهذه المناهج الثلاثة، وإن كان استخدامه للمنهج البرهاني هو أقل استخدام؛ حيث يغلب على الكتاب المنهجان: الخطابي والجدلي.

أما المنهج الخطابي فيبرز بوضوح من خلال لجوئه المستمر إلى أساليب الإقناع العاطفي، واستخدام أساليب السب والتعنيف والسخرية من الخصوم، بل والتعيير والشماتة فيهم، حتى في أشياء ليسوا مسئولين عنها لأنها من قدر الله تعالى. وعلى سبيل المثال ينتقد الجاحظ مستشهداً بقول الشاعر فيه:

لو يُمْسَخُ الخنزيرُ مَسْخاً ثانياً ما كان إلا دُون قُبْحِ الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه وهو القَذَى في كل طَرْفٍ لاحظ

وهو ما اقتبسه منه بعد ذلك آخرون، منهم أبو المظفر الاسفراييني الأشعري في كتابه :(التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين).

وعندما يعرض لآراء فرقة العمروية من فرق المعتزلة يقول: «هؤلاء أتباع عمرو بن عبيد بن باب مولى بن تميم، وكان جده من سبى كابل، وما ظهرت البدع والضلالات في الأديان إلا من أبناء السبايا»!

هكذا يسخر البغدادي من رجل يخالفه في الرأي، ولا شك أن هذا قول متسرع منه، فإن كثيراً من أصحاب الضلالات والبدع في التراث كانوا من أبناء الحرائر أيضا. ولسنا بحاجة للقول إن الأسيرة لا ذنب لها أنها أسيرة ولا ذنب لابنها أو ابنتها، لكن ماذا يمكنك أن تفعل مع عقول تعير الإنسان بأنه أعمى أو مولود بعيب خلقي أو أنه من أبناء السبايا! إنه شجار حرب الشوارع!

وأيضا بما أننا في عصر ضرورة توضيح الواضح، فإن تعيير البغدادي للجاحظ كان بسبب أنه معتزلي يخالف الأشاعرة الرأي، أما أنا هنا فلا أدافع عن آراء الجاحظ ولا عن المعتزلة وفرقها، فلم أكن في يوم ما معتزليا ولن أكون، وأعدها أمرا من أمور الماضي ومعاركه القديمة، لكن النقطة هنا هي التوقف عند أسلوب البغدادي الذي يدافع عن عقائده بالسخرية من خصومه وتعييرهم وسبهم! وهذا منهج أصيل لا يزال مستمرا حتى الآن؛ فنحن لا نزال نعيش في الماضي، أما الحاضر فقد تركناه للأمم الأخرى التي تحولت إلى مسارات العلوم الحديثة، ونحن قابعين في القديم وبُناته الذين كفونا الكلام عند التحدي!

وأيضاً لا يتورع عبد القاهر البغدادي عن اتهام خصومه في أعراضهم، وعلى سبيل المثال عندما يعرض لرأى ثمامة بن الأشرس في السبي، يقول: «كان يحرم السبي؛ لأن المسبي عنده ما عصى ربه إذا لم يعرفه، وإنما العاصي عنده من عرف ربه بالضرورة ثم جحده أو عصاه». فهذا رأى ثمامة يقدمه البغدادي ثم يعلق عليه قائلا: «وفى هذا إقرار منه على نفسه بأنه ولد زنى؛ لأنه كان من الموالي، وكانت أمه مسبية»!

هكذا يتبع البغدادي منهج حرب الشوارع وأسلوب القتل المعنوي لخصمه، وربما يعقبه القتل الجسدي من الأتباع، وهو منهج قديم جديد عند أصحاب هذه الطريقة في التفكير. ولا أدري كيف يقرأون في صلواتهم قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (سورة النحل:٢٥). قال البغوي: «القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف». انظر (تفسير البغوي: ٥/٥٢).. لكن المتطرفين من أهل التفسير يعدون هذه الآية منسوخة حتى يبرروا لأنفسهم الاعتداء على الآخرين بالقتل المعنوي أو الجسدي! ومن الممكن أن يقدموا لك تفسيرا تفصيليا حسب أهوائهم فيقولون :(هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة)(راجع الأقوال التي أوردها القرطبي في تفسيره، ص: ١٨٢).

وهكذا مجددا: التراث منه السلبي ومنه الإيجابي حتى عند علماء التفسير. فهل يصح أن ندافع عن التراث كله بإطلاق مثلما يزايد البعض؟ وهل يصح أن نهين التراث بإطلاق مثلما يتسرع البعض؟

ربما تقودك الإجابة إلى ضرورة صناعة وسط ذهبي جديد، والعودة إلى الينابيع الصافية: القرآن والسنة الصحيحة».

الثوابت والمتغيرات في الإسلام (١)

٢٣ فبراير ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن محاولة تأسيس عصر ديني جديد تقوم على ضوابط ومعايير عديدة، تناولتها في كتابي بعنوان «نحو تأسيس عصر ديني جديد» الصادر منذ سنوات، وقبلها في مؤلفات وأبحاث عديدة سابقة عليه عبر عقود أربعة. ومن أهم هذه الضوابط:

 العودة إلى المنابع الصافية:

وهي القران والسنة الصحيحة فقط، فكل ما جاء بعد اكتمال الدين ليس دينا، وإنما هو محاولات بشرية قابلة للصواب والخطأ. فقد بدأت الكلمة الإلهية في الإسلام بـ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، وانتهت بـ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)؛ فالدين اكتمل بإعلان إلهي، وهذه هي كلمته الأخيرة، وهنا انغلقت «دائرة الكلمات المقدسة». إذن كل ما جاء بعد ذلك في التراث ليس «دينا»، بل هو مجرد اجتهادات بشرية في فهم الدين واستنباط الأحكام، يصيب فيها مَنْ يصيب ويخطئ فيها مَنْ يخطئ، ولا يحمل أحد صكا إلهيا، وليس لبشر العصمة سوى الرسول المعصوم في أمر الدين بالوحي؛ فالقرآن الكريم لا توجد فيه آية واحدة تعين شخصا سوى الرسول (عليه الصلاة والسلام) للحديث باسم الحقيقة الدينية، والرسول لم يرد عنه في أي حديث متواتر تحديد شخص بعينه ليحمل الرسالة بعده، بل القرآن يذم طاعة السادة والكبراء دون برهان محكم وحاسم لمجرد أنهم سادة وكبراء.. (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا).(انظر كتاب نحو تأسيس عصر ديني جديد ص ٧، ٨. وأيضا مقال الوطن: المقدس والبشري في الإسلام بتاريخ ٢٠١٥ /٠٤ /١٢).

يوجد فرق بين «الإسلام» و«التراث»، فالإسلام (قرانا، وما بينته منه السنة الصحيحة)، إلهي المصدر، أما التراث فهو منجز بشري نقدر بعضه ونرفض بعضه، ومن الخطأ بل من الجور على الدين أن نعد الاجتهادات الفقهية أو التفسيرية من أي نوع دينا مقدسا. إن الدين في ثوابته وحي مطلق، لكن تفسيره عمل بشري نسبي متطور خاضع لاختلاف الزمان والمكان والتقدير العلمي في ضوء اعتبارات المصالح العامة والمرسلة. ومن الخطأ دمجه في بنية وتكوين المقدس، ومن يفعل ذلك من البشر فإنه يعطي لنفسه سلطة إلهية تتعارض مع مفهوم التوحيد النقي والشامل للواحد الأحد المالك وحده للحقيقة المطلقة، فالمطلق هو من يملك الحقيقة المطلقة، أما النسبي- وهو ما سوى الله- فلا يملك إلا حقائق نسبية. من أجل ذلك نجد المولى يقول : (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (الحج: ٦٨- ٦٩). (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) (سبأ : ٢٦). (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (الحج: ١٧).

ومن هنا فليس من الابتداع فحص التراث فحصا عقلانيا نقديا، وليس ما ندعو إليه في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد) ينال من الثوابت .. طبعًا لا .. لأن هذه الثوابت من القران والسنة الصحيحة المتواترة.. وهي ليست جزءا من التراث، بل هي فوق التراث. ومن المغالطة التوحيد بين الوحي والتراث؛ لأن في هذا إضفاء للقداسة على أعمال بشرية، وهو ما يعارض التوحيد الخالص.

 الثوابت:

هناك ثوابت من حيث المصادر، وهي القرآن والسنة المتواترة. وهناك ثوابت من حيث الموضوعات، وهي (ما علم من الدين بالضرورة، من القطعيات الثبوت والمعنى، وتشمل الأصول الاعتقادية والعبادية والأخلاقية والمقاصد الكلية والضروريات الخمس وأصول المعاملات والمحرمات، في القرآن والسنة المتواترة)، مثل: أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره. وأركان الإسلام الخمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. وتوجد فروق بين الإسلام والإيمان، من بينها الفرق بينهما في كون أركان الإسلام أعمالا ظاهرة تقوم بها الجوارح: النطق والتلفظ لسانا بالشهادتين، والصلاة والزكاة والصيام والحج. أما أركان الإيمان فهي من أعمال القلوب الداخلية الباطنة: الإيمان بالله وملائكته... الخ.

وهذه هي الثوابت من الأصول الاعتقادية، طبعا في نقائها الأول قبل نزاعات الفرق والطوائف، مثل المعتزلة والأشاعرة والشيعة والجهمية والمرجئة والخوارج والقرامطة وغيرها.

إن تلك الفرق العقائدية التي يدافع عنها البعض دفاع المشجع لفريق من فرق كرة القدم، قد نشأت لاحقًا، وهي تقع تحت طائلة قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام: ١٥٩). ومن الخطأ الواضح تفسيرها على أهل دين بعينه؛ لأن اللفظ عام، والعبارة كلية تشمل كل من يفعل ذلك.

إذن فإن انتسابنا العقائدي يجب أن يكون للإسلام قرآنا وسنة صحيحة وليس إلى الفرق والطوائف؛ فالنبي وأصحابه الكرام لم يكونوا معتزلة ولا أشاعرة ولا شيعة ولا مرجئة ولا جهمية ولا حشوية ولا ماتريدية! ومن هنا يجب غلق صفحة الفرق العقائدية القديمة إذا كانت لدينا النية والإرادة لتأسيس خطاب ديني جديد.

إن الأصول الاعتقادية ثابتة بالقرآن الكريم والسنة المتواترة. والإيمان بوجود الله مطلق، لكن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة عنه سبحانه ولا أحد يتحدث باسمه أو عنه سبحانه إلا النبي (عليه الصلاة والسلام) فيما ثبت ثبوتا يقينيًا عنه. الإيمان بوجوده سبحانه هو وجهتنا ووجهة الحنفية السمحة :(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: ٧٩).

ان الواحد الأحد هو مقصد العبادة الحق، وتنمية العالم هي الرسالة التي يجب أن يتوجه الإنسان إليها بعد انتهائه من صلاته، عوضا عن النزاعات العقائدية التي أوقعنا فيها أرباب الفرق والمتعصبون لها، والذين لا يزالون يشدونا إلى معارك الماضي، أولئك الذين يزعمون أنهم يحاربون الإرهاب وهم في الوقت نفسه يغذون البيئة الحاضنة للعقل الإرهابي بأفكارهم المغلقة التي تجمدت مثل الحجر الصوان! وبكتبهم التي حولوها إلى كتب مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها! وهذا المعنى للتوحيد قد لمسته في دراستي المنشورة عام ١٩٨٢م لتحقيق كتاب (فهم الصلاة) للمحاسبي.

وأيضا من الأمثلة على ما عُلم من الدين بالضرورة، من القطعيات الثبوت والمعنى، الأصول الأخلاقية في القرآن والسنة المتواترة: الصدق والأمانة والعدل والتعاون وبر الوالدين إلخ. والمقاصد الكلية والضروريات الخمس وهيَ حفظ : الدِّين، وَالنَّفْس، وَالنَّسْل، وَالْمَال، وَالْعَقْل . وأيضا أصول المعاملات والمحرمات، مثل : السرقة والقتل والغش، إلخ.

ونحن هنا نتحدث عن الأصول الكلية التي عليها نص صحيح صريح قطعي الثبوت والدلالة، الأصول التي عُلمت من الدين بالضرورة، في الآيات المحكمات اللاتي هنّ أم الكتاب. ولا نقصد الفروع أو فروع الأصول، لأن تلك الفروع من المتغيرات بحكم أنها ترجع إلى نصوص متعددة الدلالة، أو لم تبلغ في ثبوتها مبلغ اليقين، أو لم يأت فيها نص صريح قطعي الثبوت قطعي المعنى، أو ليس فيها حكم عقلي راسخ مجمع عليه في كل العصور.

ومساحة تلك المتغيرات أكبر مما يتصور البعض. والحديث عنها وعن سائر المعايير الأخرى لتكوين عقل ديني جديد وتطوير علوم الدين وليس إحياء علوم الدين، سوف نتناوله في المقالات التالية إن شاء الله تعالى. الحديث لم يكتمل، والمقاصد لا تزال بحاجة إلى توضيح في عصر من لوازمه توضيح الواضح وإعادة التكرار لما قيل عبر أربعة عقود مطبوعا وله أرقام إيداع!».

الثوابت والمتغيرات في الإسلام (٢)

١ مارس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

 المتغيرات:

إن التجديد يقتضي فتح الأبواب والعقول. والرافعون لشعار التجديد دون أن يجددوا حالهم حال من يُطلب منهم أن يفتحوا بابًا في الأسوار المغلقة، فيستجيبون فورا برسم باب على تلك الأسوار! ثم يطلبون منك المرور منه!

وهم يدعون أنهم سوف يقومون بالتجديد، وأنهم أولياؤه، وأنهم ملاك مفاتيح العقل والشرع، ثم يرفضون فتح عقولهم لهواء جديد! وهم أيضا يعترفون باشتمال الدين على متغيرات، لكنهم يعودون فيجمدون معانيها عند سالف الدهر!

إن الدين ثابت ومطلق في ذاته، لكن طرق فهمه وتفسيره في النصوص متعددة المعاني وظنية الدلالة تأتي تبعا لعقول البشر وضوابطهم التي تختلف من مرجعية إلى مرجعية أخرى؛ وتختلف طرق تنزيل أحكامه الثابتة على الواقع المتغير من مدرسة فقهية إلى أخرى. ولذلك عندما قال الخوارج: «لا حكم إلا لله»، رد عليهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قائلا: «القرآن بين دفتي المصحف لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال»، ما أعظم الإمام عليّ!

وتشمل المتغيرات في الإسلام النصوص المتعددة المعاني من الكتاب والسنة الصحيحة، ومجالات الاجتهاد التي لم يقم عليها دليل قاطع في الثبوت وقاطع في المعنى. وقد تشمل الطرق المتعددة لإنزال ثوابته في الأحكام العملية على الواقع الذي يستلزم أحكامًا جديدة، ولهذا حديث آخر مطول لا ابتداع فيه بالعودة إلى العظيم عمر بن الخطاب. أؤكد (لا ابتداع فيه) حتى يهدأ المنغلقون والمزايدون.

والمتغيرات في الدين كثيرة جدا، ونطاقها أوسع كثيرا من نطاق الثوابت؛ وأوسع مما يظن البعض، وهي في أقل تقدير تبلغ ٧٥ ٪ من الدين؛ ويصل بها البعض إلى ٩٥ ٪؛ لأنها تشمل كل الآيات والأحاديث المشتملة على ألفاظ أو عبارات متعددة المعنى حسب قواعد اللغة العربية ودلالات معاجمها، وهي غير قاطعة في دلالتها على معنى واحد من القرآن الكريم والسنة الصحيحة. وهذا أحد أسباب اختلاف الفقهاء والمفسرين في تحديدها. وهي تمثل الجانب المتغير من الإسلام، قال الشاطبي في هذا النوع من الأحكام: «مجال الاجتهاد المعتبر هي ما ترددت بين طرفين، وضح في كل واحد منهما قصد الشارع في الإثبات في أحدهما والنفي في الآخر، فلم تنصرف البتة إلى طرف النفي ولا إلى طرف الإثبات» (الموافقات: ج٤ ص ١٥٥).

هذا الجانب المتغير هو ما يجب أن نعيد فحص التراث بشأنه فحصا نقديا، من أجل تطوير علوم الدين، وليس إحياء علوم الدين؛ لأن الإحياء معناه أنك سوف تحول كل المتغيرات إلى ثوابت لكل العصور. والله سبحانه لو كان يريد الدين كله ثوابت، لجعل كل آياته محكمات قطعية الدلالة، لكن ما حدث فعلا أن القرآن منه القطعي المعنى لأنه من الثوابت لكل العصور وهو ما أوضحناه في المقال السابق إجمالا، ومنه متعدد الدلالة ومرن المعاني لكي يلاءم كل المتغيرات التي تختلف باختلاف الزمان والمكان، ويصبح الانتقال من معنى إلى معنى تبعا للمصالح العامة.

وهذا الفهم للجانب المتغير في الإسلام، يعد أحد أسرار عظمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في فهمه لكثير من الأحكام الواردة في القرآن والسنة؛ حيث تعامل معها على أنها أحكام ليست ثابتة في تنزيلها على الواقع، بل متغيرة، مثل حكم (الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) التوبة:٦٠، ومثل عدم تطبيق حد السرقة في عام الرمادة (المنتقى شرح موطأ مالك). بل إن هذه نصوص يقينية الثبوت يقينية الدلالة، لكن تتغير طرق إنزالها على الواقع كما فعل عمر، ولهذا حديث آخر مطول لا ابتداع فيه بالعودة إلى العظيم عمر بن الخطاب كما قلت من قبل.

ومن الأمثلة أيضا على الأحكام المتغيرة في الإسلام (كما في غريب الحديث لابن سلام، ج ٣ ص ١٩٤)، حديث عمر أنه أخّر الصدقة عام الرمادة، وفي العام التالي أخذ منهم صدقة عامين. إن عمر فهم من الإسلام ما لم يفهمه الكهنة الذين يريدون أن يجمدوا الدين عند الماضي، مع أنه مجال عام مفتوح لتطور الأحكام في كل العصور في الجانب المتغير، وفي طرق إنزال الثوابت على الواقع المتغير. لكن الغريب أن البعض يقولون بمثل ما نقول به لكنهم عند التنفيذ يفعلون شيئا آخر ويظلون على جمودهم؛ فالتجديد عندهم شعارات مرفوعة، لكن الواقع يقول إنهم يرفضون أي تغيير حتى في الأحكام المتغيرة التي يحتاجها المجتمع لمواجهة مشكلاته! إنهم يرسمون بابا للتجديد على الأسوار مجرد رسم، لكنهم أبدا لن يفتحوا بابا حقيقيا! أرجو أن نفهم!

ومن روائع عمر أنه استحدث نظما ليست في الإسلام، مثل الدواوين الحكومية، وأخذ فيها عن الأمم الأخرى، ولم يرفع شعار أننا الأفضل في كل شيء وعندنا كل شيء! واستفاد من الأنظمة الفارسية والرومانية، مثل بيت أو ديوان المال، وديوان الإنشاء، وديوان العطاء، وديوان الجند الخ. وأبقى عمر على النقود المسيحية والفارسية الذهبية والفضية التي كانت متداولة وعليها نقوشهم، وهو أول من ضرب النقود في الإسلام، بل اعتمد النقش الفارسي مضيفا عليه «لا إله إلا الله» أو «الحمد لله» ووضع على جزء منها اسمه. (تقي الدين المقريزي، شذوذ العقود في ذكر النقود، ص ٣١-٣٣).

والسؤال هنا: هل ما يجب علينا هو اتباع عمر بن الخطاب في آرائه أم في منهجه؟ هل المطلوب منا تقليده حرفيا في آرائه، أم في منهجه؟ أتصور أن الاتباع الحق هو تقليده في منهجه؛ لأنه منهج علمي أصيل؛ بينما الآراء تتغير تبعا للمصلحة العامة وتبدل الظروف. والدليل على ذلك أن عمر نفسه غيّر من بعض آرائه عندما تبين له أفضل منها، وغيّر كثيرا من الأحكام قبله للعلة نفسها، وهي تغير المصلحة العامة وتبدل الظروف والمرونة التي يتمتع بها المتن المقدس في آياته وألفاظه متعددة المعاني حسب قواعد ومعاجم اللغة العربية ومقاصد الدين العامة.

لكن هنا يظهر البعض من جديد ويقولون: نحن نقول بذلك! لكن السؤال المتجدد: هل هم يفعلون ما يقولون؟ لو كان فريق المعارضين من عصرنا موجودا في عصر عمر، ماذا كانوا سيقولون له؟

بالمنطق نفسه الذي يحكم عقولهم الآن كانوا رددوا: كيف تجرؤ على تغيير أحكام سابقة؟ كيف تجرؤ على فهم آية على غير منوال سابق لفهمها؟ كيف تعطل حدا من حدود الله؟ كيف تستحدث نظما في الحكم والإدارة لم يقل بها الرسول عليه الصلاة والسلام؟ كيف تستحدث نظما ليست موجودة في القرآن الكريم؟ ألم يقل الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)؟

وطبعا هم يفهمون الآية الأخيرة خطأ لأنهم ببساطة يفسرونها خارج سياقها في الكتاب الكريم، وخارج السنة الصحيحة المبينة لها. ولنا حولها حديث آخر مطول لا ابتداع فيه، لكن المشكلة تكمن في الجهالة المطبقة أحيانا، وتكمن أحيانا أخرى في بنية العقول التي تتركب فيها طرق الاستنتاج تركيب بيت العنكبوت! وتكمن أحيانا ثالثة في عواطف عمياء تسبح في بحور من سوء الفهم والتفهم!

ولا يزال للحديث بقية عن المتغيرات، وطرق إنزال الأحكام الثابتة على الواقع المتغير، وأمثلة صريحة من الدين عليها إن شاء الله تعالى».

تعددية الصواب

٨ مارس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«يرى الخطاب الديني التقليدي أن الرأي الصواب واحد، وأن الآراء الأخرى المختلفة عنه خاطئة. ويُرتب على ذلك أن التفسير المقدم للقران أو السنة النبوية يجب أن يكون ذا معنى واحد صحيح فقط، بينما سائر المعاني خاطئة. ويمكنك أن تجد أمثلة كثيرة على ذلك عند الطبري في تفسيره « جامع البيان في تأويل القرآن»، والقرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»، والرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، وغيرهم من المفسرين؛ وأيضا تجد أمثلة على ذلك عند شراح السنة النبوية مثل ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، والنووي في كتابه «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج»...الخ. وأخشى أن يُفهم من كلامي أن هذا حكم شامل على هؤلاء المفسرين والشراح، وهنا أقول إنني هنا أتكلم في نقطة محددة، ولا أصدر أحكاما عامة على هؤلاء العلماء الذين لأعمالهم ميزات وبها سلبيات شأن أي عمل بشري، ولا يصح إنكار جهودهم العلمية كلية ولا يصح قبولها كلية. والنقطة التي أتحدث فيها هي: هل الصواب في المتعدد الدلالة واحد أم متعدد؟ وهنا نتخلف عنهم في موقفهم القائل بالصواب الواحد.

إن الخطاب الديني الجديد يرى تعددية الصواب؛ لكن هذه التعددية ليست مفتوحة بشكل فوضوي، بل تحكمها ضوابط عديدة، من أهمها: أن تكون المعاني يحتملها النص طبقًا لقواعد اللغة ومعاجمها، وتلاؤم المعاني مع السياق، وأن تكون المعاني في إطار عدم التعارض مع نصوص أخرى في الكتاب الكريم، وفي إطار السياق التاريخي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي في تحديد المعنى، إلى آخر الضوابط التي سوف نخصص لها حديثا منفصلا.

لا يوجد معنى واحد صائب بإطلاق، بل معاني متعددة، لكنها ليست فوضى للمعاني دون ضوابط علمية. وهنا نتوقف قليلا لإعطاء الدليل على هذا الموقف المعرفي من الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، فماذا نجد؟

تقبل النبي نفسه عليه الصلاة والسلام، بشكل واضح وصريح في الحديث الصحيح، تفسير أوامره بطريقتين، وعدّ الطريقتين المختلفتين في تفسير أوامره صحيحة!

ومن أشهر أمثلة نصوص السنة دلالة على هذا وأكثرها وضوحا، ما رواه البخاري (٩٠٤) ومسلم (١٧٧٠)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : نَادَى فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنْ الْأَحْزَابِ :(أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ)، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ. قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنْ الْفَرِيقَيْنِ. فقد عدَّ الاثنين على صواب.

ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى من الصلاة، فطريقة وضع اليد أثناء الوقوف، اختلفت الآراء فيها، وكل منها يستند إلى حديث من أحاديث النبي (ص) أو الصحابة بدرجات مختلفة من الثبوت، فالإمام مالك كان يرسلهما ولا يضع إحداهما على الأخرى، وهي الأشهر، وعنه رواية أخرى أنه كان يضعهما تحت صدره، وعن مالك رواية ثالثة هي استحباب الإرسال في الفرض والوضع في النفل. وقال أبو حنيفة وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه وأبو إسحاق المروزي: يجعلهما تحت سرته. وقال النووي في شرح مسلم: «يجعلهما تحت صدره فوق سرته، هذا مذهبنا المشهور، وبه قال الجمهور»، وعن أحمد روايتان كالمذهبين، ورواية ثالثة أنه مخير بينهما ولا ترجيح، وبهذا قال الأوزاعي وابن المنذر. وكل منهم يستند إلى حديث عن النبي (ص) أو خبر عن أحد الصحابة.

ويدخل الخطاب الديني السائد في الأغلب الأعم في نزاع حول أي وضع هو الصحيح، وقد يصل هذا النزاع أحيانا إلى تصنيف كل فريق للآخر تصنيفا سلبيا! ولا أبالغ في ذلك، فقد حدثت صراعات بين أطراف عديدة في بعض المساجد (بعض وليس كل) حول هذا الموضوع وغيره من الفروع التي جاءت فيها روايات متعددة بدرجات مختلفة من الثبوت عن النبي (ص) حول هذا الموضوع وبعض الهيئات الأخرى في الصلاة، مثل جلسة الاستراحة، وتحريك السبابة أثناء التشهد، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم سرا أم جهرا، إلخ.

وفي الواقع أنها كلها هيئات كان يفعلها الرسول (ص)، وهي لا تدخل في بنود الأركان أو الفروض أو الواجبات، لكن أهل الأفق الضيق يدخلون كل المعارك الزائفة ولا يميزون بين مجال الثوابت ومجال المتغيرات، ويرفضون سنة النبي في الاختيارات المفتوحة في كثير من الأمور، ويصرون على الرأي الواحد، والصواب الواحد، وهنا يقدمون حاضنة معرفية لطريقة التفكير القائمة على الأحادية ورفض التنوع ورفض الأخر، ومن هنا تبدأ أول خطوات التعصب، ثم التطرف ثم الإرهاب!

إذن لا معنى واحد صائب بإطلاق، بل معان متعددة، لكنها ليست فوضى للمعاني دون ضوابط علمية».

للمعنى الواحد، وَمِنْ ثَمَّ التعصب المطلق ورفض الآخر ورأيه، وَمِنْ ثَمَّ الدخول في مشاحنات ومعارك تؤدي إلى الفرقة والتفرق والتكفير. وَمِنْ ثَمَّ الحالة التي نحن عليها منذ فتنة عثمان والتي لم تنته حتى الآن في بنية التفكير وفي معارك التطرف والإرهاب! فلا يزال ملاك مفاتيح الحقيقة المطلقة يصرون على واحدية الصواب وجمود المعنى من الأزل إلى الأبد!

والدرس الثاني الذي يمكن أن نخرج به من الاختلاف على تفسير أوامر النبي عليه الصلاة والسلام في حادثة بني قريظة، أن الفريقين المختلفين من الصحابة لم يدخلوا في معركة جانبية للتشاحن حول معرفة مَنْ على صواب ومَنْ على باطل، بل واصل الجميع تحقيق الهدف الرئيسي، وتركوا الخلاف النظري وما ترتب عليه من اختلاف عملي جانبا. وهذا كله ضد التعصب وضد التطرف، وهو علامة على الحصانة العقلية ضد التورط في معارك جانبية.

والدرس الثالث أن الدين به ثوابت، وبه متغيرات أو اختيارات متعددة أحيانا ومفتوحة أحيانا أخرى، والثابت أن الصلاة ركن من أركان الدين لا مجال للخوض في ركنيتها ولا في الثوابت في عددها أو في طريقتها، لكن بها ولها أمور متغيرة من المحتمل فهمها بمعان متعددة، والاختيارات مفتوحة بقدر هذا التعدد طالما وردت في السنة الصحيحة الثابتة، ويمكن التعامل معها على أنها كلها صواب، وهذا ما ظهر لنا في هذا الحديث الصحيح :(أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ)، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ. قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنْ الْفَرِيقَيْنِ. فقد عدَّ الاثنين على صواب.

ويمكن أن نضرب أمثلة أخرى من الصلاة، فطريقة وضع اليد أثناء الوقوف، اختلفت الآراء فيها، وكل منها يستند إلى حديث من أحاديث النبي (ص) أو الصحابة بدرجات مختلفة من الثبوت، فالإمام مالك كان يرسلهما ولا يضع إحداهما على الأخرى، وهي الأشهر، وعنه رواية أخرى أنه كان يضعهما تحت صدره، وعن مالك رواية ثالثة هي استحباب الإرسال في الفرض والوضع في النفل. وقال أبو حنيفة وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه وأبو إسحاق المروزي: يجعلهما تحت سرته. وقال النووي في شرح مسلم: «يجعلهما تحت صدره فوق سرته، هذا مذهبنا المشهور، وبه قال الجمهور»، وعن أحمد روايتان كالمذهبين، ورواية ثالثة أنه مخير بينهما ولا ترجيح، وبهذا قال الأوزاعي وابن المنذر. وكل منهم يستند إلى حديث عن النبي (ص) أو خبر عن أحد الصحابة.

ويدخل الخطاب الديني السائد في الأغلب الأعم في نزاع حول أي وضع هو الصحيح، وقد يصل هذا النزاع أحيانا إلى تصنيف كل فريق للآخر تصنيفا سلبيا! ولا أبالغ في ذلك، فقد حدثت صراعات بين أطراف عديدة في بعض المساجد (بعض وليس كل) حول هذا الموضوع وغيره من الفروع التي جاءت فيها روايات متعددة بدرجات مختلفة من الثبوت عن النبي (ص) حول هذا الموضوع وبعض الهيئات الأخرى في الصلاة، مثل جلسة الاستراحة، وتحريك السبابة أثناء التشهد، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم سرا أم جهرا، إلخ.

وفي الواقع أنها كلها هيئات كان يفعلها الرسول (ص)، وهي لا تدخل في بنود الأركان أو الفروض أو الواجبات، لكن أهل الأفق الضيق يدخلون كل المعارك الزائفة ولا يميزون بين مجال الثوابت ومجال المتغيرات، ويرفضون سنة النبي في الاختيارات المفتوحة في كثير من الأمور، ويصرون على الرأي الواحد، والصواب الواحد، وهنا يقدمون حاضنة معرفية لطريقة التفكير القائمة على الأحادية ورفض التنوع ورفض الأخر، ومن هنا تبدأ أول خطوات التعصب، ثم التطرف ثم الإرهاب!

إذن لا معنى واحد صائب بإطلاق، بل معان متعددة، لكنها ليست فوضى للمعاني دون ضوابط علمية».

نخرج من أجواء كورونا خمس دقائق..

١٥ مارس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«من الخطأ الفادح تجميد نصوص الكتاب عند معنى واحد بشري، ومن الخطأ سجن النص المفتوح في قضبان المعنى الواحد البشري النسبي (وبالمناسبة النسبي ليس مرادفا للمشكوك فيه، ومَنْ يرادف بينهما يقع في خطأ علمي جسيم حسب كل المعاجم والمراجع في العالم كله). ولو قيدنا النص بمعنى واحد وأعطيناه صك الصحة والصواب، فسوف نقع في خطأ اللاهوتيين في العصور الوسطى الأوروبية الذين أرادوا أن يجمدوا الكتاب المقدس تارة عند حدود فلسفة أفلاطون، وتارة أخرى لاحقة عند حدود فلسفة وعلوم أرسطو، حتى أنهم كفروا وحاكموا كل من يقول بكروية الأرض وحركتها، وانتصروا في البداية، لكن الحقيقة تأبى إلا أن تكشف عن نفسها ولو بعد حين! (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت:٥٣)، (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) (النمل :٩٣).

إن القرآن الكريم، لم يتحدث عن شكل الأرض وحركتها أو ثباتها إلا بألفاظ مرنة ومجازية، أفهمها ويفهمها الكثيرون على أنها تشير إلى حركتها وكرويتها. ومع أنها مرنة ومجازية فقد أراد تيار من القدماء أن يحصرها في معنى واحد جامد في ذهنه الذي لا يستطيع أن يقبل أي معنى آخر مخالف للمعنى الواحد الذي يؤمن به! حتى أنه وحد بين المتن المقدس والمتن البشري، وكفّر بكل جرأة وصرامة مَنْ يقول بخلاف رأيه. وقد سبق الحديث عن هذا في مقال سابق، لكن ربما يكون التكرار مفيدا في عصر من لوازمه توضيح الواضح! لقد كفر بعض القدماء، ومنهم جهابذة من الأشاعرة، مَن يقول بذلك، وأكدوا استنادا للكتاب الكريم طبعا استنادا خاطئا تكفير من يقول بكروية الأرض وحركتها! مع أن آيات الكتاب استخدمت ألفاظا مرنة ومجازية، وليست صريحة وقطعية الدلالة في هذا الصدد، وهو من عظمة الكتاب. وكان هذا الأمر في التراث موضع خلاف، لكن الآن يمكننا أن نجزم بكروية الأرض وحركتها، فهل نقف عند القديم وما قاله جهابذة من الأشاعرة، أم (نتجاوزه) إلى حقائق العصر اليقينية في هذه القضية؟ إن ألفاظ القرآن الكريم كانت مرنة ومجازية في الحديث عن الأرض والظواهر الكونية، مما يغلق الباب أمام المعنى الواحد والتفسير الثابت، ومما يفتح المجال أمام البحث والاكتشاف وأمام تعددية الصواب في التفسير؛ لأن القرآن لا يقدم حقائق معلبة في هذا الجانب، والحقيقة الكونية كنز يجب البحث عنها واكتشافها، وآيات الكتاب صريحة في هذا (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس: ١٠١)، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) (العنكبوت: ٢٠)، الخ.

لننظر ماذا قال المفسرون في معنى قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) (النازعات :٣٠). يذكر الطبري المفسر الكبير، وبالمناسبة مات الطبري بعد اضطهاده ومحاصرته في بيته لمدة طويلة، ودفن في داره لأن بعض العوام والرعاع المتعصبين من ملاك الحقيقة منعوا دفنه نهارا واتهموه بإنكار بعض العقائد زورا وبهتانا، وبعضهم اتهمه بالرفض، وبعضهم اتهمه بالإلحاد، وهو أبعد ما يكون ذلك. وما فعلوا ذلك إلا لأنهم ساروا وراء شيخهم المتعصب المنغلق الذي يزعم أنه يملك مفاتيح الحقيقة! يذكر الطبري أن أهل التأويل اختلفوا في معنى الآية الكريمة، ويورد الروايات المختلفة عن مفسرين آخرين طبقا لمنهجه في التفسير، مثل :(وضع الله البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت)، ومثل : (خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، ومنه دُحيت الأرض). ولا شك أن هذه التفسيرات تعتمد على أساطير من الإسرائيليات، ولا يوجد نص قرآني ولا حديث متواتر ثابت يقينا وقطعي الدلالة يذكر هذا التفصيل العقائدي. ومن ثم فلابد من استبعاد هذه المعاني من مجال الصواب المتعدد حتى وإن كان القائلون بها من كبار القوم.

لكن الطبري يورد أيضا معان أخرى، مثل أن معنى (دحاها) دحْوَها الأقوات، ولم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار، ومعناها أيضا أخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، والدحوّ إنما هو البسط في كلام العرب، والمدّ يقال منه: دحا يدحو دَحْوا، ودَحيْتُ أدْحي دَحْيا، لغتان؛ فمعنى (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) : أي بسطها. وقال آخرون: (دَحَاهَا): حرثها وشقَّها، وقال: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)، وقرأ: (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) ... حتى بلغ (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا)، وقال: حين شقَّها أنْبتَ هذا منها، وقرأ (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ). وهناك تفسيرات أخرى، مثل: سواها، ذكرها القرطبي وغيره. وهناك من ذهب إلى أن معنى المد والبسط يفيد كروية الأرض، لأنها لو كانت على أي شكل هندسي مثل المثلث أو المربع أو خماسية أو سداسية الأضلاع إلخ، لما كانت ممتدة أو منبسطة حيث سوف تكون لها حافة بعدها الفضاء. وهنا لن تكون ممتدة منبسطة. لكن شكل سطح الكرة هو الوحيد الذي مهما سرت عليه فسوف تجد امتدادا أمامك. وهذا التفسير على سبيل الاستنتاج، لكن الحقيقة الكونية الثابتة لنا الآن تجزم بكروية الأرض وحركتها.

إذن نحن أمام معان عديدة، بعد استبعاد المعاني الأسطورية المستمدة من الإسرائيليات، منها: بسطها، ومدها، وسواها، وحرثها وشقَّها فأخرج منها النبات، وأخرج منها ماءها ومرعاها وأرسى جبالها، ومهدها للأقوات فلم تكن تصلح أقوات الأرض ونباتها إلا بالليل والنهار. وإذا فسرنا دحاها بمعنى مدها وبسطها، يكون هناك ما يفيد كرويتها، خاصة إذا تم فهمها في إطار آيات أخرى، مثل :(لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس :٤٠)، (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) (الزمر :٥). فإذا أضفنا الحقيقة الكونية الثابتة لنا الآن التي تجزم بكروية الأرض وحركتها، يتحول هذا التفسير المحتمل في الماضي، إلى تفسير صواب يقينا الآن.

لكن هل هذا التفسير ينفي المعاني الأخرى التي أوردناها؟ وهل يظل مشروعا السؤال: أي معنى من هذه المعاني هو الصواب؟ الإجابة: كلها معان صحيحة يحتملها اللفظ لغويا حسب المعاجم، ولا يوجد من الواقع الكوني ولا من نصوص الكتاب ما يعارض أيا منها، بل يمكن القول إنها جميعا صواب في إطار ضوابط مهمة في التفسير، منها: تفسير الكتاب بالكتاب. وأيضا ضابط: عدم معارضة أصل من أصول العقائد، وأيضا في إطار ضابط اللغة العربية، فتلك المعاني يحتملها النص طبقًا لقواعد اللغة ومعاجمها. وأيضا في إطار عدم مخالفة حقائق كونية صارت ثابتة. إذن فمعنى (دحاها) يحتمل كل تلك المعاني ولا يوجد ما يمنع أنها كلها مقصودة.

وعلى كل ما سبق، يتأسس القول بتعددية الصواب في التفسير في إطار الخطاب الديني الجديد، لكن هذا لا يفتح الباب بأي حال لعشوائية المعاني بلا ضوابط. إذن هي تعددية منظمة تتسع بقدر اتساع ومرونة وثراء ألفاظ الكتاب، وليست فوضى تسير مع الأهواء».

تعددية الصواب في التفسير (٢)

٢٢ مارس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن الدين في نصوصه متعددة المعاني، يقبل التأويل والاجتهاد في التفسير وفق ضوابط علمية. ولو كان الدين جامدا في تفسيره عند معنى واحد لما صلح لكل العصور. وفي هذا تكمن ميزة اشتمال الدين على متغيرات قابلة للتفسير المتجدد والمتعدد، مع التأكيد على تطور تفسير هذه المتغيرات عبر ارتقاء التاريخ، أو هكذا ينبغي أن يكون، بتطور العلوم واكتشاف الحقائق الكونية وتطور العقل البشري وتطور المجتمعات وتغير المصالح المرسلة.

وسوف نواصل في هذا المقال إيراد مزيد من الأمثلة على الفروق بين القديم والجديد، وتعددية الصواب، ووجود متغيرات في فهم آيات الكتاب، وأيضا ثراء ألفاظ وتراكيب الجمل والسياق بالمعاني المتعددة الصحيحة والقابلية لمعان جديدة ومتجددة.

ولنقف كمثال عند قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات: ٤٧). فكيف فسرها القدماء؟ وكيف تُفسر الآن؟

يذكر القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»، عن ابن عباس وغيره (وإنا لموسعون) قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. وعن ابن عباس أيضا وعن الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضا: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليله: على الموسع قدره. وقال القتبي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسع الرجل أي صار ذا سعة وغنى، ومنه قوله تعالى: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)، أي أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال. انتهى كلام القرطبي بتصرف، وهي تقريبا المعاني نفسها التي قدمها سائر المفسرين قديما قبل القرطبي وبعده، مثل الطبري في تفسيره « جامع البيان في تأويل القرآن»، فروى عدة معان: لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه. ومنه قوله (عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) يراد به القويّ. وأيضا: أوسعها جلّ جلاله. وذكر الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، وجوها: أحدها: أنه من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة، ثانيها: أي لقادرون. ثالثها: الرزق على الخلق. وفي تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي. وفي تفسير البغوي (معالم التنزيل) روايات بالمعاني نفسها عن الصحابة والتابعين، مثل: قادرون. وأيضا: لموسعون الرزق على خلقنا. وقيل: ذو سعة. وأي: أغنياء، ومطيقون. وأورد السيوطي في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) رواية عن ابن جريج : لنخلق سماء مثلها. ولا تخرج كل التفاسير القديمة عن ذلك، مثل تفاسير الزمخشري والشوكاني وابن عطية والنسفي وغيرهم مما لا يتسع المقال لإيراد أقوالهم.

لكن نحن الآن نفهمها في ضوء الحقائق المستقرة في العلوم، أن الكون يتمدد ويتسع بالمعنى الحقيقي لا المجازي، وأن سرعة الاتساع تتزايد، ومثل الكون مثل بالون من المطاط تظهر عليه المجرات والنجوم كنقوش مرسومة، والبالون ينتفخ ويتسع باستمرار، وهكذا تتباعد كل المجرات عن الأخرى في عملية التوسع والامتداد الكوني كما يقول العالم «ايدنجتون».

إن القدماء كانوا يفهمون معنى الآية فهما (مجازيا)، بينما يمكن الآن أن نفهمه فهما (حقيقا) بجوار الفهم المجازي، وكلها معان يحتملها النص ولا تخرج عن أصول الاعتقاد وما علم من الدين بالضرورة. وإذا كان من المعاصرين مَن يفسرونها بتمدد الكون واتساعه، فإنهم وقفوا عند المعنى الجديد، لكن نحن نطرح مركبا يقول بتعددية الصواب ويجمع بين الجديد والقديم في مركب واحد بعد استبعاد العناصر الأسطورية إن وجدت، وقد ظهرت أمثلة على العناصر الأسطورية في تفسير كروية الأرض في المقال السابق، لكن العناصر الأسطورية لم تظهر في تفسير (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) بعد مراجعة عشرين تفسيرا من أهم تفاسير القدماء.

فهل كان القدماء قادرين على تفسير تلك الآية الكريمة على هذا النحو الجديد في العصر الحديث؟ بطبيعة الحال لا، وهذا لا يقلل من شأنهم؛ لأن الأمر (يتجاوز) علومهم، مثلما (تتجاوزنا) نحن علوم المستقبل. وهل المعنى الجديد هو الصواب فقط والمعاني القديمة المذكورة أعلاه خاطئة؟ الإجابة غير المتوقعة التي أجيبك بها: لا لم تكن خاطئة؛ لأن اللفظ يحتملها وهي معان لا تتعارض مع مجموع الكتاب الذي يقوم على التوحيد والتنزيه. فالله قادر، وذو سعة، ولا يضيق على عباده، وغني، ويوسع الرزق على خلقه، ويوسع الرزق بالمطر، وهو يغني من يشاء، وقد جعل سعة بين الأرض والسماء، وهو قادر أن يخلق سماء مثلها. والآن نعلم إن قانون الطبيعة هو اتساع الكون وتمدده.

إذن كل تلك معان صحيحة، وهنا نصل إلى دليل جديد على موقفنا من (تعددية الصواب)، و(اتساع المتن المقدس لمعان جديدة صحيحة لم يذكرها القدماء). وهذا أيضا مثال يوضح المعنى العلمي لمفهوم (التجاوز)، فالتجاوز ليس الغاء تاما، بل هو (تجاوز) ينطوي على إلغاء واحتفاظ في الوقت نفسه، هو إلغاء لأنه ينفي التناقض بين العناصر، ويستبعد العناصر الميتة والأسطورية، وهو احتفاظ لأنه يحفظ العناصر الحية مضيفا إليها عناصر جديدة، ويؤلف بين القضية ونقيضها في وحدة مركبة. (راجع كتابنا: المعقول واللامعقول في الأديان). وهو (تجاوز) لأنه يضيف عناصر جديدة، وفي النهاية يخرج لنا مركب جديد، من معالمه: تعددية الصواب، بينما من معالم القديم: واحدية الصواب، مجرد معلم واحد من معالم متعددة. ولنا حديث آخر في هذه النقطة لأنها تحتاج مزيدا من التوضيح.

من جهة أخرى، هل تعلم أن الكون لو توقف توسعه، فإنه سوف يتقلص فورا وينهار. وهذه أيضا سنة كونية يجب أن نقيس عليها قضية التجديد، فإن الجمود عند الماضي وتقديسه والتوقف عن تجديده يُؤذن بموت التراث، ومن هنا فإن التراث الذي توقف نموه وتطوره بعد ابن خلدون وابن رشد، معرض للموت النهائي، إذا لم يتعرض لعملية تجديد شاملة من أجل تأسيس خطاب جديد، مثل الكائن الحي الذي تموت فيه ملايين الخلايا يوميا ويحيا مثلها، ومع ذلك يظل محتفظا بهويته، فيستمر الكائن في الحياة والتطور. لكن لو عملية موت الخلايا القديمة ونشوء خلايا جديدة قد توقف، فإن الكائن سوف يموت!

لقد خرجنا من التاريخ وسبقتنا أمم أخرى، بسبب تقديس نرجسي لأعمال بشرية. وإذا أردنا لأنفسنا تطورا حقيقيا فعلينا أن (نتجاوز) الجمود ونشرع في تطوير علوم الدين وليس إحياء علوم الدين، وهنا يمكن أن يحيا التراث في شكل جديد في عناصره الحية، لا الميتة، بعد تلاقحها مع المتغيرات وعلوم العصر الإنسانية والاجتماعية والطبيعية، لنخرج بمركب جديد نتيجة تفاعل تام بين العناصر بالمعنى نفسه الموجود في علم الكيمياء.

فمَنْ يعمل لمصلحة التراث أكثر: الذين يريدون تجميده وتقديسه أما الذين يريدون خضوعه لسنن التطور الخلاق؟».

قوانين الدعاء وقوانين الطبيعة والتاريخ

٢٩ مارس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن الدعاء مطلب ديني، بل هو احتياج إنساني أيضا. وأشعر أنا شخصيا أن الدعاء جزء لا يتجزأ من حياة الروح في توجهها نحو الواحد الأحد، لكنني أعلم أيضا أن الله قد جعل لكل ظاهرة قانونا ثابتا وسببا مطردا لا يتخلف. ومن الحمق دعاء الله بما يخالف قوانينه في الكتاب والطبيعة والتاريخ.

وبينما يعكف أهل العلم في معاملهم وعلى أبحاثهم من أجل دراسة فيروس كورونا المستجد والتوصل إلى علاج، نجد طائفة تترك الأخذ بالأسباب وتتهاون في الالتزام بالإجراءات الصحية، وتزايد على الدين، وتكتفي بالدعاء دون التزام بعدم إلقاء النفس إلى التهلكة. ولهم في هذا مرجعية من بعض أهل الفقه والكهنوت، ويتناسى الجميع القانون الإلهي في الدعاء، وهذا القانون نجده في الكتاب كما نجده في الواقع وفي التاريخ. ومن المستقر أن قوانين الدعاء في الكتاب تحترم قوانين الطبيعة، ومن هنا فلا يجوز الدعاء بما يخالف قوانين الطبيعة، كما أنه من المستقر أن الدعاء لابد له من عمل متقن يرفعه فيتحقق.

أما قانون الكتاب فهو: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (فاطر: من آية ١٠). فالدعاء يحتاج قوة دفع وبدونها لن يصل إلى الله تعالى ويتحقق، وتتمثل قوة الدفع في العمل؛ فإذا أخذت بالأسباب تحقق الدعاء، وإذا لم تأخذ بالأسباب فالفشل هو المصير المحتوم مهما ارتفع صوتك. وإذا أخذت بأسباب خاطئة فسوف تفشل أيضا. لكنهم على الدرب سائرون في الاتجاهين، إنهم يسيرون بمنهج خاطئ ويفشلون دائما، ومع ذلك يرجعون للسير على المنهج نفسه. وهم يكتفون بالدعاء دون عمل طوال قرون، ومع أن الله لم يستجب لهم لأنهم لم يتبعوا قوانينه، فإنهم لا يزالون يدعون على خصومهم بالهلاك، والنصر عليهم، والنتيجة أنهم لا يزالون منهزمين؛ لأنهم لم يستجيبوا لقوانين الله في الطبيعة وفي الكتاب وفي التاريخ.

إن لله قوانين في الكتاب وفي الطبيعة وفي التاريخ، وهي قوانين ثابتة مطردة لا استثناء فيها مهما علا قدرك. وحتى لا يتسع خيال البعض تجاه عقيدتي الخاصة، فليس هذا كلامي، بل كلام محمد عليه الصلاة والسلام، فقد كان يؤكد أن ظواهر الطبيعة آيات لها قوانين وسنن ثابتة لا تخرق لأحد من عباده، جاء في الحديث الصحيح سندا ومتنا الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ لمسلم (كتاب الكسوف حديث رقم ٩٠١)، عن عائشة قال الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا حياته». والرسول كان يأخذ بالأسباب ويحترم قوانين الطبيعة والجسد ويتعامل مع الأمراض بطريقة تقوم على الأخذ بطرق التداوي، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود في سننه -واللفظ له- وأحمد، وابن ماجه، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، وصححه الحاكم والذهبي، عن أسامة بن شريك، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت، ثم قعدت، فجاء الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتداوى؟ فقال: « تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وعند أحمد بن حنبل عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنزل الله عز وجل داء، إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله». وأخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه، وصححه الحاكم والذهبي. هذا حديث صحيح واضح في معناه، لكن يخرج علينا الملا علي قاري في كتابه (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)، بتفسير غريب له، أعرضه عليكم، يقول الملا علي القاري: «والمعنى: تداووا ولا تعتمدوا في الشفاء على التداوي»!

وللأسف نجد من يخرج علينا طالبا التمسك بالتراث كله ككتلة واحدة، في مزايدة غريبة، متناسيا أن التراث به الصواب وبه الخطأ.

للأسف هذا التفسير الغريب لا يزال مسيطرا على قطاعات من البشر في عصرنا! ولا يزال يحكم عقليتهم في التفكير، ولذا تجاهلوا قوانين المرض والعدوى، وأصروا على التجمعات، مرة مزايدة على صلاة الجمعة على الرغم من تحقق العدوى وفق التقارير العالمية، ومرة بعمل مظاهرات دينية جماعية! وهذه نتيجة طبيعية لأن قادتهم يتمسكون بالماضي كله سواء أصاب أو أخطأ! وهناك طائفة كانت تناقش مسألة جواز صلاة الجماعة أو عدم الجواز في حالة العدوى المحققة طبقا لتقارير منظمة الصحة العالمية، وانتهوا إلى (جواز) عدم صلاة الجمعة في المسجد في حال تحقق العدوى! بينما الوضع الصحيح هو (وجوب) عدم الصلاة في المسجد لتحقق العدوى. فما الدليل الشرعي على هذا؟

لن أجتهد ولن أستنبط، بل فقط أقول العودة للأصول النقية للدين دون وسيط (القرآن الكريم والسنة الصحيحة). فماذا يقول القرآن وماذا تقول السنة؟ يقول تعالى :(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة :١٩٥). ونفهم الإحسان هنا بمعنى إتقان العمل وتجويده، فهل نلتقي ونجتمع ونسير في مسيرات جماعية ونعرض أنفسنا للعدوى، أليس في هذا إلقاء لأنفسنا إلى التهلكة؟ أليس في صلاة الجماعة والجمعة مع تحقق العدوى نتيجة التقاء الجموع، مخالفة صريحة لأمر إلهي صريح؟ لكن المزايدين عندنا يحرفون الكلم عن مواضعه ويتسببون في هلاك الناس مخالفين للأمر الإلهي الصريح، وغافلين عن مقاصد الدين العليا وضرورة من ضروریاته الخمس للحفاظ على الحياة.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٦٦٨)، ومسلم (٦٩٩) واللفظ له، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ لِمُؤَذِّنِهِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ: « إِذَا قُلْتَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَلَا تَقُلْ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قُلْ: صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ ». قَالَ: فَكَأَنَّ النَّاسَ اسْتَنْكَرُوا ذَاكَ. فَقَالَ: « أَتَعْجَبُونَ مِنْ ذَا؟! قَدْ فَعَلَ ذَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، إِنَّ الْجُمُعَةَ عَزْمَةٌ، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْرِجَكُمْ، فَتَمْشُوا فِي الطِّينِ وَالدَّحَضِ». عزيزي القارئ، على الرغم من أنك ربما لا تعرف معنى كلمة (عَزمة) ولا معنى (الدحض)، فإنك تجد نفسك تفهم بكل وضوح المعنى العام، وهو أن الرسول ومن بعده ابن عباس كانوا يصلون الجمعة في البيت عند وجود مطر حتى لا يمشي الناس في الطين والدحض. وبعد أن أدركت القارئ الكريم المعنى العام يمكن توضيح أن معنى (عزمة) أي موضع العزيمة والإرادة المؤكدة وعدم التردد وإمضاء الرأي، أي هي موضع النية المصحوبة بالإصرار على التنفيذ، أو بعبارة أسهل هي أمر واجب تنعقد الإرادة لقصده وفعله. أما معنى الدحض فهو (الزلق). وروى البخاري (٦٦٦)، ومسلم (٦٩٧) عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: « أَذَّنَ ابْنُ عُمَرَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ بِضَجْنَانَ (جبل بين مكة والمدينة)، ثُمَّ قَالَ: صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ مُؤَذِّنًا يُؤَذِّنُ، ثُمَّ يَقُولُ عَلَى إِثْرِهِ: «أَلاَ صَلُّوا فِي الرِّحَالِ»، فِي اللَّيْلَةِ البَارِدَةِ، أَوِ المَطِيرَةِ، فِي السَّفَرِ. ومن الواضح الجلي إذن أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بكل بساطة لا يصلي في المسجد أثناء البرد والمطر والسفر. وروى البخاري (٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا، فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ). وظاهر كلام أحمد بن حنبل: أنه يحرمُ الصلاة في هذه الحالة في المسجد.

وتأسيسا على كل ما سبق يكون السؤال: في حالة تحقق العدوى، هل منع التجمعات وصلاة الجماعة والجمعة جائز أم أنه واجب؟ أتصور أن الإجابة واضحة».

الكتابان المقدسان

٥ ابريل ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«لا يمكن تأسيس خطاب ديني جديد، بدون إعادة ضبط الميزان في ثقافتنا بين الكلمات والأعمال، وتحويل النظر نحو البحث العلمي في أعمال الله وليس في كلماته فقط. إن الكلمات تأخذ معناها من الواقع، وليست من عقول عنكبوتية تتوسع في الاستدلال من كلام على كلام بواسطة كلام! ثم تشرح الكلام بالكلام، ثم تعود لتختصر الكلام في متون، ثم تعود لتشرح المتون، ثم تعلق الحواشي على المتون، ثم تعيد إنتاج الشروح والحواشي والمتون في نص واحد، ثم تعيد الكرة من جديد في الاستدلال من كلام على كلام بواسطة كلام، وتزعم أنه التجديد! ولا تدري أنها تدور في حلقة مفرغة من الاجترار مثلما تجتر الناقةُ طعامها!

إن لله تعالى كلمات، وإن لله تعالى أعمالا. فإذا أردت أن تعرف كلماته سبحانه فارجع إلى المتن المقدس، فهو كلمة الله المكتوبة. وإذا أردت أن تعرف أعمال الله فارجع إلى الطبيعة، فهي كلمته المتعينة والمتجسدة في العالم. ومن هنا يُطلق الكتاب المقروء على كلمات الوحي آية وآيات، (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) (البقرة :٩٩)، (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) (البقرة: ٢٥٢). ويُطلق على قوانين الطبيعة وظواهرها أيضا آية وآيات، (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء: ٣٠ - ٣٣).

إن اكتشاف قوانين الطبيعة وظواهرها بيقين علمي عبر البحث العلمي في المعامل والأرض والبحار والسموات وعوالم البيولوجيا، والسهر على معرفة الحقائق الكونية الثابتة، هو مدخل لاكتشاف الطبيعة ككتاب مقدس لأعمال الله، (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت :٥٣).

وآيات الطبيعة يقينية الثبوت عن الله، لكن قوانينها يجب أن يكتشفها الإنسان بنفسه، ولن يتمكن من اكتشافها بدون البحث العلمي في قوانين الطبيعة وظواهرها. ولا شك عندي أن جهود العلماء لفهم الطبيعة إنما هو عمل مقدس يكتشف أعمال الله، (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك: ٣-٤).

وترفع كلماتُ الله الموحى بها، في مكان عليّ من التقدير، آيات الطبيعة المتعينة واكتشاف انتظام الكون وانتظام قوانينه، وتجاور بين الاثنين في رتبة التقديس، (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) (الجاثية: ٢-٦)، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم: ٢١- ٢٧).

إن متعة ومباهج الحقائق الطبيعية والقوانين الرياضية الراسخة، لا تقل عن متعة ومباهج آيات الوحي المقروء، بل إن الاثنين وحي؛ أحدهما وحي في شكل كلمات وثانيهما وحي في شكل ظواهر وقوانين طبيعية. ومن هنا فمن المغالطة والانحراف في التفكير، السير على شاكلة الذين يتركون البحث العلمي ويهجرون تخصصاتهم الطبية والفزيائية والكيمائية والرياضية ويكتفون بانتظار اكتشاف الأمم الأخرى للعلم، ثم عندما يكتشف الآخرون شيئا يقولون فخرا مدارين عجزهم إنه عندنا في الكتاب! ولم نجد لديهم القدرة على اكتشاف القوانين العلمية قبل أن يكتشفها الآخرون، بينما الكتاب يدعونا إلى اكتشاف الكون وآيات الله المتعينة في الطبيعة مثلما يدعونا إلى تدبر آياته المقروءة. أما أولئك الذين ينعقون بامتلاكنا لنواصي العلم في الماضي، فإنهم يقتاتون على نظريات علماء الكون ليدغدغوا مشاعر العوام، في حين كان يجب عليهم المساهمة العلمية الحقيقية في اكتشاف الكون. إنهم مثل الأطفال الذين ينتظرون آباءهم العائدين بالرزق من الخارج بعرق جبينهم، لكنهم لا يستطيعون جلب الرزق بأنفسهم، ويكتفون بالفخر بغنى آبائهم وصور أجدادهم المعلقة على جدران الحوائط!

ليس مقصدي هنا هو الانجراف في التفسير العلمي للقرآن دون ضوابط، فهذه قضية أخرى لها حديث آخر مفصل وتمييز ضروري، بل مقصدي هو إعادة ضبط الميزان في ثقافتنا بين الكلمات والأعمال، وتحويل النظر نحو البحث العلمي في أعمال الله وليس لكلماته فقط، كما قلت أعلاه.

إن القرآن كتاب مقدس، وإن الطبيعة كتاب مقدس. وليست العلوم الطبيعية والرياضية أقل شأنا من علوم الدين، وليست العلوم الاجتماعية والإنسانية الجديدة أدنى مرتبة من علوم التراث. كلها علوم تبحث في أجزاء من الوجود الطبيعي والإنساني والاجتماعي على مختلف درجاته ومن زوايا مختلفة. وعلوم الدين نفسها (وليس الدين ذاته) علوم بشرية تبحث في كلمات الله وتدخل في نطاق العلوم الاجتماعية والإنسانية. إن علوم الدين بشرية، لكن الوحي ذاته إلهي، فعلوم الدين هي جهود بشرية نسبية تصيب وتخطئ في فهم الوحي المطلق من حيث مصدره. علم البشر نسبي، لكن علم الله مطلق. والحقيقة المطلقة لا يعلمها إلا المطلق سبحانه. ولم يعط الله علمه كاملا لمخلوق، ولو قلنا بغير ذلك لوقعنا في لون من ألوان الشرك وخرجنا عن حدود التوحيد الخالص. الوحي من حيث مصدره مطلق، لكن آراء علماء الدين بشرية نسبية قابلة للصواب والخطأ، لكنها ليست مشكوكا فيها. وللمرة السبعين، إن النسبي غير المشكوك فيه في كل مراجع العالم».

الصلاة العلمية

١٣ ابريل ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن الأمراض والعدوى والشفاء لها قوانين راسخة تحكمها بقدر إلهي مطرد؛ إنها آيات إلهية لها قوانين وطريقة عمل منتظمة مثل قانون الجاذبية، ومثل قوانين تحول الصلب إلى سائل وتحول السائل إلى بخار؛ فإن الله تعالى (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: ٣)، والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه كان يأخذ بالأسباب ويتعامل مع الأمراض بطريقة تقوم على الأخذ بطرق التداوي وطرق الحماية من العدوى. لكن الأشاعرة يخالفون منطوق الكتاب الكريم وسنة المصطفى الصحيحة ومنطق العلوم الطبيعية، ويعدون العلاقة بين الأسباب والمسببات غير لازمة، ويؤكدون أن السبب ليس بشرط أن يؤدي للنتيجة! يقول الغزالي القديم رحمه الله وهو أشعري- ملخصا موقف الأشاعرة: بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنًا لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر» انتهى كلامه. فهذا إنكار للأسس التي يقوم عليها البحث العلمي من وجود علاقة ضرورية بين السبب والنتيجة. ثم يتساءل بعضهم لماذا تخلفنا في العلوم وتقدم غيرنا؟!

وربما حان الوقت أن يفهم هؤلاء أن مَن أراد أن يعرف الله فليكتشف أعماله في الطبيعة، وأن القرآن كتاب الله المقروء والطبيعة كتاب الله المشاهد، القران كلمات الله والطبيعة أعمال الله؛ فلنفهم كلمات الله بأعمال الله. وهنا يصلي العلماء لله عندما يسعون لاكتشاف قوانين الطبيعة. من يقرأ كلمات الله يعبده تعالى، ومن يستقرئ أعمال الله في الطبيعة أو المعمل أو في النفس يعبد الله أيضا، (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ((البقرة:١١٥).

وفي مقابل الفهم المنضبط لدور الدين ودور العلم، لا سيما في ميدان الطب والعلاج، رأينا الأيام الماضية بعض أدعياء الدين في مجتمعنا ومجتمعات قريبة وبعيدة شرقا وغربا، يعيشون أيام الجاهلية الأولى لكن بثوب ديني مزيف. إنهم يرفعون أصواتهم، ويظنون أن الطبيعة يمكن تغييرها بالكلمات فقط دون أن يتبعوا قوانين الوقاية وقوانين الشفاء التي حددها الله تعالى، نعم إن الله هو الشافي، (وإذا مرضت فهو يشفين) (الشعراء :٨٠)، هذا إيماننا ومعتقدنا، لكنه سبحانه قد جعل لكل شيء سببا، وجعل له قانونا مطردا، وقد أراد أن يشفينا بالأسباب. ومسألة شفاء أيوب عليه السلام، قد فهمها البعض خطأ، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) (سورة ص: ٤١-- ٤٢)، فالشفاء من نوعية المرض التي أصابته جاء بعد وحي الله تعالى إليه بسبب الشفاء بالاغتسال في نوع معين من المياه النابعة من الأرض، ومن الشرب منها.

أتصور أن البحث العلمي في الطبيعة فريضة دينية، وأن ممارسة العلم هو ممارسة لعبادة من أوجب العبادات، وهو التزام بأوامر إلهية مباشرة في الكتاب بالألفاظ والعبارات قطعية الثبوت وقطعية الدلالة. مثل:) قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (يونس: ١٠١). وقراءة كلمات الله عبادة حقيقية، وأيضا استقراء أعمال الله في الكون عبادة حقيقية، وليس العلم بالطبيعة في قوانينها وظواهرها أقل من العلم بالدين في كلمات الله الموحى بها، إن كلمات الله إذا أحسنا فهمها والعمل بها تفتح لنا طريقا إلى الله، وإن أعمال الله إذا اكتشفنا قوانينها وعملنا طبقا لها تفتح لنا طريقا أيضا إلى الله.

يجب أن أعبد الله بالطقوس والشعائر، وهي أركان من الدين، ويجب أيضا أن أعبده بالبحث العلمي سعيا وراء اكتشاف أسرار الطبيعة، سواء طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان أو طبيعة المجتمع. وليس في هذا مقارنة بين أفضل وأدنى، لأن الدين الخالص نفسه يجزم بأن العلم الطبيعي طريق إلى الحق والحقيقة، بل هو طريق إلى الإيمان بأصول العقائد. إن العلوم الطبيعية والرياضة تبحث في أعمال الله. وليست أعمال الله في الطبيعة بأقل قدسية من كلماته في الكتاب. وإذا كانت قراءة كلمات الله عبادة، فإن استقراء أعمال الله وقوانينه في الطبيعة عبادة، (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، وكل هذا يبدو واضحا عند أولي الألباب، لكن الملفت للنظر أن شرذمة من الحفظة يظنون أنهم اتخذوا عند الله عهدا لمجرد أنهم يحفظون بعض المتون من الورق الأصفر، بل يظنون أنفسهم أفضل من علماء الطبيعة على مختلف تخصصاتهم والذين يعكفون ويعتكفون في معاملهم بحثا عن فهم التركيب والتتابع الجيني للفيروس، أو غيرها من المهام العلمية في سبيل اكتشاف علاج لفيروس كورونا المستجد.

إن الصلاة ذات الرُكوعٌ والسُجودٌ هي ركن من أركان الدين، وهي صلة واتصال بين العبد وربه، وإن البحث العلمي في أعمال الله وقوانينه هو أيضا صلة واتصال بين العبد وربه لكن بطريقة أخرى، والأمر كله يتوقف على النية والقصد في العمل وتحقيق ما ينفع الناس في الأرض. إن البحث العلمي هو صلاة العلم والعلماء لاكتشاف أعمال وقوانين الله في الطبيعة، إذا انعقدت النية وتوجه المقصد لهذا. ومعالجة الروح تكون بالصلاة ذات الرُكوعٌ والسُجودٌ، لكن معالجة الجسد تكون بعلوم الطب، والإنسان كل متكامل يؤثر في بعضه بعضا، واكتشاف الأمراض واكتشاف أدويتها يتسع لعلوم الطب والصيدلة والعلوم الأساسية مثل الفيروسات والفيزياء الحيوية والبيولوجيا والميكروبيولوجيا والكيمياء وغيرها. وعندما يتعلق الأمر بالدواء يكون المحراب هنا هو المعمل والمستشفى. بالمناسبة عندما طرحت مصطلح «الصلاة العلمية» كتعبير مجازي على الفيس بوك لأول مرة منذ أسابيع عدَّ البعض ذلك هرطقة وعدها صلاة ذات ركوع وسجود! وسألني: كم عدد الركعات، وكم مرة في اليوم؟!

إن الأمراض جزء من الطبيعة، وقد خلقها الله مثلما خلق الدواء، لكن الوصول إلى اكتشاف الدواء جهد إنساني يرتكز إلى البحث العلمي وتوفيق الله، ومن ألف باء الدين الخالص في أصوله النقية (القرآن والسنة الصحيحة)، أن الأخذ بالأسباب هو المنهج وهو الطريق، وإنكار الأشاعرة للعلاقة الضرورية بين أسباب والنتائج إنما هو إنكار لسنن الله في الطبيعة وإنكار لأساس من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الطبيعية والرياضية. إننا نحتاج إلى الإيمان ونحتاج إلى العلم، كما نحتاج إلى انضباط طريقة التفكير العقلي وعدم الخلط بين الميادين والقوانين والأدوات، فلا يمكن أن أتعامل مع بوردة الكمبيوتر بأدوات إصلاح ماتور السيارة، ولا يمكن أن أتعامل مع قوانين المادة بأدوات عالم الروح. الكلمات ضرورية، لكنها ليست كافية في عالم المادة، فلابد من الأعمال معها. صلاة الروح ضرورة وصلاة العقل ضرورة. ولا غنى لأحدهما عن الأخر. ونظرا لأننا لا نزال نكتفي بالكلمات فإننا لم نتمكن بعدُ من الوصول إلى التقدم، ولم نتمكن من الوصول إلى الله.

إن الصلاة العلمية واجبة الاستمرار حتى اكتشاف علاج لجائحة كورونا، تلك الجائحة التي لن تفيد فيها أحكام الجوائح القديمة. والتعامل معها من الناحية الدينية يجب أن يكون في حدود المنابع الصافية: القرآن والسنة الصحيحة، حتى لا يحدث إرباك وارتباك بسبب المزايدين على الدين وعلى الايمان. وبجوار المهمة الأصيلة للعلوم الطبيعية في اكتشاف العلاج وطرق التداوي، نظل ندعو الله تعالى مخلصين له الدين، لكن دعاءنا لن يرتفع إليه بدون أعمال تحترم قوانين الطبيعة وعلومها، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (فاطر: من آية ١٠).

لقد فاتنا وقت الصلاة العلمية في موعدها لاكتشاف العلاج. ونحن الآن في أحكام القضاء.. قضائها متأخرين؛ فأن تأتي متأخرا أفضل من ألا تأتي على الإطلاق. إن الاكتشاف العلمي على رأس الأعمال الصالحة، بل أوجبها الآن. فمن منكم أقرب إلى الله الآن؟ الإجابة في المعمل وليس في مكان آخر. قد ننجح وقد نفشل، لكن في كل الأحوال علينا أن نبدأ، ولا نتلفت للناقمين علينا إذا نجحنا، ولا نعبأ بالشامتين فينا إذا فشلنا، فمن اجتهد ثم أصاب فله أجران، ومن اجتهد ثم أخطأ فله أجر».

الإرهاب والمرض النفسي ولعبة الشيطان

١٩ ابريل ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن الإرهاب القائم على الغدر وقتل الأبرياء وتزييف الحقائق ما هو إلا الرقصة الأخيرة التي تثبت عجزه عن إحداث تغيير في الواقع وفي الناس. وسوف يظل الإرهاب عملاً خسيسا ضد الأخلاق من أي نوع؛ لإن الإرهابي يعمد إلى الإمعان في إثارة آلام وشرور أعمق وأشد، فباسم أي حق وباسم أية أخلاق يموت الأبرياء ويموت الضباط والجنود لمجرد أنهم يخالفون الإرهابي في الرأي والعقيدة؟ وباسم أية أخلاق لا يأمن الإنسان على نفسه وهو يشعر أنه مهدد بتصفيته جسدياً من مخالفيه في التوجه والأيديولوجية؟

في الواقع إن الإرهاب كسلاح في التعامل مع الخصوم هو لعبة الشيطان وسلاح بدائي يفقد قيمه وينقض أخلاقياته؛ فالأخلاق عنده مجرّد مجاملة للنزعات والأهواء التي تسيطر على جماعة أو تيار؛ وبالتالي تفقد الأخلاق مضمونها وتتصدع قوانينها.

إن الإرهاب ينجب حفّار قبره بفكره الذي ينطوي على تناقضات تدمر عقله تدميرا ذاتيا، ويظل العمل الإرهابي تفكيراً لا منطقياً عاجزاً وقاصراً ومنهاراً، لأنه يدفع إلى فعل كل شيء ولا يتوانى عن أي شيء مهما كان لا أخلاقيًا من أجل انتصار قضيته المزعومة، حتى لو ضاع الوطن وضاع الأهل! ويظل هذا العنصر قاصراً لأنه ينطلق من موقف شديد التشنج والخطورة من شأنه أن يؤدى إلى أعمال شرسة ووحشية ضد الآخرين، وإلى أعمال انتحارية يروح ضحيتها الأبرياء، وتتيتم الأطفال، وتترمل الزوجات، ويحزن الآباء والأمهات حزنا لا يطاق.

إن الإرهاب لا يراعى أية عُرف وأية حُرمة اجتماعية أو دينية، كما أنه لا يراعى أية قاعدة أخلاقية تشكل عائقاً في سبيله، إذ أنه يضع بتصرفه جميع الطرق والأساليب والوسائل الممكنة دون أن يتراجع أمام الصعاب مهما بلغت خطورتها لأنه يلعب لعبة الموت فقط. فهو لا يتوانى عن ضرب أي هدف يقع على مطال يده.

إن التحليل النفسي لشخصية الإرهابي، أمر جدير بالتوقف طويلا عنده، فبدون التحليل النفسي لا يمكن أن نعرف كيف يفكر الإرهابي، وبدون فهم نفسية الإرهابي يصعب أن نتعامل مع طريقته في التفكير، وبالتالي يصعب معالجته ومواجهته؛ لأن الإرهابي يتصرف في مختلف المواقف على أساس أفكاره التي يتبناها بيقين مطلق، وبناء على معتقداته التي يقتنع بها بشكل نهائي. والواقع أن شخصية الإرهابي، شخصية مركبة تجمع في خصائصها بين سمات خمسة أنماط من الشخصية، مصنفة عند علماء النفس على أنها شخصيات مضطربة (غير سوية)، وهي: الشخصية المصابة بالبارانويا، والشخصية النرجسية، والشخصية الوسواسية القهرية، والشخصية من النمط الفصامي، والشخصية المعادية للمجتمع.

إن الشخصية المصابة بالبارانويا، يتيقن صاحبها ويشعر شعورا عميقا دوما بالاضطهاد والمؤامرة عليه، ويتصور على نحو مؤكد أن جميع حقوقه مهضومة ومهدرة، وتضعه محصلة أفكاره ومعتقداته في وضع استعداد مطلق لقتل الآخرين من أجل تحقيق أهدافه ومقاصده من خلال بطولات زائفة. وتستحوذ عليه نزعة مميتة لحمل الضغائن المحملة بالكراهية السوداء المستديمة، وهو يرفض التسامح، لأن صفة العدائية متحكمة فيه. وهذا لا نجده فقط في العمليات القتالية الانتحارية، ولكن نجده أيضا في تاريخ الأفكار وفي الحياة اليومية، بل وفي العمل، لقد بلغت الضغينة بأحدهم أنه علم بإصابته بفيروس كورونا المستجد فأخذ يختلط بزملائه لمدة خمس ساعات متعمدا حتى يصيبهم! وبلغ ببعضهم الاضطراب النفسي إلى حد محاولة إرباك بعض الدول وأجهزتها وأطقمها الطبية من أجل إفشالها في مواجهة هذا الفيروس اللعين على حساب حياة الناس! والغريب أن هؤلاء المضطربين يعتقدون اعتقادا جازما أنهم في حالة جهاد مقدس!

يرى بعض علماء النفس أن بداية تكوين الشخصية المصابة بالبارانويا، هي بزوغ ونشوء معتقدات وهمية لا عقلانية عند الفرد المهيأ للاستجابة، وتزيد وتقوى هذه المعتقدات الواهمة بمرور الزمن حتى تصير في عقل هذا الشخص وكأنها حقائق فعلية يقينية واقعية. ويؤكد هذا النوع من التفسير أن الإرهابيين كانوا قد تلقوا هذه المعتقدات من بعض الشخصيات الدينية المتطرفة التي تملك قدرة على خلق عوالم ذهنية بديلة بالإقناع والتأثير تحت شعارات مزيفة ومكانة مزعومة. وهذه القدرة على التأثير لا تتحقق إلا فيمن لديهم استعداد أصلا للاستجابة بحكم طريقة التفكير الخاطئة والتكوين النفسي والشعور المبالغ فيه بالاضطهاد، والتربية الاجتماعية التي كان يتعرضون فيها للإهانات المجتمعية والتحقير والتوبيخ الأسري.

ومن سمات الشخصية النرجسية التي تتصف بها شخصية الإرهابي، سمة العجرفة والتعالي على الآخرين في سلوكه، والشعور بالعظمة، وبأهمية ذاته، وأنه يستحق الصدارة والأفضلية على الآخرين. وهذا وضع طبيعي لكونه يملك اعتقادا يقينيا بأن الآخرين على باطل مطلق، دون أن يستمع إليهم أو يقرأهم، وحتى إن استمع أو قرأ فإنه لا يسمع ولا يقرأ إلا صدى أوهامه عن الآخرين، فهو يفكر تفكيرا نمطيا معلبا، ويتملكه شعور بأن أي شيء غريب عن أفكاره يُعد مؤامرة (سمات نفسية متداخلة مع أنماط أخرى)، و يُخيل إليه أنه على حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو المتحدث باسم الحقيقة المطلقة وهو الذي يعرف مقاصد الله تعالى، وهو الذي لديه علم السابقين واللاحقين، وأنه يملك مفاتيح الجنة ومفاتيح النار، يدخل إليهما من يشاء ويخرج منهما من يشاء وفق طريقته هو في الحكم والقضاء.

وفي الشخصية الفصامية، نجد بوضوح شديد تفاعلا حيا للصفات النرجسية مع الصفات البارانوية، مما ينجم عنه -كما يقول بعض علماء النفس- تثبيت أفكار ومعتقدات وإدراكات الإرهابي الوهمية، وتعزيز صفتين واضحتين من أهم صفات الشخصية الفصامية المرصودة في مراجع علم النفس، وهاتان الصفتان هما: أولا- صفة تصلب التفكير وافتقاره للديناميكية والمرونة والتبصر، وثانيا- الاستحواذ الكامل للمعتقدات الانتحارية على بؤرة التفكير في عقله.

وتأتي الشخصية الوسواسية القهرية، لتضيف للإرهابي بعض السمات الجوهرية في طريقة تفكيره، وفي جوهر شخصيته، مثل: الشك القهري في كل ما يقوله الآخرون مهما بلغت حجتهم من الإحكام، وضيق الأفق، وفقر المشاعر. وإذا كان تابعا في القطيع وليس قائدا فهو يتصف بالصرامة في تنفيذ التعليمات والتوجيهات من المسيطرين على أفكاره، والتبعية للقطيع الذي ينتمي إليه، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات بشكل مستقل، والجمود. وكل هذه السمات تجد مظاهرها في الولاء المطلق للجماعة التي يتبعها، والسمع الحرفي للأوامر دون تعقل والطاعة العمياء دون تبصر.

وتعزز «الشخصية المضادة للمجتمع» إحدى سمات الإرهابي الأساسية، وهي عدم شعوره بالندم أو الذنب عند إلحاقه الأذى بالآخرين، فهو يقتل ويذبح، سواء كان قتلا جسديا أو معنويا، دون أدنى مستوى من تأنيب الضمير أو الشعور بالندم، ولا يأبه لترمل الزوجات، ولا ليتم الأطفال، ولا لجرح المشاعر.

ويعكس هذا التنوع والتعدد في سمات الشخصية الإرهابية حجم العقد النفسية والتعقيد الشعوري والمعرفي للشخصية والاضطراب الذهني الشديد الذي تعانيه. ومثل هذه الشخصية الجامعة لهذه الصفات أو لبعضها لا تكون على وعي بأمراضها ولا بسيطرتها عليها ، فمثل هذه الشخصيات منفصلة عن الواقع ومنفصلة عن إدراك ذاتها نفسها، فليس لديها وعي ذاتي ولا استبصار في أغلب الأحوال. إنها حالة من الانغلاق الذهني والتصلب العقلي والجمود المعرفي، منسجمة مع صفات الجانب الوجداني للشخصية. وعلى ذلك، فإن الشخصية الإرهابية المباشرة أو المتقنعة التي تحاول تدمير الآخرين سواء جسديا أو معنويا- هي نموذج مثالي ومركز للشخصية المريضة نفسيا التي تستقطب كل صفاتها المريضة المعادية للآخر، مع تغيير في الهدف وإلباسه ثوب المقدس!».

أيوب بين الدين والتراث (١)

٢٦ إبريل ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«مر أيوب عليه السلام بتجربة مرضية عنيفة، وتم ابتلاؤه في ماله وولده. تحمل أيوب وصبر صبرا جميلا، لم يلجأ إلا إلى ربه، ولم يتذمر، ولم يرفع صوته لوما وتوبيخا للقدر أو الظروف. وعندما أعيته الحيل لجأ إلى ربه متضرعا، يقول تعالى :(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ((الأنبياء :٨٣- ٨٤)، وفي موضع آخر من الكتاب: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (سورة ص: ٤١ -٤٤).

ومن الواضح هنا أن التنزيل امتدح أيوب وصفاته، وقدم تجربته كدرس مستفاد لأصحاب العقول والعابدين. وانتهى الأمر في القرآن عند هذه الحدود، وهو كتاب مبين يفسر نفسه بنفسه، وآياته بينات لا تحتاج لأساطير جانبية من الإسرائيليات والروايات الموضوعة التي انخدع بها بعض الرواة والمفسرين. لكن لكثير من المفسرين رأي آخر، وهو التفنن في إيراد روايات أسطورية إضافية حول هذه الآيات من الإسرائيليات الموضوعة المكذوبة التي ليست ثابتة سندا ولا عقلا ولا بالمقارنة مع مجموع الكتاب الكريم ولا السنة الصحيحة، ولا تعدو أن تكون فهما خرافيا أسطوريا لكلمات التنزيل.

والغريب أن هذه الروايات تمر مرورا واسعا عند كثير من المفسرين على الرغم من مخالفتها لصحيح المنقول وصريح المعقول. فهل أيوب النبي الكريم الذي امتدحه القرآن وضرب به المثل في الصبر لحكم لربه، هو هذا الذي تُصوره تلك الروايات بأوصاف لا يمكن قبولها عن نبي له مكانته ويمدحه القرآن الكريم، لكن بعض المفسرين يرودونها دون أي التفات لتناقضها مع القرآن الكريم، ثم يخرج علينا مَنْ يدعو للدفاع عن التراث كله ككتلة واحدة دون تمييز بين ما به من صواب وما به من أخطاء وأساطير؛ إنها المزايدة الخاطئة، وإهدار لمطالب القرآن الكريم بإعمال العقل والتدبر، وعدم (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث) على حد تعبير ابن الديبع في كتاب بالعنوان نفسه بتحقيقي وصادر عن مكتبة ابن سينا عام١٩٨٩. إن التراث نفسه به عقول رصينة تميز، وبه تيارات أخرى يخلط أنصارها بين الوحي والأسطورة، ويضعون الغث بجوار الثمين، ومنهم الطبري وابن كثير والغزالي القديم والسيوطي وغيرهم، ونحن نقدر جهودهم في كثير من المواضع لكننا نرفض مواضع أخرى، ولا نقدس متونهم تقديسا، ونميز فيها بين الصواب والخطأ وبين الوحي والعقل والخرافات. لكن الدفاع الأعمى عن التراث كله ككتلة واحدة هو الخطأ بعينه. مع التأكيد على أن القرآن والسنة الصحيحة سندا ومتنا، ليسا من التراث، بل فوق التراث وأيضا قبل التراث.

ومن هنا فلابد من التمييز في التراث بين الوقائع والأساطير، وبين العلم والخرافة. إن التراث به الإيجابي وبه أيضا السلبي، وبه المعقول واللامعقول. إن المزايدة على الاحتفاظ بالتراث كله دفعة واحدة دون (تجاوز) المكونات الظلامية، مغالطة كبرى، ودغدغة لمشاعر الغوغاء، واستدعاء لكل عصبية القبيلة!

راجع أيها القارئ الكريم نماذج من الروايات الأسطورية عند الطبري وابن كثير والقرطبي والألوسي والسيوطي وغيرهم؛ حيث تجد روايات خرافية موضوعة تحاول إعطاء مزيد من التفصيلات والإثارة وتحكي قصصا وحوارات بين الله وإبليس وأيوب وزوجته وأصحابه، وتصف النبي أيوب بما لا يليق بنبي كريم، وتحلق في عوالم الأسطورة دون سند تاريخي ثابت، وتخرج بالآيات عن حدود معناها المستخرج من ألفاظها وتراكيب جملها. انظر معي أيها القارئ الكريم في بعض تلك الروايات التي تعج بها بعض التفاسير؛ حيث تذكر روايات كثيرة لم يصح سندها لا تاريخا ولا عقلا، بل هي من الإسرائيليات مثل ما رواه الرواة من حوارات غريبة بين الله وإبليس وأطراف أخرى، والنصوص الأسطورية طويلة تروي ما لا يتسق مع أصول الاعتقاد الثابتة من القرآن والسنة الصحيحة المتواترة، ولا أدري كيف يوردها كثير من المفسرين وكأن هناك وحيا موازيا للوحي المنزل في القرآن الكريم. وبعضهم يقبلها وقليل منهم يتحفظ أو ينقد أجزاء منها. وفي كل الأحوال كان يجب عدم إيرادها في كتب التفسير، فموضعها الحقيقي هو كتب الأساطير والحكايات والأعاجيب.

تذكر الرواية الأسطورية كلاما منسوبا لأيوب، واضح منه كذب الراوي عليه وعلى القرآن؛ حيث يذكر الراوي أن أيوب يعترض على قضاء الله، تقول الرواية نصا: (فقال أيوب صلى الله عليه وسلم: رب لأي شيء خلقتني؟ لو كنت إذ كرهتني في الخير تركتني فلم تخلقني! يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي! ويا ليتني مت في بطنها فلم أعرف شيئا ولم تعرفني! ما الذنب الذي أذنبت لم يذنبه أحد غيري؟ وما العمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني؟ لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي؛ فأسوة لي بالسلاطين الذي صفت من دونهم الجيوش، يضربون عنهم بالسيوف بخلا بهم عن الموت وحرصا على بقائهم، أصبحوا في القبور جاثمين، حتى ظنوا أنهم سيخلدون. وأسوة لي بالملوك الذين كنزوا الكنوز، وطمروا المطامير، وحموا الجموع، وظنوا أنهم سيخلدون. وأسوة لي بالجبارين الذين بنوا المدائن والحصون، وعاشوا فيها المئين من السنين، ثم أصبحت خرابا، مأوى للوحوش ومثنى للشياطين).

وتذكر الرواية أنه كان لأيوب عليه السلام (ثلاثة من أصحابه اتبعوه على دينه؛ فلما رأوا ما ابتلاه الله به رفضوه من غير أن يتركوا دينه واتهموه، يقال لأحدهم بلدد، وأليفز، وصافر. قال الرواي: فانطلق إليه الثلاثة وهو في بلائه، فبكتوه)، وتؤكد الرواية على لسان أليفز أحد أصحاب أيوب أنه وصفه بأوصاف عقائدية وسلوكية لا تتسق مع القرآن ولا السنة الصحيحة، قال أليفز :(عظيم ما تقول يا أيوب، إن الجلود لتقشعر من ذكر ما تقول، إن ما أصابك ما أصابك بغير ذنب أذنبته، مثل هذه الحدة وهذا القول أنزلك هذه المنزلة؛ عظمت خطيئتك، وكثر طلابك، وغصبت أهل الأموال على أموالهم، فلبست وهم عراة، وأكلت وهم جياع، وحبست عن الضعيف بابك، وعن الجائع طعامك، وعن المحتاج معروفك، وأسررت ذلك وأخفيته في بيتك، وأظهرت أعمالا كنا نراك تعملها، فظننت أن الله لا يجزيك إلا على ما ظهر منك، وظننت أن الله لا يطلع على ما غيبت في بيتك، وكيف لا يطلع على ذلك وهو يعلم ما غيبت الأرضون وما تحت الظلمات والهواء؟».

ويضيف أليفز :(أتحاج الله يا أيوب في أمره، أم تريد أن تناصفه وأنت خاطئ، أو تبرئها وأنت غير بريء؟ خلق السماوات والأرض بالحق، وأحصى ما فيهما من الخلق، فكيف لا يعلم ما أسررت، وكيف لا يعلم ما عملت فيجزيك به؟ وضع الله ملائكة صفوفا حول عرشه وعلى أرجاء سماواته، ثم احتجب بالنور، فأبصارهم عنه كليلة، وقوتهم عنه ضعيفة، وعزيزهم عنه ذليل، وأنت تزعم أن لو خاصمك وأدلى إلى الحكم معك، وهل تراه فتناصفه؟ أم هل تسمعه فتحاوره؟ قد عرفنا فيك قضاءه، إنه من أراد أن يرتفع وضعه، ومن اتضع له رفعه».

إن هذا ما لا يمكن قبوله عقلا ولا تاريخا عن نبي كريم يضرب القرآن به المثل والذكرى.

وحديثنا لم يكتمل».

النبي أيوب بين الدين والتراث (٢)

٣ مايو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«تتجاور الأساطير الباطلة والعقائد الصحيحة في العلوم القديمة جنبا إلى جنب، في حين يجب الاكتفاء فقط في تحديد حدود الدين بما جاء في القرآن الكريم مفسرا بالسنة الصحيحة، وهذا أحد معاني تأسيس خطاب ديني جديد بالعودة إلى المنابع الصافية، تحريرا للدين مما علق به عبر التاريخ من أساطير وإسرائيليات مكذوبة وآراء تجاوز حدود القرآن والسنة الصحيحة، وتخليص الدين مما أضيف له من البشر؛ فالدين اكتمل عندما نزل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)؛ هنا اكتمل الدين بإعلان إلهي، وهذه هي كلمته الأخيرة، وهنا انغلقت «دائرة الكلمات المقدسة». وإذا نجحنا في العودة إلى المنابع الصافية والتخلص من الخرافات والأقوال البشرية التي تضفي على نفسها قداسة مزعومة، نكون قد استطعنا الدخول إلى عصر ديني جديد.

ولنضرب مثلا على ذلك من قصة زوجة النبي أيوب عليهما السلام، فمرة تجد الأسطورة ممجدة لزوجته التي ساندته مخلصة وفية، ومرة أخرى تدينها إدانة شديدة، حسب المزاج الشخصي لواضع الأسطورة من المرأة! لكن الغريب أن كثيرا من كتب التفسير تذكر الروايات الأسطورية المتناقضة دون أن تلتفت لهذا التناقض، والأكثر غرابة أنها لا تفسر الكتاب بالكتاب ولا بالسنة الصحيحة، بل تملأ الصفحات بأساطير بعض الرواة بحجة أنهم عندهم علم الكتاب، دون سند تاريخي محكم ودون اتساق مع الكتاب الكريم ومقاصده ودون اتفاق مع الواقع، لكنها الحكايات التي تدغدغ مشاعر العوام! يذكر ابن كثير وغيره -رحمهم الله- عن النبي أيوب وزوجته عليهما السلام، معلومات بدون أن يذكر أي سند تاريخي موثوق أو دليل ديني صحيح الثبوت، فمثلا يروي ابن كثير في تفسيره عن السدي رواية تعود فيها زوجة أيوب لممارسة الدور الأسطوري للمرأة بوصفها الحاملة لرسالة إبليس في إغواء الرجل! نذكر منها تلك المواضع المتعلقة بزوجته، قال السدي:(... ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. لله على إن برأت أن أجلدك مائة جلدة...).

وفي رواية وهب بن منبه: (... اعترض إبليس لامرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والطول على مركب ليس من مراكب الناس، له عظم وبهاء وجمال ليس لها، فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت: نعم. قال: هل تعرفينني؟ قالت لا. قال: فأنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت، وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي! ثم أراها إياهم فيما ترى ببطن الوادي الذي لقيها فيه. قال: وقد سمعت أنه إنما قال: لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلاء، والله أعلم. وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها. فرجعت إلى أيوب، فأخبرته بما قال لها وما أراها. قال: أوقد آتاك عدو الله ليفتنك عن دينك؟ ثم أقسم إن الله عافاه ليضربها مائة ضربة فلما طال عليه البلاء».

وفي رواية عند الطبري في حوار درامي أسطوري بين إبليس ورفاقه الذين نصحوه عندما عجز عن الانتصار على أيوب: (قالوا: نشير عليك، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة، من أين أتيته؟ قال: من قبل امرأته، قالوا: فشأنك بأيوب من قبل امرأته، فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال: أصبتم. فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق، فتمثل لها في صورة رجل، فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو ذاك يحك قروحه ويتردد الدواب في جسده. فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع، فوقع في صدرها فوسوس إليها فذكرها ما كانت فيه من النعم والمال والدواب، وذكرها جمال أيوب وشبابه، وما هو فيه من الضر، وأن ذلك لا ينقطع عنهم أبدا. قال الحسن: فصرخت فلما صرخت علم أن قد صرخت وجزعت، أتاها بسخلة، فقال: ليذبح هذا إلي أيوب ويبرأ، قال: فجاءت تصرخ يا أيوب، يا أيوب، حتى متى يعذبك ربك، ألا يرحمك؟ أين الماشية؟ أين المال؟ أين الولد؟ أين الصديق؟ أين لونك الحسن قد تغير، وصار مثل الرماد؟ أين جسمك الحسن الذي قد بلي وتردد فيه الدواب؟ اذبح هذه السخلة واسترح! قال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك فوجد فيك رفقا وأجبته، ويلك! أرأيت ما تبكين عليه ما تذكرين ما كنا فيه من المال والولد والصحة والشباب؟ من أعطانيه؟ قالت: الله. قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة. قال: فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء الذي ابتلانا به؟ قالت: منذ سبع سنين وأشهر. قال: ويلك! والله ما عدلت ولا أنصفت ربك! ألا صبرت حتى نكون في هذا البلاء الذي ابتلانا ربنا به ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة؟ والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة! هيه أمرتيني أن أذبح لغير الله، طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام وأن أذوق ما تأتيني به بعد، إذ قلت لي هذا فاغربي عني فلا أراك! فطردها « .

هذه بعض الروايات التي يذكرها بعض المفسرين بلا سند من قرآن وسنة صحيحة، يفسرون بها بكل سهولة آية من آيات الكتاب. وبالرغم من الدور البطولي الوفي المخلص الذي تذكره بعض تلك الروايات، فإنها تعود للنغمة الأسطورية التي ليس لها أي سند من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وهو قيام المرأة بدور رسول إبليس لغواية الرجل!

والبعض يورد روايات تؤكد على أن أيوب عليه السلام أقسم بضرب امرأته لخطأ ارتكبته، ولا أدري كيف يوردون روايات بلا سند صحيح إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس عليها أي دليل من القرآن؟ القرآن ذكر فقط: (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)، لكن لم يذكر تفاصيل القسم ولا على ماذا أقسم، فلِمَ يلصقون القسم بزوجته الوفية الصابرة المخلصة التي لم تتخل عنه؟! القرآن نفسه لم يذكر هذا التفصيل ولا السنة الصحيحة، ربما والله أعلم- لأن القرآن يقدم المبادئ الخالدة والتشريعات الكلية، وهنا يوضح المخرج من قسم ما من الأفضل الرجوع عنه. وبطبيعة الحال هناك كيفية أخرى وضحها الكتاب الكريم في مواضع أخرى.

وبعض المفسرين يوردون روايات لا سند لها إن اسم زوجته (رحمة)، بل إن بعضهم يستدل بالآية الكريمة: (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ((الأنبياء: ٨٤)، وهو استدلال غريب خارج على أي سياق محتمل للآية الكريمة.

وتأسيسا على ما سبق، ألسنا بحاجة ماسة لتطوير علوم التفسير لتصبح علوما دقيقة معبرة عن الدين في نقائه الأصلي؟».

التجديد الديني والمعركة الزائفة حول التراث

١٠ مايو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«منذ خمس سنوات في ١٧/ مايو / ٢٠١٥ م، كتبت في إحدى الصحف السيارة، موقفا واضحا من قضية التراث بهذا العنوان نفسه، وهذا موقفي القديم، وهو نفسه موقفي الحالي، لكن ماذا تفعل مع مزوري الأفكار؟ وسوف أورد لكم بعد قليل ما قلته نصا من خمس سنوات وهو مدون ومنشور، لكن بين يدي هذا المقال القديم، لابد من بيان أن قبول التراث كله ككتلة واحدة، لا يقل حماقة عن رفضه كله ككتلة واحدة؛ فكلاهما تعصب، ولابد من (تجاوز) هذين الموقفين من التراث والوصول إلى مركب جديد يحل الإشكالية بين الأخوة الأعداء.

والوصول إلى المركب الجديد لن يكون إلا بتجديد التفكير الديني تجديدا حقيقيا يجمع بين عناصر الماضي الإيجابية لا السلبية، وعلوم العصر ومتغيرات الحاضر. والتجديد هو للمسلمين وطريقة تفكيرهم وليس للوحي. إنه تجديد يقوم على تجاوز القديم دون افتقاد عناصره الإيجابية القادرة على الحياة ولا تتعارض مع الوحي في حدود العقل النقدي الذي طالبنا الوحي نفسه بإعماله، ففي التراث ما هو إيجابي، وفي التراث ما هو سلبي.

مع التأكيد المتجدد على أن الوحي ليس تراثا، بل فوق التراث وقبل التراث. والوحي حاكم على التراث في حدود العقل النقدي، وليس التراث حاكما على الوحي. هل يريد المتمسكون بالتراث كله ككتلة واحدة أن يحتفظوا بتراث الخوارج والقرامطة والتكفيريين الذين يكفرون مَنْ يخالفهم في الرأي؟ هل يريدون الاحتفاظ بالآراء الشاذة مثل آراء التكفيريين لمن يقول بكروية الأرض؟ هل يريدون الاحتفاظ بتراث قتلة الصحابة الكرام: تراث قتلة عمر وعثمان رضي الله عنهما وقتلة على والحسين رضي الله عنهما؟ أم هل يقدسون التراث كله بما فيه تراث من هدموا الكعبة؟

إن التراث به الإيجابي وبه أيضا السلبي، به علوم الطبيعة والرياضة والطب وعلوم الحديث، وبه أيضا علوم السحر والتنجيم والخرافات. إن المزايدة على الاحتفاظ بالتراث كله دون إعمال الوحي في حدود العقل النقدي، مغالطة كبرى.

وإلى نص المقال القديم :»إن التراث مليء باتجاهات شتى متباعدة، وأحد سبل تجديده –وليس كلها– هو إعادة التحليل النقدي لمكوناته تحليلا علميا، ثم إعادة بنائها مع العناصر الجديدة لصنع مركب جديد أو منظومة جديدة، مثل التعامل مع العناصر الكيميائية، من الممكن أن أصنع منها سما أو أصنع منها دواء... ما أريد بيانه هنا هو أنه لا يمكن رفض القديم كله بحجة وجود بعض الأفكار الخاطئة أو الشاذة، فلا يمكن أن أرمي بثروة إلى البحر لأن بها بعض أو كثير من العملات المزيفة؛ فمن يفعلون ذلك ما هم إلا حمقى مغرورون! لأنهم يقعون في مغالطة منطقية واضحة، وهي الانتقال من «الحكم على الجزء» إلى «الحكم على الكل»؛ ففي منطقهم الفاسد ينطلقون من مقدمات جزئية صحيحة تؤكد أن (بعض آراء التراث خاطئة)، ثم يقفزون إلى نتيجة كلية فاسدة (كل آراء التراث خاطئة)! وهذا ما يسميه علم المنطق التّعميم المتسرِّع «Hasty Generalization»؛ حيث يستنتج المغالطون صفات «فِئَة كُلِّيَّة» من خصائص «عيِّنَة صغيرة جزئية محدودة» من هذه الفِئَة. وللتوضيح: إنهم مثل أولئك الذين ينظرون إلى سلة تفاح، ويستنتجون ببساطة أن (كل التفاح فاسد) لأن (السلة بها تفاحات فاسدة)، ومثلهم مثل الذين يرون صدق الحكم الجزئي أن (بعض المواطنين كذابون)، ثم يقفزون بكل رعونة إلى الحكم الكلي أن (كل المواطنين كذابون).

كما لا يمكن قبول التراث كله بحجة أن الماضي مقدس كله؛ والذين يفعلون ذلك يقعون في المغالطة السابقة نفسها، فينطلقون من «عينات جزئية» أخرى صحيحة هي: أن (بعض آراء التراث صحيحة وتتطابق مع المقدس والعقل الصريح)، ثم يقفزون إلى نتيجة كلية فاسدة (كل آراء التراث صحيحة وتتطابق مع المقدس والعقل الصريح)!

إن هذا التعميم المتسرع في القضايا الكبرى هو أهم خصائص النظام العقلي الفاسد الذي يحكم تفكيرنا، ليس في التفكير الديني فقط ولكن أيضا في الحياة اليومية مرورا بالإعلام ووصولا إلى أعلى الهرم الذي تتربع عليه نخبة ثقافية تحكم حياتنا الفكرية منذ مطلع العصر العربي الحديث في بداية القرن التاسع عشر.

إن التعصب سواء كان مع التراث كله أو ضد التراث كله، وسواء كان تعصبا لجماعة أو تعصبا للذات، طفولة فكرية؛ فالمتعصب مثل الطفل يعتقد أنه مركز الكون! وما هذا إلا لأن المتعصب لا يستطيع أن يرى عيوب تفكيره، حتى لو واجهته بالنص قطعي الثبوت محكم الدلالة أو مقاصد الشريعة أو ما علم من الدين بالضرورة في قرآنه وسنته الصحيحة.

ولذا فإن قبول التراث كله، لا يقل حماقة عن رفضه كله؛ فكلاهما تعصب، وكلاهما يسيطران على الساحة الفكرية والدينية المعاصرة، فأمتنا مبتلاة بسيطرة تيارين نقيضين كليهما بعيد عن «الوسط الذهبي» للإسلام والعقل البدهي. ولن نخرج من الفتن إلا بالوصول إلى هذا الوسط الذهبي. ومن أسف فإن صراع الطرفين النقيضين لم يتمخض حتى الآن عن الوصول إلى مركب جديد يحل الإشكالية بين الأخوة الأعداء «الأصولية» و«العلمانية».

وما هذا في أحد أسبابه إلا لهيمنة «الدوجماطيقية= التعصب المطلق» على النظام العقلي الذي يحكم تفكير الجميع على الجبهتين المتصارعتين. ولم يتمكن أي طرف من إدراك «الفخ العقلي» الذي وقع فيه؛ فالدوجماطيقية فخ، وهي عملية تستخدم حيلة مخادعة لإيقاع جميع الأطراف في فخها. يقول أندريه لالاند الفيلسوف الفرنسي الشهير :»الدوجماطيقية حيلة فكرية مخاتلة قائمة على تأكيد المرء لمعتقداته بأمرٍ وسلطان، ودون القبول بأنها قد تحتمل شيئا من النقص أو الخطأ». ومعنى مخاتلة أي مخادعة. ومن الملفت أن القرآن الكريم رصد حيل البشر في الخداع والانخداع والمخاتلة بدون وعي، ووقف عندها، وكشفها، ونقد أصحابها الذين يؤكدون معتقداتهم غالبا بسلطة الآباء دون برهان عقلي أو سلطان من وحي مبين، لكن يبدو أن مرضى القلوب والعقول لا حل لهم بتحكيم الواقع الحي أو العقل المحكم أو الوحي الثابت، ويبدو أن الحل في العيادات النفسية!

والمفارقة أن آلية «إهانة» التراث كله تخرج من رحم النظام العقلي نفسه الذي يحكم «التمجيد» للتراث كله، إنه النظام العقلي الذي يشبه حركة البندول، فنقطة ارتكاز البندول هي التعصب، والبندول تارة يذهب إلى الاتحاد كلية مع الطرف أقصى اليمين، وتارة يذهب كلية إلى الطرف المناقض أقصى اليسار!

إن حركة العقل المتعصب ضد التراث كله هي نفسها حركة العقل المتعصب مع التراث كله؛ هي القفاز نفسه ولكنه مقلوب! طرف يتعصب لعقل يحكمه الهوى دون برهان محكم أو سلطان من العلم، وطرف يتعصب لكل النصوص دون تمييز الإلهي من البشري، ودون تمييز بين الصحيح والضعيف، ودون الوعي بالثابت والمتغير في التشريع.

وكلاهما محكوم بالنظام العقلي ذاته القائم على «التعميم المتسرع» و«الدوجما» وأشياء أخرى نرجو أن نكشف عنها تدريجيا. وكلاهما يستخدم منهج التفكير نفسه الذي يحكم ماكينات الاستنتاج والاستنباط والاستدلال.

نحن إذن نؤكد مجددا على الحاجة إلى ثورة عقلية على طرق التفكير الحاكمة لحياتنا، وبدون ذلك لن يتغير الخطاب الديني، ولن ندخل عصرا جديدا».

المتن المقدس والمتون البشرية (١)

١٧ مايو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

» إن المشكلة لا تكمن أبدا في القرآن الكريم وما ثبت من صحيح السنة متنا وسندا، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في الذين يريدون أن يوحدوا بين متونهم البشرية والمتن المقدس! المشكلة تكمن في عقول أولئك الزاعمين لامتلاك مفاتيح الحقيقة المطلقة ويجاهدون من أجل حصار اتساع معاني المتن المقدس في حدود عقولهم المغلقة القائمة على الحفظ والاسترجاع، (... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف: ١٧٩)، فهم لا يعرفونَ التعقل ولا التفكر، ولا يعرفون إلا التبعية والتقليد والحفظ والاسترجاع للنصوص دون تدبر، مثل الأنعام التي تسير خلف حاديها.

إن المشكلة التي نواجها هي في الأساس مشكلة منهجية ومغالطة معرفية، تكمن في تلك العقول المغلقة التي ترعرعت في حاضنات التفكير الجامد والأحادي التي تقوم على الحفظ والتبعية لبشر، وتوحد بين المتن المقدس والمتون البشرية!

وحتى لا ندخل في جدال ينقلنا إلى مربع آخر، فنحن هنا لا نتحدث عن الأصول العقائدية ولا عما عُلم من الدين بالضرورة، فهي ثابتة ولا ينبغي الاقتراب منها، بل عن نتحدث في مربع قابلية المتغيرات في الإسلام لأحكام متجددة، وقابلية نصوص متننا المقدس لتفسيرات متعددة طبقا لمعاجم اللغة وأساليب العربية والواقع المتغير والمقاصد الكلية للشريعة إلخ. نحن نتحدث عن مرونة المتن المقدس في آياته ظنية الدلالة والحمالة للأوجه والمتعددة المعاني، ولا نتحدث عن مربع آخر وهو مَن يقوم بالتجديد، ولا عن مربع ثالث وهو ضوابط التجديد. هذه المربعات وغيرها لها أحاديث أخرى، ولا يمكن أن نتحدث في كل شيء في مقال واحد ولا في محاضرة واحدة ولا حتى في كتاب واحد. فلا يخرج نفر يطلبون الإجابة على كل شيء في حديث واحد! ولا يخرج نفر يحكمون على الكل بالجزء! ولا يخرج نفر يحكمون دون أن يقرأوا حتى سطرا! وفي كل الأحوال أشك أن أنفسهم تقوى على قراءة كتاب حتى نهايته! ولا حتى مقال حتى نهايته، إنهم ينصبون أنفسهم كقضاة على البشر، لكنهم قضاة يكتفون بالإنصات لأحاديث طرف واحد دون الطرف الآخر ودون النظر في الأدلة والدفوع!

إننا نحترم المتون البشرية، لكننا لا نحولها إلى متن مقدس، نحترمها بوصفها جهودا بشرية قابلة للصواب والخطأ، بها الإيجابي وبها السلبي. ومن الخطأ والخطيئة التعامل معها ككتلة واحدة، إن المدافعين عن التراث البشري كله ككتلة واحدة يناقضون أنفسهم لأن الفرقة العقائدية التي ينتمون إليها تؤكد خطأ بقية الفرق العقائدية الأخرى في التراث نفسه، أي أن تيارات التراث نفسها يرفض بعضها بعضا، بل إن بعضها يكفر بعضا!

وقد قام علماؤنا الأجلاء في التراث بمحاولات كبيرة منها الصواب ومنها الخطأ؛ من أجل تنزيل معاني الوحي على أرض الواقع ومتغيرات التاريخ، طبقا لظروف كل عصر، وطبقا لاختلاف مناهج الفهم البشرية المتباينة من مدرسة علمية إلى أخرى. وقام آخرون أيضا في التراث بتفسيرات تشكل دوائر سوداء مليئة بالعناصر الميتة والسلبية وتخرج عن مقاصد الشرعة والمنهاج اللذين جعلهما الله لنا، مثل القرامطة والخوارج وغيرهم من المتحالفين مع المرابطين عند دوائر الموت والكراهية. فهل المدافعون عن التراث كله ككتلة واحدة صماء يدركون مخاطر هذه النعرة القبلية التي تورطهم في الدفاع عن البقع السوداء؟

إن متون التراث البشري ليست حاكمة على القرآن الكريم والسنة الصحيحة، بل إن المتن المقدس هو المعيار وهو الحاكم على التراث في حدود التفكير النقدي الذي أمرنا المتن المقدس بإعماله (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمد: ٢٤). وبواسطة المتن المقدس يمكن أن نقبل المعقول في التراث، وبالمتن المقدس نرفض اللامعقول في التراث، في حدود العقل النقدي الصريح والضوابط العلمية. ولذا لابد من مجاوزة التراث للوصول إلى المنابع الصافية (القرآن الكريم والسنة الثابتة الصحيحة سندا ومتنا). وهذا لا يعني إهمال التراث، بل يعنى إخضاعه للفحص النقدي العلمي؛ وإذا ما فحصنا التراث الذي يدافع عنه أصحابُ التعصب القبلي كله ككتلة واحدة، سوف نكتشف كثيرا من الأساطير والخرافات والأحكام المنافية للعقل الصريح، وسوف نكتشف أن قاسما كبيرا من التراث تم تقديمه بوصفه مقدسا لا يمكن نقده، ونسي هؤلاء أنه لا يوجد إلا متن مقدس واحد هو الدين المكتمل لحظة قوله تعالى :(اليوم أكملت لكم دينكم)، وفي خطبة الوداع قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت ... اللهم فاشهد» (لمزيد من التفصيلات يمكن الرجوع لكتابنا : حجة الوداع، المنشور منذ ٣٥ عاما، في عام ١٩٨٥ م، مكتبة المختار الإسلامي).

فهنا اكتمل الدين وكل ما جاء بعد ذلك هو متون بشرية يؤخذ منها ويُرد عليها. إن ما ندعو إليه هو فهم القرآن بالقرآن وما بينته منه السنة الصحيحة في حدود التفكير النقدي الذي دعا الوحي نفسه إلى إعماله، أما الوحي الموازي الذي صنعه البعض فهو لا يلزمنا في شيء إلا بعد فحصه فحصا عقلانيا نقديا في ضوء القرآن والسنة الصحيحة وحسب المعايير العلمية في فهم النصوص.

وقد يتساءل البعض قائلا: إننا لم نسمع عن الوحي الموازي. وهنا يجب إيضاح أن زعم القداسة لأي متن بشري هو وضع له في مرتبة الوحي الموازي، وكذلك محاولة إلزام الناس بأفكار وأحكام ليست معلومة من الدين الخالص بالضرورة إنما هو بمثابة إعطاء إلزامية لها مثل إلزامية الوحي. إن من يلزمون الناس باتباع متن بشري معين تبعية مطلقة دون فحص، إنما يقدسون هذا المتن البشري ويضعونه في مرتبة الأحكام الإلهية دون أن يشعروا. فلا يجب أن نلوم مَن يدافع عن منابع الوحي الصافية الثابتة في مواجهة فرق عقائدية بشرية تصيب وتخطئ، بحجة الدفاع عن التراث كله دون تمييز.

وإذا ما استخدمنا العقل النقدي العلمي في فحص تراث المتون البشرية بكلمات المتن المقدس الصافي، سوف نكتشف أمورا كثيرة إيجابية، لكننا أيضا سوف نكتشف أمورا أكثر سلبية تم تحميلها على المتن المقدس وليست منه، وسوف نكتشف عناصر كثيرة هدامة ورجعية، كما سوف نكتشف عادات اجتماعية تم حسابها بوصفها دينا وهي ليست في متن الوحي، كما سوف نكتشف أنه تم التعامل معها بوصفها وحيا موازيا، مع أنها من صنع تيارات بشرية أضفى البعضُ عليها قداسة، ودافع عنها كل متقنع بالفضيلة بوصفه حامي الحمى وبنعرة قبلية يظهر فيها وكأنه المدافع عن الأمة، فهو يملك صك الغفران ومفاتيح الحقيقة! مع أن الدفاع الحقيقي عن الأمة يكون بالعمل على تخليصها من الأمراض المزمنة التي لحقت بها، وأول طرق العلاج أن نعترف بالمرض، لا أن نكابر وندعي العافية. ومن طرق تشخيص العلاج إجراء عمليات التحليل النقدي للكشف على المكونات الأصيلة وعناصر العدوى، وما ينتمي إلى الجسم طبيعيا وما هو عارض مرضي. وشيء مثل هذا يجب أن نفعله مع المتون البشرية، حتى نعرف العناصر الإيجابية والعناصر السلبية. فهل معنى هذا أننا نتعامل بالمفهوم القديم عن «تنقيح التراث» وكفى؟ الإجابة في مقال قادم إن شاء الله تعالى».

المتن المقدس والمتون البشرية (٢)

٢٤ مايو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«الذين يكتفون بعملية التنقيح وحدها ولا يطورون ذلك إلى خطوات تفاعلية حقيقية للدخول إلى عصر جديد، سوف يظلون في نطاق المعارك القديمة التي تنتصر لفرقة ضد فرق أخرى، ويقعون تحت طائلة قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام: ١٥٩). ومن الخطأ الواضح تقييد هذه الآية الكريمة وتفسيرها بالاقتصار على أهل دين بعينه؛ لأن اللفظ عام، والعبارة كلية تشمل كل من يفعل ذلك، كما قلنا في أكثر من موضع قبل ذلك. والمطلوب هو تجاوز المعارك القديمة المفرّقة إلى المعارك الجديدة، معارك البناء والتنمية والتقدم، معارك تحقيق العدالة الدولية والعدالة الاجتماعية، معارك القضاء على الفقر والمرض والجهل.

نحن نريد (تجاوز) معارك الهوامش إلى معارك التقدم، نريد أن يصنع الجميع مركبا جديدا يمكن معه صنع تراث جديد لا يتنكر للعناصر الحية في التراث القديم، لكنه يجعلها تتفاعل مع العناصر الجديدة للخروج بمركب جديد، مثلما يحدث في تطور الكائن الحي. أما الدفاع المطلق عن المتون البشرية القديمة بغثها وثمينها، فصاحبه يريد للكائن الحي أن يظل جامدا عند مرحلة واحدة في طور النمو، وهنا يكون قد تسبب في موته بينما يظن أنه يدافع عنه!

وهذا ينقلنا إلى معان آخرى لمفهوم (تجاوز المتون البشرية القديمة)، ومن هذه المعاني تجاوز لتلك المتون للعودة إلى المنابع الصافية للوحي الخالص، ومن هذه المعاني ايضا تجاوز التراث للوصول إلى مركب جديد نتيجة عملية تفاعل تام وتطور طبيعي للعناصر القديمة القادرة على الحياة. وأي تجاوز يتضمن عملية (مجاوزة) أي مرور بالشيء وليس بالقفز عليه. والمرور معناه أنك سوف تمر به لكنك لن تقف عنده متجمدا! بل تنتقل إلى ما بعده. إن المطلوب هو استخلاص العناصر الإيجابية البناءة القابلة للحياة المتجددة، وإدخالها في عملية تفاعل جديدة مع العناصر المستجدة ومتغيرات العصر ومكتسبات العلوم الحديثة ومتطلبات الواقع والمصالح المرسلة، ثم نخرج من عملية التفاعل التام بمركب جديد. وإذا كنا ندعو إلى تجاوز المتون البشرية القديمة، فهذا التجاوز ليس نفيًا مطلقًا، بل هو ارتقاء بهذا الوجود إلى مستوى أعلى. لكن للأسف بعض مَن يدعون العلم لا يعرفون المعاني اللغوية الفصيحة لكلمة (تجاوز)، والغريب أنهم يفهمونها بالمعنى العامي! والأغرب أنهم لم يلتفتوا إلى استشهادنا بأقوال الأعلام والعلمات من العلماء الحقيقيين في الماضي التي تتعلق بالمنهج العلمي، ومن أهمها: قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «القرآن بين دفتي المصحف لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال».

وسبق التأكيد في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد) أن من أكبر النماذج الفقهية التي كافحت الجمود ورفضت التعصب والمواقف المنغلقة، الإمام الشافعي الذي اختلف مذهبه الفقهي في مصر عن مذهبه القديم في العراق ومذهبه الأقدم في مكة. ومن بين أسباب هذا الاختلاف مراعاة ظروف الزمان والمكان، وأتصور قياسا على ذلك أن الإمام الشافعي نفسه الذي يحتضنه تراب مصر وقلبها لو عاد إلى عصرنا لأصبح له فقه جديد يلائم الزمان الجديد ومتغيراته المعقدة. ومن المعلوم أنه تلقى العلم على يد الإمام مالك، فالشافعي تلميذ مالك، ومالك نفسه لاحق للإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل تلميذ للشافعي. لكن أي فقيه منهم لم يتجمد على مذهب أستاذه، ولم يقم بتنقيحه، بل جاء بمذهب مختلف، والإمام أحمد نفسه لا يوجد له رأي واحد في كل المسائل، بل في كثير من المسائل تجد له رأيين؛ ويجمع له البعضُ في المسألة ثلاثة آراء؛ مما يدل على وجود تنوع وتطور في الفقه الحنبلي ذاته. ومن هنا فإن أئمة الفقه ضد التقليد والتعصب والجمود الذي أصر عليه بعض أتباعهم؛ لأنه ضد روح الإسلام ومقاصده التي تستهدف تحقيق المصالح الإنسانية وتراعي ظروف العصر ومتغيراته، ومن هنا أيضا استقر المجتهدون من عصور الإسلام الذهبية على بطلان الجمود والتجمد، وعلى عدم ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. قال الحصفكي، وهو من أشهر المؤلفين الأحناف في الفقه الحنفي :» إذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفنا قلنا وجوبا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب»(محمد بن إسماعيل الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد). ويروى القول نفسه عن الإمام الشافعي وغيره. والكتب التي تم تأليفها لرد التقليد والتعصب كثيرة، مثل «أعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم؛ ومثل «أدب الطلب ومنتهى الأرب» للشوكاني بدراستي وتحقيقي الذي نشرته مكتبة ابن سينا، عام ١٩٨٨، ومثل كتاب «القول المفيد في الاجتهاد والتقليد» أيضا للشوكاني بدراستي وتحقيقي ونشرته مكتبة ابن سينا أيضا، عام ١٩٨٧. وكلها تدل على ازدراء التعصب والجمود والتقليد الأعمى. وليس وضع المتون البشرية تحت الفحص النقدي خروجا من الهوية. إن الحفاظ على الهوية لا يعني بالضرورة أن تظل جامدا على حالك في التاريخ متجمدا متحنطا، مثلما يغالط أهل الحرف ودعاة استنساخ الماضي كما هو حرفيا. إن الارتقاء في الكائن الحي من مرحلة إلى مرحلة ليس طمسا لهوية الإنسان، وليس إلغاء لمرحلة سابقة، بل إنه نمو وارتقاء إلى مرحلة أعلى. وكل مرحلة تتجاوز السابقة وتتضمنها بالضرورة، لكن لا تستنسخها كما هي. ولا يصح القول ببقاء الإنسان عند مرحلة واحدة في نموه مهما كانت رائعة، بل يجب أن يرتقي إلى مرحلة أعلى، أو هكذا يجب أن يكون!

ومن هنا فإننا ندعو إلى تأسيس خطاب ديني جديد، وليس تجديد الخطاب الديني القديم، وندعو إلى تطوير علوم الدين وليس إحياءها. إن عدم فهم منطق التاريخ، وغياب فلسفة عربية جديدة للحضارة، وعدم الاعتبار بقوانين الله في التقدم، لها الدور الأبرز في تخلفنا في كل شيء، وهي من الأسباب الفلسفية لجمود العلوم القديمة وتوقف نموها وتطورها بعد رحيل الأجيال الذهبية. فقد توقف هذا النمو عندنا بسبب دعاة الجمود لكنه لم يتوقف عند الأمم المتقدمة؛ لأن التطوير عند البعض ممن لهم الغلبة على الساحة، معناه تأليف الشروح والمتون والحواشي! والتجديد عندهم يعني التنقيح والتنقية فحسب! والنهضة معناها إحياء القديم فقط دون تمييز! أما المناهضون لهم فأفضل منهج عندهم لملاحقة الأمم الأخرى المتقدمة هو التقليد الحرفي الشكلي أيضا والترجمة عنها فقط! وهكذا أصبحنا بين نقيضين لا يلتقيان، وهكذا استمرت معارك التفرق والنزاع، لكن الأمل يظل من بعيد في تجاوز النقائض والدخول في عصر جديد ترجع فيه الأمة إلى مربع التقدم والعلم والحضارة والتوحيد الخالص».

المتن المقدس والمتون البشرية (٣)

٣١ مايو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

مَنْ يمجدون أية مرحلة بشرية، ويقفون عندها، دون الارتقاء بها إلى مرحلة أعلى، سوف يؤدون إلى الإضرار بتلك المرحلة القديمة دون أن يشعروا؛ لأنهم سوف يوقفون نموها الطبيعي ويجمدونها، وما يتجمد يموت، أو أنهم سوف يحنطونها، والمحنط طبعا ليس حيا! فما الأنفع للتراث: التجمد عنده بدعوى تمجيده أم محاولة تطويره وترك الماء الجديد ينزل عليه.. ماء العقل النقدي، (وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)؟

إذا نظرنا في نمو الإنسان بعد خروجه إلى الحياة، نجده يتجاوز مرحلة الطفولة إلى مرحلة أعلى هي الصبا، ثم المراهقة، ثم يتجاوز المراهقة إلى الشباب، ثم يتجاوز الشباب إلى الكهولة ثم إلى الشيخوخة، ثم الموت، ثم ما يليه من مراحل. لكن ثمة شيء يبقى من خلال الأعمال والأبناء، ومن خلال الأعمال والذرية تعود الدائرة لكنها ربما تبدأ من نقطة أكثر نموا، وربما نقطة أكثر انحدارا، وربما تبدأ من النقطة نفسها.

هنا يجب أن نتوقف عند قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج :٥). وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (غافر: ٦٧).

إذن التطور والتغير سنة الله في خلقه البيولوجي، وبقية الآية في سورة الحج لم تأت عبثا، (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)؛ فالأرض الهامدة بكل ما فيها من خبيئة كامنة سوف تظلُ هامدًة حتى ينزل عليها الماء فتتجدد فيها الحياة، فتلك كانت سنة التطور البيولوجي، وهذه سنة التجديد وخروج حياة جديدة من حياة الأرض والنبات. وأيضا بقية الآية في سورة غافر لم تأت عبثا، (وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، هنا ضرورة إعمال العقل النقدي، فبدون العقل لن تعرف سنة الله في التطور البيولوجي أو التطور العام، وبدون العقل لن تستطيع الاستفادة من سنن التطور في الطبيعة الجامدة أو الحية في طريقة تعاملك مع الحياة أو مع الموروث أو مع أي شيء. إن قوانين الله المطردة التي لا تتغير تظهر في آيات الكتاب، ولكنك لن تفهمها إلا بالنظر في قوانين الله في الطبيعة والحياة، كما أنك لن تستطيع تحويلها إلى علم ينفع الناس بدون إعمال العقل النقدي (وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

وكل مرحلة جديدة (تجاوز) المرحلة السابقة لكنها لا تقضي عليها تماما ولا تميتها؛ كما أن المرحلة الجديدة ليست تنقيحا للقديمة؛ بل تطويرا لها بالمعنى الشامل، إن التنقيح ما هو إلا عملية محدودة بين عمليات أخرى كثيرة ومتنوعة، ومن أهمها عملية «الانتخاب الطبيعي» بالمعنى العلمي، للعناصر الإيجابية القادرة على البقاء وعلى النفع العام. وهذه العملية للانتخاب الطبيعي مستقاة من سنة كونية أخرى في تطور النوع، ومن قانون من قوانين الكتاب الكريم: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (الرعد :١٧). ومستقاة أيضا من تطور العقل البشري الذي يشهد طفرات في وظائفه نتيجة التراكم المعرفي ونتيجة الثورات العلمية في محطات التحول العلمي عبر تاريخ العلم.

ومن الناحية البيولوجية -على الأقل- يظل الطفل جزءا من كل مرحلة تالية على الرغم من أنه (تجاوز) مرحلة الطفولة. وهكذا مع كل مرحلة يتم (تجاوزها) نحو مرحلة أعلى. وإذا كان هذا هو قانون الله في الطبيعة، فعلينا أن ننتهج مثله في الأفكار؛ ولنوضح كلامنا أكثر، فمن يمجدون مرحلة الطفولة أو الشباب ۔ على روعة كل منهما – ويريدون أن يقفوا عند أي منهما، سوف يحدث لهم جمود في النمو وتوقف عن الارتقاء. لا شك أن الطفولة رائعة بنقائها وطهرها وبراءتها وانفتاحها على الطبيعة، لكن من الخطأ والخطيئة التوقف عندها، وقل مثل ذلك في مرحلة الشباب بكل قوتها وفورتها، لكن هناك مرحلة أعلى يجب الوصول إليها على أية حال، فقمة النضج أن تصل إلى مرحلة الكهولة ثم مرحلة الشيخ الناضج كلية، لكن هذه المرحلة تموت، فهل نحنطها؟ سنة الله أن دورة الحياة تبدأ من جديد في شكل جديد، حيث الأبناء والأحفاد والأعمال الباقية. ويبدو أن تطور الحضارات يحكمه منطق تاريخي شبيه بالمنطق الحاكم للتطور البيولوجي والعقلي والنفسي والروحي للأفراد.

وفي تصوري أن حل مشكلة العلاقة مع القديم يجب أن نتبع فيها قوانين الله مع نمو الإنسان من الطفولة وحتى الشيخوخة، ثم الموت، لكنه ليس الموت النهائي، بل هناك دورة جديدة للحياة البيولوجية في هذه الدنيا نفسها عبر كائن جديد هو الابن وهو الحفيد، وهناك دورة جديدة للميراث الذي تركه الأب؛ فهل سوف تقف عند ميراث أبيك وجدك، دون تنميته وتطويره؟ أم سوف تكون ابنا بارا ينمي ويطور موروث آبائه وأجداده؟

إن ارتقاء الإنسان في الحضارة يشبه ارتقاءه في النمو الجسمي والشخصي، في كل مرة يتم تجاوز القديم للارتقاء إلى مرحلة تالية، لكن القديم لا يظل كما هو لكنه يأخذ شكلا جديدا أكثر نموا وارتقاء، وإذا تفاعل مع عناصر جديدة فإنه يتطور إلى مستوى جديد من الوجود. ونحن ندعو إلى الارتقاء بالتراث القديم نحو مُركب تفاعلي جديد يجمع بين عناصر الماضي الإيجابية لا السلبية، والحية لا الميتة، ومستجدات العلوم ونواتج حركة التاريخ ومتغيرات الحاضر والمصالح المرسلة. وإذا نجحنا في ذلك فسوف نكون قد تمكنا من صنع نسختنا الجديدة من التراث كمرحلة نمو تشبه نمو الكائن الحي، مرحلة جديدة (تتجاوز) المراحل الماضية في التراث القديم لكنها لا تتنكر للعناصر الإيجابية فيه ودون هجر للنقاط العلمية البيضاء فيه. وهنا نكون قد صنعنا تراثا جديدا يلائم عصرنا ويفي بمتطلباته وما يحتويه من علوم وتصورات جديدة تنشأ بحكم الظروف المجتمعية المتجددة وتغير المصالح المرسلة واتساع رقعة الفكر الحر وزيادة موجات المد العلمي والثقافي.

وهذا التراث الجديد الذي يجب أن نسعى إليه ليس تلفيقا، ولا تنقيحا، بل مرحلة جديدة تنطوي على إبداع جمعي متجدد يقوم على (تجاوز) القديم دون افتقاد الإيجابي من عناصره الحية أو عناصره القادرة على الحياة. ففي التراث ما هو ميت، وفي التراث ما هو حي. ومن الحي ما هو إيجابي يجب أن نفتح أمامه كل المسارات. ومن الحي ما هو سلبي يجب أن نسد أمامه كل سبيل للاستمرار، مثل بعض آراء الخوارج التي لا تزال حية عاملة في بعض العقول الفاعلة في الواقع، لكنها سلبية معادية للحياة والتنمية. فما هو حي ليس كله إيجابيا، بل منه السلبي المدمر الهدام الذي يجب إزاحته إزاحة تامة من خلال القطيعة الابستمولوجية الشاملة معه. وهذا دورنا الذي يجب أن نقوم به في عملية الفحص العلمي النقدي للتراث بوصفه تراثا بشريا قابلا للصواب والخطأ، ومنه الإيجابي ومنه السلبي).

المتن المقدس والمتون البشرية (٤)

٧ يونيو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لم تأت قوانين الله المطردة في الطبيعة والحياة عبثا، إنها قوانين بقدر دقيق تحكم الطبيعة وتحكم الحياة الطبيعية، وعلى الإنسان أن يتعلم منها فهما لا حفظا ولا تكرارا، وأن يُعملها في حياته إذا أراد القوة والتقدم بين الأمم. وأتصور أن عملية بناء خطاب ديني أو علمي أو ثقافي جديد، لابد أن نستفيد فيه من قوانين الطبيعة، فهي متن مقدس آخر لله بجوار الوحي، وننظر كيف تتم عملية التجديد فيها. ولا شك أن الكيمياء من أهم جوانب الطبيعة، وفي عالم الكيمياء يمكن أن نتعلم الكثير والكثير من العمليات التي يمكن أن نستفيد منها في عملية التجديد.

وفي واقعنا المعاصر نجد أمامنا عناصر قديمة آتية من المتون البشرية المصنوعة في سالف الزمان وعناصر جديدة آتية من الواقع المتغير والعلوم والثقافات الأخرى المعاصرة والمصالح المرسلة. فهل يمكن أن نصل إلى مُركب جديد نتيجة عمليات تفاعل تامة على طريقة التفاعلات الكيميائية التامة في علم الكيمياء؟

إن التعلم من قوانين الله الثابتة في الطبيعة يدفعنا إلى التأكيد على أنه لابد من مركب جديد تفاعلي بين العناصر الإيجابية الحية في التراث القديم والعناصر الجديدة، فالعالم متغير وما ينفع الناس في عصر قد لا ينفعهم في عصر آخر. والعناصر الإيجابية الحية في التراث القديم عندما تتفاعل تفاعلا تاما مع العناصر الجديدة، فإنها تصنع مرحلة جديدة، بل تصنع تراثا جديدا.

إن الإسلام نفسه كدين قدم جديدا، لكنه لم يتنكر للعناصر القديمة الملائمة في الأديان السماوية السابقة، بل استمرت معه العناصر النقية الخالصة من ملة إبراهيم عليه السلام. والمجددون الحقيقيون بعد ذلك مثل ابن خلدون، قد جاءوا بالجديد وصنعوا تراثا وإسهاما حقيقيا، على الرغم من أن ما جاءوا به ليس نقلا وترددا أجوف للقديم. وربما لا يعلم البعض أن التقدير في الإسلام نفسه ليس للقدماء فقط بل للاحقين أيضا، قال عليه الصلاة والسلام:«طوبى لِمَن رآني وآمنَ بي، وطوبى ثُمَّ طوبى ثُمَّ طوبى لِمن آمنَ بي ولَم يَرني»، حديث حسن السندَ، (انظر ابن حجر العسقلاني المصدر: الأمالي المطلقة، ص ٤٧)، وصححه الألباني (انظر: صحيح الجامع، ص ٣٩٢٣). فالفضل ليس مقصورا على القدماء وحدهم، بل مفتوح إلى يوم القيامة.

إن العناصر الإيجابية الحية في التراث القديم عندما تدخل التراث الجديد، لن تكون كما هي في الماضي، بل سوف تأخذ طبيعة جديدة في المُركب الجديد، على شاكلة التفاعلات الكيميائية، وأهمها التفاعلات التامة للمواد، وهو ما يُطمح إليه في عملية التجديد الفكري بوصفه تفاعلا تاما تأخذ فيه العناصر طبيعة جديدة بعد إتمام عملية التفاعل.

ومن أنواع التفاعلات أيضا التفاعلات الانعكاسية التي لا تتم حتى نهايتها، بل يستمر جزء من المتفاعلات في الوجود بجوار النواتج في بصرف النظر عن مرور الزمن وطوله، ويمكن إعادة التحليل والحصول على تلك العناصر مرة أخرى. وليست التفاعلات الانعكاسية هي ذروة ما يُطمح إليه في عملية التجديد الفكري؛ لأن الهدف الانتقال النوعي إلى عصر جديد ببصمة جديدة. ولذا فإن المعنى المتحقق للتفاعلات الكيمائية التامة للمواد هو معنى المُركب الجديد في الخطاب الديني الجديد في ضوء قوانين الله في علم الكيمياء. لكن هناك أنواعا ودرجات أخرى للتفاعل الكيميائي مطلوب أيضا الاستفادة منها في تجديد الأفكار، مثل: تفاعلات الإزاحة حيث يطرد ويزيح العنصر الأكثر نشاطا عنصرا آخر غير نشط أو أقل نشاطا. وهذه العملية الكيمائية يمكن الاستفادة منها مع الأفكار البناءة والهدامة، والمتقدمة والرجعية، إذ يمكن تنشيط الأفكار البناءة والتقدمية في التعليم والثقافة والإعلام، وهي تلقائيا سوف تقوم بعملية إزاحة للأفكار الهدامة والرجعية. ومن أنواع التفاعلات أيضا تفاعلات الضم أو الاتحاد حيث تتفاعل مادتان كيميائيتان لإنتاج مادة واحدة جديدة، ومن أنواعها: اتحاد عنصر مع عنصر لتكوين مركب جديد، وأيضا اتحاد عنصر مع مركب لإنتاج مركب جديد، وكذلك اتحاد مركب مع مركب آخر لتكوين مركب آخر جديد. وهذا النوع له ما يناظره في العمليات الفكرية بكثرة مع مجددي الأفكار، سواء كانوا على وعي بهذا أم لا. وقل مثل ذلك في تفاعلات التحلل والتفكك وفيها يتم إنتاج مادتين أو أكثر من مادة واحدة. ومن ثَّم تغيب المادة الأولى، وهذا يصلح مع الأفكار الهدامة، حيث يتم تحليلها وتفكيكها وفق المنهج التفكيكي في الأدب والفلسفة وغيرهما. وهناك كذلك تفاعلات التبادل، وفيها يتم تفاعل عنصر مع مركب لتكوين عنصر ومركب جديدين. وهكذا يمكن السعي إلى الاستفادة في العمليات العقلية مع الأفكار من العمليات الكيميائية التي تتم في المواد. وعليه فإن الظن أن مجرد التنقيح سوف يؤدي إلى التجديد، ما هو إلا تبسيط مخل وبدائي لعمليات التجديد.

وفضلا عن ذلك فإن تطور الكائن الحي في نموه البيولوجي لا يخضع للتفاعلات الانعكاسية، فالعمر البيولوجي لا يمكن العودة به (طبقا لعلوم عصرنا)، وعليه فإن المبتغى هو عمليات تفاعل تامة للوصول إلى مركب جديد ومرحلة جديدة وعصر جديد. وتطور الحضارة شبيه بهذا؛ فهو على شاكلة المُركب الجديد في الكائن الحي الذي يرتقي من مرحلة إلى مرحلة في ارتقائه وتطوره في سلم الحياة. ونحن هنا نتحدث عن التطور بالمعنى العام وليس بالمعنى الموجود في نظرية دارون.

ونعيد التأكيد على أنه في المُركبات الكيمائية التي تحدث نتيجة تفاعلات تامة يتكون كل مركب جديد من مجموعة من العناصر، لكن هذا المُركب الجديد نفسه له خصائصه المختلفة عن كل عنصر يتضمنه، كما أن العنصر نفسه تتغير طبيعته في هذا المُركب الجديد؛ حيث تتحول جميع المتفاعلات في هذا المُركب إلى نواتج بعد مرور زمن محدد سواء كان طويلا أو متوسطا أو قصيرا. وهذا ما نجده في تاريخ الأفكار على المستوى بعيد المدى، وعلى سبيل المثال في تطور علم أصول الفقه، نستطيع أن نرصد حجم التطور فيه إذا أخذنا طرفين متباعدين نسبيا، الطرف الأول الإمام الشافعي أو الإمام الباقر أو الإمام جعفر الصادق، والطرف الثاني بعد قرون ممثلا في الشاطبي، لكن من أسف فإن دورة التطور في علم أصول الفقه انغلقت بسبب العاجزين عن التطوير؛ فنجدهم يلوذون بتقديس الماضي البشري ككتلة واحدة دون تمييز، مثل الأبناء الذين يفشلون في تحقيق نجاح في حياتهم بعد موت آبائهم، فيلوذون بالفخر بآبائهم، أما هم أنفسهم فلا إسهام لهم ولا إنجاز، على طريقة الشاعر :

وبُناةُ الأَهرامِ في سالِفِ الدَهرِ كَفَوني الكَلامَ عِندَ التَحَدّي

...

إِنَّ مَجدي في الأَولَياتِ عَريقٌ مَن لَهُ مِثلَ أَولَياتي وَمَجدي

...

وَقَديماً بَنَى الأَساطيلَ قَومي فَفَرَقنَ البِحارَ يَحمِلنَ بَندي

قَبلَ أُسطولِ نِلسُنٍ كانَ أُسطولي سَرِيّاً وَطالِعي غَيرَ نَكدِ

فَسَلوا البَحرَ عَن بَلاءِ سَفيني وَسَلوا البَرَّ عَن مَواقِعِ جُردي

...

ومع احترامي الجم والحقيقي للشاعر الفحل، لكن منطقه يعكس ثقافة الفخر التي يلجأ إليها العجزة عن التقدم والعجزة عن تحقيق مجد جديد. لكن الشاعر الآخر كان صائبا عندما قال:

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي!).

المتن المقدس والمتون البشرية (٥)

١٤ يونيو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

هل سأل أحد نفسه ما قول الله تعالى في المتون البشرية؟ أم يكتفون بأقوال أصحاب القداسة المزعومة؟

قال الله تعالى في قوله الفصل في محكم آياته قطعية الثبوت قطعية الدلالة: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢).

إذن فقد حسم القرآن الكريم مسألة المتون البشرية، أيا كان مَن وضعها، حسما مطلقا. وما التراث سوى متون بشرية، وكل ما جاء من عند غير الله به اختلاف كثير، أي به تفاوت في الجودة، وتفاوت في الصواب والخطأ، وتفاوت في الإيجابي والسلبي، وبه القوي وبه الضعيف، وبه اتساق واتزان واضطراب وتضاد وتعارض بدرجة أو أخرى، وقابل للمراجعة والتحسين دوما. وهو غير مطلق؛ لأن المطلق ليس به اختلاف ولا تفاوت. والخالي من كل ذلك هو الوحي وحده. وهذا هو الدليل على كونه من عند الله تعالى؛ لأن كل ما جاء من مصدر غير إلهي لابد أن يكون فيه اختلاف كثير. قال أَبُو مُسْلِم الْأَصْفَهَانِيُّ:»... إذَا كَتَبَ كِتَابًا طَوِيلًا مُشْتَمِلًا عَلَى الْمَعَانِي الْكَبِيرَةِ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَظْهَرَ التَّفَاوُتُ فِي كَلَامِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ بَعْضُهُ قَوِيًّا مَتِينًا وَبَعْضُهُ سَخِيفًا نَازِلًا، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ الْقُرْآنُ كَذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهُ المعجز مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى«.

إذن فكل كتاب من عند غير الله به اختلاف كثير بنص قوله تعالى. ومن هنا فإن الحكم بأن التراث البشري به الخطأ وبه الصواب، وقابل للمراجعة والتطوير والتجديد، هو حكم ينسجم مع ما قاله الله تعالى في محكم آياته واصفا به كل متن بشري ليس من عند الله. ومن يزعم أن أي متن بشري في التراث غير قابل للمراجعة العلمية والفحص النقدي، فقد زعم أن هذا النص يملك خصائص ومواصفات النص الإلهي.

إن كل العلوم هي متون بشرية، بها الإيجابي وبها السلبي، ولا يمكنك الزعم أن أي نص بشري كله صواب، وإلا فقد وقعت في تأليهه، فالوحي فقط هو الصواب بإطلاق لأنه إلهي، والله نفسه قد حكم بأن أي كتاب غير كتابه به اختلاف كثير، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢).

وأرجو أن يفهم هذا كل حريص على التوحيد الخالص، فالتوحيد الخالص لله غير ممكن وأنت تقدس كلام أي بشر وتعده حقيقة مطلقة. فكلام الله وحده هو المقدس وهو المطلق، وكلام غيره من البشر غير مقدس، بل هو نسبي وقابل للصواب والخطأ. والكون نفسه نسبي متغير، والمكان نسبي متغير، والزمان نسبي متغير، وكل ما يوجد في الزمان والمكان نسبي متغير. وللمرة السبعين النسبي ليس مشكوكا فيه، ومَن يرادف بين النسبي والمشكوك فيه، يقع في خطأ علمي جسيم يخالف كل قواميس ومعاجم العالم.

إن المتن المقدس وحي مطلق، بينما المتون البشرية اجتهادات نسبية لأنها إنسانية متغيرة، والبشر يصيبون ويخطؤون، فلا يوجد علم مطلق سوى علم الله تعالى؛ لأنه كمال لامتناهي، وهو وحده الذي يمتلك الحقيقة المطلقة؛ ولذلك فإنه سبحانه هو الذي (يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) (البقرة: ١١٣). فهو الحكم العدل ذو العلم بإطلاق، وهو الكمال بلا نهاية، له وحده الأسماء الحسنى بمعناها الكامل المطلق بلا قيد ولا شرط، (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) (الْأَعْرَاف: ١٨٠).

أما مَن يدعي لغير الله من البشر صفة العلم المطلق وامتلاك الحقيقة المطلقة، فعليه أن يراجع موقفه على شروط التوحيد الخالص لله، الله الذي ليس كمثله شيء ولا يشاركه في علمه المطلق أحد، هو وحده الحق المطلق، وهو وحده ذو العلم اللامتناهي، وهو وحده صاحب الكلمات المطلقة بلا نهاية، (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: ١٠٩- ١١٠). وهنا كأن المقطع الأخير في الآية الكريمة ينبه على عدم إشراك أحد مع الله تعالى فيما يختص به سبحانه، والملفت أن هذا التنبيه جاء في سياق الحديث عن كلمات الله التي لا تنفد. فكيف يأتي بشر ويزعم أن كلماته البشرية مطلقة أو أن علمه مطلق؟! وكيف يدعي أن آراءه وأحكامه مطلقة؟! فهل عنده علم الله الكامل؟! وكيف يتكلم هذا البشر وكأنه يصيب دوما ولا يخطئ؟! وكيف يزعم أنه يتحدث باسم الحقيقة المطلقة التي لا يملكها إلا الواحد الأحد؟! والأغرب من ذلك أن بعض الحريصين على التوحيد الخالص لله تعالى لا يدرون أنهم يقعون في مشاكل حقيقية عندما يتصورون أن بشرا يتبعونه لا يخطئ؟! ألا يعلمون أن (الزعم بأن بشرا لا يخطئ) هو إشراك في عبادة الواحد الأحد؟! إن وحي الواحد الأحد جاء لكل العصور، وله معان لا تنفد، لكن متون البشر مقيدة بظروف عصرها ومقيدة بعلم من وضعها، ولا يمكن لأحد عاقل أن يزعم إن علم أي بشر علم مطلق. ومَن يزعم ذلك فقد أعطى للبشر ما يجب قصره على الله تعالى وحده.

لكن ليس معنى هذا إنكار جهود العلماء في أي عصر، بل معناه وضعها في حدود التقويم البشري، ومن ثم إخضاعها للفحص العلمي باستمرار، حتى تتقدم العلوم كلها، سواء كانت علوما اجتماعية أو إنسانية أو طبيعية أو رياضية، مع التأكيد على أن علوم الدين هي علوم إنسانية؛ لأن مَن وضعها وصنف فيها بشر، وعلوم الدين ليست هي الدين نفسه (الوحي)؛ والوحي ليس تراثا، فالوحي إلهي، والوحي مصدره العلم المطلق اللامتناهي لله، بينما العلوم بشرية نسبية متغيرة، مصدرها عقل بشري محدود مهما بلغ علمه، على الأقل بدليل اختلاف علماء الدين أنفسهم، والاختلاف يدل على النسبية ويدل على التغير ويدل على أن أحدا منهم لا يملك الحقيقة المطلقة. والأعلام من العلماء القدماء أنفسهم، مثل الحسن البصري ومالك والليث بن سعد وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل وغيرهم، لم يزعم أحد منهم امتلاك الحقيقة المطلقة لأنه يعلم أنها فقط عند من يملك العلم المطلق. فكيف يأتي بشر في عصرنا، أو في أي عصر، ويزعم امتلاك العلم المطلق؟؟ هل يساوي كلامه بالوحي؟! وكيف تأتي جماعة من الجماعات وتزعم أن العالِم الذي تتبعه لا يخطئ في أحكام الدين؟! هل تساويه بالرسول عليه الصلاة والسلام؟!

أقول مجددا، هناك فرق بين الدين المقدس نفسه (الوحي) من ناحية، وعلوم الدين التي أنشأها بشر من ناحية أخرى. هناك فرق بين المتن الإلهي والمتون البشرية. الإلهي فقط هو المقدس، والبشري قابل للصواب والخطأ وقابل للمراجعة والتجديد والتطوير. إنها بديهيات، لكن ماذا تفعل إذا كنت تعيش في عصر يغيب فيه البدهي ويغيب فيه الواضح بذاته، وتضطر لتوضيح الواضح؟!

والقول الفصل الذي ليس بعده قول في الحكم على المتون البشرية: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢). إذن لا قداسة لأي متن بشري. قُضي الأمر بالنص الإلهي المحكم).

المتن المقدس والمتون البشرية (٦)

٢١ يونيو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«نقول مجددا إن القول الفصل الذي ليس بعده قول في الحكم على المتون البشرية، هو قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢). هذا حكم الوحي، وهذا حكم العقل الصريح، فلا يوجد عمل بشري يمكن أن يستوفي شروط الكمال التام ولا شروط العلم المطلق.

ويثبت التاريخ الإنساني وتاريخ العلوم أن أي متن بشري به اختلاف كثير، وهو عرضة للتفاوت بين الجودة والنقص، والتأرجح بين الصواب والخطأ، ويشتمل على الإيجابي والسلبي، وبه القوي وبه الضعيف، وبه اتساق واتزان واضطراب وتضاد وتعارض بدرجة أو أخرى، وقابل للمراجعة والتحسين دوما، مهما سعى مؤلفه، ومهما اجتهد في مراتب العلم، (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (يُوسُفَ: ٧٦). إن علم الله لامتناهي وغير محدود ومطلق، أما علم البشر فمتناه ومحدود ونسبي. ومن الحمق أن يدعي بشر العلم المطلق الذي يختص به الله تعالى وحده لا شريك الله، (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ. وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: ٥٨- ٥٩).

إذن قُضي الأمر بالوحي الإلهي المحكم، أنه لا علم مطلق لبشر، ولا قداسة لأي متن بشري، ولا صحة مطلقة له. ومن هنا فإن المتون التراثية والمعاصرة، يجب أن تكون محلا للفحص النقدي العقلاني، وهي قابلة للتطور والتطوير شأنها شأن أي عمل بشري.

والعلوم في حالة تطور منذ بداية البشرية وحتى الآن، فلماذا يريد البعض تجميد بعض العلوم عند مرحلة سابقة ويخرجها من سياق التطور العام لارتقاء العلوم البشرية عبر التاريخ؟ إنها المصالح الشخصية، ومصالح الطبقة الكهنوتية منذ فجر التاريخ وحتى الآن.

إن العلماء الأصلاء يعلمون أن العالم الحقيقي نفسه عندما يؤلف كتابا، فإنه يعيد النظر فيه بمرور الوقت، ويحسِّن ويعدّل على نفسه. وكثير من العلماء لو أُعيدت أمامهم الفرصة لأضافوا وحذفوا وطوروا مما كتبوه مرة بعد الأخرى؛ لأنهم يعلمون أن أي عمل بشري لا يمكن أن يصل إلى الكمال؛ فالكمال والصحة المطلقة للمتن الإلهي: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢). وقديماً كتب العماد الأصبهاني، أو -حسب رواية أخرى وهي الأرجح- كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني، معتذرا عن كلام استدركه عليه، قائلا: «إنه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا، وها أنا أخبرك به، وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر، فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها، وأؤمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوها...»(محمد صديق خان، أبجد العلوم ص: ٥٢)

وهكذا فإن أغلب واضعي التراث نفسه لا يقدسون أنفسهم ولا ما يكتبونه، ومتون كثير من علمائه وكتابه تنطوي على هذا الوعي العلمي والمنهجي، لكن جاء أقوام في بعض العصور وفي عصرنا، من ذوي العقول المغلقة والعلم المحدود، لا يدركون عمق التراث، وأخذوا يتعاملون معه بنعرة قبلية زاعمين كماله ومطلقيته، مثل أتباع كثير من المذاهب الذين يقدسون أئمتها، مع أن هؤلاء الأئمة أنفسهم لم يدعوا لأنفسهم العصمة ولم يدعوا لأنفسهم الصواب المطلق، ولم يدعوا امتلاك الحقيقة المطلقة. لكن ماذا تقول في صغار الاتباع؟!

حتى الإمام مسلم صاحب الصحيح له منهجه العلمي المختلف عن أستاذه الإمام البخاري في معايير رواية الحديث ومنهجية إدراجها في كتابه (صحيح مسلم)، قال ابن حجر العسقلاني :»حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحدٍ مثله، بحيث أن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن إسماعيل البخاري؛ وذلك لما اختص به من جمع الطرق، وجودة السياق، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى، وقد نسج على منواله خلق عن النيسابوريين فلم يبلغوا شأوه وحفظت منهم أكثر من عشرين إماما ممن صنف المستخرج على مسلم فسبحان المعطي الوهّاب»(تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٠، ص١٢٧).

وغني عن البيان، أن علوم رواية الحديث نفسها خضعت للتطور، واختلف العلماء في معاييرهم ومنهاجهم سواء في كتب الصحاح أو السنن أو المسانيد، وامتازوا بالتواضع وبذل الجهد والتحري، ولم يدع أحد منهم القداسة أو أنه يملك الصواب المطلق. ولم يزعم أحد منهم أن كتابا من الكتب يملك الصحة مثل القرآن الكريم، فأي متن بشري به الصواب وبه الخطأ. ولذا أتعجب من الذين يرفضون التجديد!

إن كل متن بشري قابل للمراجعة والفحص، والعالم الحقيقي هو الذي يدرك هذا، لا أن يدعي أن كلامه غير قابل للمراجعة، حتى في علوم الدين المتماسة مع الحديث النبوي الشريف تصحيحا وجمعا وتخريجا ورواية، وعلى سبيل المثال فإن الإمام مسلم قام بمراجعة صحيحه وتنقيحه أكثر من مرة، وجعله عرضة للفحص من علماء عصره، ومنهم الإمام أبو زرعة الرازي أحد كبار علماء الحديث وعلم الجرح والتعديل، قال مسلم نفسه: «عرضت كتابي هذا على أبي زرعة الرازي، فكل ما أشار أن له علة تركته، وكل ما قال إنه صحيح وليس له علة خرّجته». وكثير من علماء الحديث على وعي علمي واضح بذلك، وكتبوا وصرحوا به دون مواربة ودون تعصب للتراث كله ككتلة واحدة دون تمييز، حتى على مستوى علم الحديث نفسه، فهم يعلمون أن مناهجهم بشرية في جمع الحديث النبوي الشريف، قال الألباني :» وليس معنى ذلك أن كل حرف أو لفظة أو كلمة في «الصحيحين» هو بمنزلة ما في «القرآن» لا يمكن أن يكون فيه وهم أو خطأ في شيء من ذلك من بعض الرواة، كلا فلسنا نعتقد العصمة لكتاب بعد كتاب الله تعالى أصلا، فقد قال الإمام الشافعي وغيره: «أبى الله أن يتم إلا كتابه»، ولا يمكن أن يدعي ذلك أحد من أهل العلم ممن درسوا الكتابين دراسة تفهم وتدبر مع نبذ التعصب، وفي حدود القواعد العلمية الحديثة» (شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، طبعة دار السلام للطباعة والنشر: ج١ ص٢٣).

إذن فلا صحة مطلقة لأي متن بشري، وكل بشر يؤخذ منه ويُرد عليه إلا ما جاء وحيا ثابتا متواترا، ولا يوجد متن مطلق إلا المتن المقدس. وهنا يسقط التعصب، وهنا تتهافت المرجعيات البشرية التي تزعم امتلاك العلم المطلق».

المتن المقدس والمتون البشرية (٧)

٢٧ يونيو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«يجب تأسيس علاقة جديد نقدية تفاعلية مع المتون البشرية، تقوم على الديالكتيك بين التراث والواقع المعاصر والمنهجيات العلمية الجديدة في حدود العقل النقدي، وإعادة فهم المتن المقدس في نقائه الأصلي بعيدا عما علق به من إسقاطات بشرية مقيدة بظروف عصرها، من خلال تطوير علوم الدين بوصفها علوما بشرية يجري عليها ما يجري على البشر من تطور.

وهذه ليست قطيعة معرفية تامة مع المتون البشرية التي تشكلت في التراث ولاتزال عاملة في الواقع سلبا وإيجابا، فالقطيعة المعرفية التامة هي الوجه الآخر لعملية التكفير التي تقوم بها الجماعات المتطرفة، إنها القفاز نفسه ولكنه مقلوب!

ولابد من خلع هذا القفاز كلية وتجاوز التراث الذي قام على هذه العملية في التفكير والتكفير، ندعو إلى تجاوز الماضي، لكنه ليس التجاوز بالمعنى المتداول المعروف في الثقافة السائدة الذي يعني الخصام والترك والهجر والإلغاء والحذف للتراث كله دفعة واحدة، بل معناه القطيعة الابستمولوجية مع طرق التفكير التقليدية المسيطرة عليه، ونبذ العناصر الهدامة فيه، وترك معارك الفتنة، وإلغاء العناصر الأسطورية والخرافية والرجعية، وحذف كل مرجعيات التطرف والتعصب والجمود، ومحو كل فكر بشري يزعم القداسة...إلخ.

وهنا يعني (التجاوز) القطيعة الابستمولوجية مع كل العناصر الصراعية والهدامة القديمة والجديدة، وفتح طريق ثالث لمُركب جديد بالمعنى العلمي لمصطلح (التجاوز)، وليس بالمعنى الذي يفهمه العامة خطأ. والملفت أن بعض العلماء يفهمون مصطلح (التجاوز) بالمعنى المتداول، وليس بالمعنى العلمي والاصطلاحي، ولا بالمعاني الأخرى الإيجابية في اللغة. فالتجاوز له معان بالغة التنوع في اللغة وفي الاستخدام، منها ما نقصد إليه علميا، ومنها ما لا نعنيه مطلقا، والمعنى المقصود دوما يتحدد بالسياق. ودوما سياقاتنا في الكتابة تعني جانبا كبيرا من معاني الكلمة سواء في معاجم اللغة أو معاجم العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن هذه المعاني اللغوية: (تجاوَزَ الموضعَ)، جازه، أي سار فيه وقطعه، وسلكه حتى وصل إلى ما بعده. ويمكن أن يدرك هذا المعنى من اطلع على تحقيق كاتب هذه السطور لأكثر من أربع وعشرين كتابا من كتب التراث منشورة في حقبة الثمانينيات من القرن الماضي، فالتراث مكون من إنتاجه العلمي، لكنه ليس الحاكم لتفكيره على نحو مغلق، وتحقيقه للتراث لم يأت تسليما مطلقا، كما لم يأت هدما مطلقا، بل جاء نقدا يميز بين الإيجابي والسلبي بمعيار الوحي في نقائه الأصلي وبمعيار العقل العلمي الصريح، وفي ضوء تعدد وتنوع مراكز ومرجعيات الفكر.

وهذا المعنى يمكن أن يجرنا إلى معنى آخر في اللغة، وهو الموجود في عبارات تأتي في المعاجم اللغوية، وهي (تجاوز الأربعين)، أي أتمّها وزاد عليها، و(تجاوز السَّيارة التي أمامه)، أي تقدّم عليها، و(تجاوز العقبات)، أي تغلّب عليها، و(تَجَاوُزُ عَتَبَةِ البَيْتِ)، أي تَخَطِّيهَا. ومن يتخطى شيئا لابد أن يكون قد مر به.

وكل هذه المعاني إيجابية، وليست هي المعاني الوحيدة الإيجابية؛ لأن السياقات دوما تفتح المجال للمجاز والمعاني المتجددة، وهذا ما سوف نوضحه عند التوقف لاحقا عند المعنى الاصطلاحي الذي نستخدمه لمصطلح (تجاوز التراث) بمعنى خاص للكلمة. وفي كل الأحوال ليس من المعاني المقصودة: الهجر والترك والنبذ إذا كنا نقصد التراث كله؛ فالتراث به الإيجابي وبه السلبي، وبه الحي وبه الميت، وبه البنّاء والهدّام، ولا يصح التعامل مع التراث ككتلة واحدة سواء بقبوله كله دون تمحيص أو بهجره كله دون تمييز، فالتعامل مع الظواهر بمنطق أرسطو (إما أبيض أو أسود ولا ثالث بينهما)، هو تعامل خاطئ مع الواقع الحي المتغير ومع الطبيعة المتعينة والمتغيرة، وهو منطق طفولي قاصر، يجب تجاوزه إلى منطق أكثر شمولا وأكثر قدرة على التمييز، منطق يسير في الطريق الثالث الأكثر قدرة على النظر من زوايا متعددة، منطق التنوع وتعددية الصواب، وإن شئت المنطق متعدد القيم؛ حيث نتجاوز التفكير التقليدي الذي يحصر الاختيار بين طرفين لا ثالث لهما حسب قانون أرسطو في مبدأ الثالث المرفوع middle Excluded ، الذي يجزم بأن أية قضية (ق ق)، بمعنى أن أية قضية (إما أن تكون صادقة أو كاذبة ولا ثالث بينهما)، والذي سيطر طويلا على طرق التفكير بما فيها طرق تفكيرنا القديمة والمعاصرة التي سببت الفتنة ولا تزال.

وبخلاف أرسطو، وبخلاف المنطق الذي حكم طرق تفكيرنا قديما وحتى الآن، فلا يزال هناك طريق ثالث أو قيمة ثالثة أو قيم متعددة. ومن هنا ليس فقط مطلوب منا أن نتجاوز طريقة التفكير التقليدية التي سيطرت ولا تزال، بل المطلوب أيضا أن نغير منهجنا في التعامل مع التراث، ولا نقول مثل الأخوة الأعداء: (إما أن يكون التراث كله صوابا، أو التراث كله خطأ، ولا ثالث بينهما)، بل يجب أن نستخدم طرق الفحص النقدي في التراث ومتونه البشرية لتمييز الإيجابي من السلبي، ومن ثَّم نتجاوز التفكير التقليدي ونتجاوز معارك الفتنة إلى طريق ثالث جديد.

وفي نطاق التحليل اللغوي لمعنى كلمة (تجاوز)، يمكن القول أيضا أن معناها الوارد في السياق القانوني الحرفي، من المعاني غير المقصودة في منهجنا في التعامل مع التراث، حيث تشير المعاجم اللغوية إلى أن (تجاوز القانون) معناه: خالفه، خرج عليه بالمعنى السلبي. وليس هذا معنى مقصودا أيضا في سياق منهجنا مع التراث. وتجاوز القانون سلبي بهذا المعنى الحرفي، لكن ثمة معنى إيجابي يلجأ إليه بعض القضاة المنفتحين في ظروف معينة، عندما تدعو العدالة بمفهومها الشامل إلى تجاوز (المعنى الحرفي) للقانون إلى (روح القانون) وتجاوز (الحرف) إلى (مقاصد المشرع). وهذا معنى مقبول تماما، بل مطلب ضروري لتحقيق العدالة، وهذا أحد المعاني التي يمكن توظيفها في منهجية التعامل مع التراث والمتون البشرية بتجاوز (المعاني الحرفية الجزئية) فيها إلى (مقاصد الشرع الكلية) التي حددها الوحي في نقائه الأصلي. فهو (تجاوز) للمتون البشرية نحو المتن المقدس، وهو أيضا (تجاوز) لها نحو المصالح المتجددة وما ينفع الناس في الأرض وفق ظروف العصر ومتغيراته، وهو (تجاوز) لها نحو تطوير العلوم وارتقائها دون التجمد، وهو (تجاوز) للتقليد نحو الاجتهاد.

ومن المعاني اللغوية أيضا: (إِغْضَاءُ الطَّرْفِ)، بالمعنى الموجود مثلا في (التَّجَاوُزُ عَنِ السَّيِّئَاتِ): أي إِغْضَاءُ الطَّرْفِ عَنْهَا. وهنا يكون معنى (التجاوز) في منهجنا مع التراث، هو إغضاء الطرف عن العناصر السلبية منه ومحوها وحذفها ورفعها تماما من حاضرنا وطرق تفكيرنا. وأيضا ليس المقصود الإفراط، وهو من معاني هذه الكلمة كما يقال: (تَجَاوُزُ الحُدُود): أي الإِفْرَاطُ. وتجاوَزَ في الشيء: أفرط. وليس كذلك المعنى في عبارة (تجاوز الضّوءَ الأحمرَ): أي مرّ دون التوقّف عنده.

إذن فإن (تجاوز التراث) حسب جانب من معاني اللغة، يعني: جازه، أي سار فيه وقطعه، وسلكه حتى وصل إلى ما بعده. وتجاوز التراث يعني أيضا المعنى الموجود في التطور الزمني للعمر: أي أتمّه وزاد عليه. وأيضا المعنى الذي يقصد إلى التَّخَطِّي، ومن يتخطى شيئا لابد أن يكون قد مر به. فهذا ليس هجرا ولا تركا لكل شيء دون تمييز، بل هجرا وتركا للعناصر السلبية والهدامة والرجعية، وقطيعة ابستمولوجية مع طرق التفكير المغلقة والتعصب والتطرف، وإغضاء للطرف عنها، وإزاحة لها ، وقطيعة مع المنطق ثنائي القيم نحو المنطق متعدد القيم. إنه تجاوز للحرف نحو مقاصد المتن المقدس الكلية، وتجاوز بالمعنى النقدي الذي لا يقف عند المتون البشرية زاعما قدسيتها، وتجاوز للمعارك والفتن ونصوص التطرف. إنه تجاوز للمتون البشرية، يمر بها، ويأخذ الإيجابي منها، ولكنه يسير إلى ما بعدها صانعا متنا بشريا جديدا قابلا بدوره للنقد.

وإذا كانت كل تلك المعاني إيجابية، فلابد أن نذكر أن الأغلب في ثقافتنا هو توجيه الفهم فقط إلى المعاني السلبية للكلمة. وهي المعاني التي يجب أن نتجاوزها أيضا إلى المعاني المفتوحة والمتجددة، ومن هنا مطلب تجديد اللغة؛ لأن تجميدنا لها أحد أهم أسباب سوء فهمنا لبعضنا البعض، وهو أحد أسباب جمود تفكيرنا، ولا يمكن لتفكيرنا أن يتطور بدون تطور اللغة».

المتن المقدس والمتون البشرية (٨)

٥ يوليو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا مفر من تجاوز الماضي إلى الحاضر، ومن ثَّم إلى المستقبل. وتجاوز الماضي لا يعني التنكر التام، بل يعني السير قدما إلى الأمام. إن آباءنا لا يريدون منا أن نجلس باكين متفاخرين على شواهد قبورهم، بل يريدون منا صنع مجد جديد. لا يريدون منا أن ننفق من ميراثهم حتى ينفد، بل يريدون منا أن نصنع ميراثا جديدا. ولا تقل لي أن ميراث آبائنا لا ينفد، فإن الذي لا ينفد هو علم الله وكلماته وخلقه المستمر ووحيه المقدس.

إن المركب الكيميائي الجديد في الطبيعة يتجاوز العناصر القديمة لكنه يتضمنها في جوفه وقد تفاعلت مع عناصر أخرى، وعلى الرغم من بقاء العناصر القديمة، فإنها لم تعد كما كانت. إن المركب الكيميائي الجديد مهيمن على عناصره القديمة والجديدة المكون منها، لكنه أصبح له خصائص ووظيفة وفاعلية مختلفة عن عناصره، مثل الماء المكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين (H^2O). إذن فإن الماء كمركب يتجاوز العناصر المكون منها لكنه لا يلغيها.

ولذا من الخطأ فهم مصطلح (تجاوز التراث) على أنه هدم مطلق، بل هو انتقال إلى مركب أعلى وإلى مرحلة جديدة. وهذا هو أحد أسرار التفاعلات الكيميائية في الطبيعة وفي المعامل، وهو أحد أسرار تقدم العلوم والحضارات. وهو سمة المتون المقدسة عبر التاريخ، فإنها تتجاوز المتون قبلها لكنها لا تلغيها تماما، إنها نفي وإثبات، وهذا هو معنى الهيمنة الوارد في القرآن الكريم، (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) المائدة: ٤٨. وهذا هو المعنى الاصطلاحي الجديد للعملية الرئيسية التي يقوم عليها الطريق الثالث بوصفه وسطية ذهبية جديدة بين فرقاء العصر. إن الوسط الذهبي متغير بتغير العصور، ومتغير بتغير الأطراف المتناقضة. واليوم صار لدينا فرقاء لا يزالون ينفون بعضهم البعض، ولا يزالون يكفرون بعضهم البعض حتى وإن اختلفت الألفاظ التي يستخدمها كل تيار في وصم التيارات الأخرى، وكأن كل منهم يملك الحقيقة المطلقة والصواب الواحد. والذين يلجؤون إلى الوسطيات البشرية القديمة لن ينجحوا؛ لأن تلك الوسطيات كانت وسطا بشريا بين نقائض بشرية قديمة، ولا تصلح أن تكون وسطا بين النقائض الجديدة. وهذا هو سر فشل مَن يلجأ إلى متون بشرية قديمة لكي يجد فيها الحل؛ لأنها ببساطة ربما تكون نجحت في الإجابة على إشكاليات وتحديات عصرها، لكنها – ولا تُلام على ذلك- لن تنجح في الإجابة على الإشكاليات الجديدة التي نشأت بتغير الزمان وتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية.

وينصرف كلامي هذا كله إلى المتون البشرية وحدها ولا علاقة له بالمتن المقدس. إن المسلمين خير أمة للناس عندما ينجحون في أن يكونوا وسطا بين الناس وشهداء عليهم وعلى عصرهم، أما عندما يكونون في الهوامش والأطراف فليس من حقهم هذه الخيرية، فنحن لسنا أبناء الله وأحباؤه قدرا مقدورا، بل نحن بشر نصيب ونخطئ، وعندما نصيب في إدراك الوسط الذهبي والعمل به تقدما وعلما وإنسانية وعدالة، ونكون حكما بين الناس وشهداء عليهم، هنا فقط نستحق هذه الخيرية. إن الخيرية مشروطة بالعودة إلى إعمال المتن المقدس في نقائه الأول ومقاصده الكلية في تحقيق الرحمة للعالمين، والإنصاف، والعقلانية، والتقدم.

والوصول إلى الوسط الذهبي لعصرنا لن يحدث بدون تجاوز الوسطيات البشرية القديمة التي صلحت لعصرها لكنها لن تصلح لعصرنا، فلا يوجد متن بشري يصلح لكل العصور. ولذا يجب فحص المتون البشرية القديمة وتجاوزها نحو صنع متون بشرية جديدة تجيب على إشكاليات العصر.

إذن فما المقصود طبقا للمعنى الاصطلاحي الذي نقصده لمفهوم (تجاوز التراث)؟ يمكن أن يوضح هذا تحليلنا لكلمتين في الألمانية والعربية، وهما كلمة (Aufhebung) في الألمانية، وكلمة (نسخ) في العربية.

إن الكلمة الألمانية (الرفع Aufhebung) مصطلح من أهم المصطلحات في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتشير إلى معنى (النفي والإثبات) في وقت واحد، والملفت أن كلمة نسخ في اللغة العربية تحمل معنيين مختلفين، تعني مرة النسخ بمعنى النفي والإلغاء، وتعني مرة أخرى النسخ بمعنى الإثبات والنقل والإبقاء. ومصطلح (التجاوز) هو بالمعنى نفسه الجامع بين الضدين في الكلمة الألمانية والكلمة العربية؛ إنه تجاوز للقديم من أجل الارتقاء به نحو مركب جديد يزيل ويبني معا، ويلغي ويحتفظ في وقت واحد.

وهذه الوظيفة المزدوجة تميز عملية النجاح في تجاوز أي صراع؛ فهي تلغي الاختلاف والتناقض السابقين وتحتفظ بهما في وقت واحد لكن في شكل جديد. وهذا يحدث في تطور الإنسان، فهو عندما يغادر مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا ثم إلى مرحلة الشباب، فإن كل مرحلة جديدة تجاوز القديمة لكنها لا تنفيها تماما؛ فالطفل الذي تجاوزناه إلى مراحل جديدة يبقى بداخلنا حتى الشيخوخة، لكنه تتفاعل فيه العناصر الجديدة مع القديمة، وعندما تتراكم التفاعلات تراكما كميا وتصل إلى درجة التفاعل التام، يحدث التحول الكيفي إلى مرحلة جديدة.

إذن (التجاوز) نفي وإبقاء في الوقت نفسه، لكنه إبقاء من نوع جديد أكثر نضجا وتطورا. هو نفي للمرحلة السابقة، لأنك في الحالات الطبيعية المعتادة لا تظل تتصرف بالطريقة نفسها، ولا تحكم على الأمور بالطريقة نفسها، وتتغير رؤيتك للعالم ومنهجية التعامل معه. وهو إثبات لأن عناصر التكوين في المرحلة الأولى تظل تلعب دورا لكن بطريقة جديدة، حيث تتفاعل العناصر القديمة مع العناصر الجديدة في مركب أعلى جديد، على نحو يشبه المركب الجديد في التفاعلات الكيميائية.

إننا لم نحل حتى الآن التناقضات الموجودة في التراث، ولا يزال الصراع بين عناصره وتياراته مستمرا حتى الآن، ولا تزال هذه الصراعات تسيطر على حياتنا المعاصرة، فروح الانقسام الداخلية لا تزال موجودة نتيجة ميراث الفرق العقائدية والسياسية المتناحرة قديما، ولا نزال نعيش عصر الفتنة الكبرى الحادثة في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما. وعلى جانب آخر هناك صراع بين القديم بتناقضاته والجديد بتناقضاته، والصراع لا يزال قائما بين الجميع؛ والحل هو الجمع بينهما في مركب جديد على طريقة التفاعلات الكيمائية أو طريقة المراحل في نمو الكائن الحي في علم الأحياء، وليس على طريقة هيجل؛ فمركب هيجل به ثغرات وقصور. وأيضا ليس على شاكلة المركب في المادية الديالكتيكية عند ماركس ولينين بكل فيها من نقاط ضعف، بل كما أؤكد دائما على شاكلة المركب في التفاعلات الكيميائية التي تجري في الطبيعة أو في المعمل.

إننا بحاجة إلى صنع لحظة جديدة تؤلف وتركب synthesizes بين العناصر المتصارعة the conflicting elements. وهي تتجاوز Aufheben القديم، لكن هذا التجاوز لا يعني الإلغاء المطلق، بل هو تجاوز ينطوي على إلغاء واحتفاظ في الوقت نفسه، هو إلغاء لأنه ينفي العناصر السلبية من ناحية، وينفي التناقض بين العناصر النشطة من ناحية أخرى، وهو احتفاظ لأنه يحفظ العناصر نفسها بعد إعادة بنائها وإعادة توظيفها، وهو نفي وإثبات معا لأنه يؤلف بين العناصر ونقائضها في وحدة أعلى مركبة تتجاوز الصراع نحو طريق ثالث يقوم على روح جمعية جديدة. (راجع كتابنا: المعقول واللامعقول في الأديان، وكتابنا: تطور الأديان).

المتن المقدس والمتون البشرية (٩)

١٢ يوليو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

:»إن من الخطأ التوحيد بين حرفية المتون البشرية ونصوص الوحي المقدس، ومن الخطيئة الخلط بين الأشعري وابن تيمية وغيرهما وكلام الله تعالى، فهذا خلط واضح بين البشري والإلهي، وبين النسبي والمطلق. وهنا الخوف على نقاء عقديتنا في الواحد الأحد، (... أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (سورة الكهف: ٢٦).

إن الذي يعيش في المتون البشرية القديمة كليةً آملاً أن يجد المستقبل، مثله مثل قائد حافلة يقودها وهو ينظر إلى الخلف كل الوقت! إن قائد الحافلة لا يحتاج إلى النظر للخلف إلا بعض الوقت، لا كل الوقت، وإلا اصطدم بالواقع! والنتيجة توقف حافلته في حادث مريع، بينما بقية الحافلات تسير في وجهتها متقدمة إلى الأمام! هل علمتَ الآن أحد أسباب تخلفنا وتقدم الآخرين؟!

إننا لا يجب أن نعيش في المتون البشرية القديمة آملين أن نجد المستقبل، على الرغم من تعمقنا فيها وتعلمنا منها درسا وتحقيقا وتأليفا، بل نعيش في الواقع وننظر إلى الأمام معظم الوقت، ولا ننظر إلى الوراء إلا بعض الوقت حتى نأخذ العبرة ونتعلم من سنن الله في التاريخ. والمقصود هنا التراث البشري وليس المتن المقدس؛ لأن رسالة الوحي المقدس لكل العصور ويجب أن ننظر إليها دوما، عين على الواقع، وعين على الوحي، وعين على العلوم، وعين على المصالح المرسلة، وعين على الأمم الأخرى. فهذا ما أمرنا به المتن المقدس، أن ننظر معظم الوقت إلى الأمام، وألا ننظر للخلف إلا بعض الوقت للتعلم من سنن الأولين، (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) (يوسف: ١١١).

ولو كان أبو حنيفة قد قدس متون السابقين عليه لما كان أبا حنيفة، وما كان مذهبه الذي يسيطر على معظم قوانين الأحوال الشخصية في بلادنا وفي كثير من البلدان. ولو اتبع الشافعي متون السابقين عليه حرفيا، لما صنع الشافعي متنا بشريا جديدا، ولما كان الشافعي الفقيه والأصولي الذي نعرفه، وما كان مذهبه الذي لا يزال حيا. ومحمد عليه الصلاة والسلام لو كان قد قدس متون قريش، لما بُعث نبيا ورحمة للعالمين، وقل مثل ذلك في كل الأنبياء قبله.

ولو كان علماء الطبيعة أو الرياضة أو الطب أو الفلك مثلا زعموا القداسة للسابقين عليهم من العلماء، لما شهدت العلوم هذه الطفرات المتتالية، ولكنا وقفنا عند حدود ما وصل إليه أرسطو أو بطليموس أو أرشميدس أو جالينوس أو ابن الهيثم أو ابن حيان أو ابن النفيس أو غيرهم. إنهم عظماء بلا شك، وطوروا علوم عصرهم وعلوم السابقين عليهم، لكنهم لا يملكون الحقيقة المطلقة، وليست لهم قداسة تمنع اللاحقين من الوقوف مكتوفي الأيدي في عملية التطور واكتشاف قوانين الطبيعة وتطوير العلوم، ولا تمنع اللاحقين أيضا من اكتشاف المعاني المتجددة لكلمات الله المكتوبة التي لا تنفد، واكتشاف كلماته المخلوقة في الطبيعة التي لا تتوقف، (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (النحل : ٨)، فهو المبدع بإطلاق وباستمرار. وما ينطبق على علماء الطبيعة والرياضة والطب، ينطبق على علوم الدين، فهي أيضا علوم بشرية وضعها بشر وقابلة للتصحيح وقابلة للتطور وقابلة للتطوير، وقابلة للتجاوز إلى ما هو أدق دوما. وبالفعل تطورت علوم الدين داخليا لعدة قرون، ثم تجمدت بفعل العاجزين عن التطور والتطوير، أولئك الذين يتغنون بميراث آبائهم دون أن يضيفوا له شيئا جديدا.

وسبق التأكيد في كتابي « العقلانية والتعصب» على أن الأصل الأول لكل تعصب دوجماطيقي هو اليقين المطلق التي تتسم به بعض الأفكار البشرية اعتمادا على التسليم ببعض المتون البشرية دون الاستناد إلى براهين يقينية، ودون تمحيص أو تمهيد نقدي للأسس التي تقوم عليها، ودون أية قابلية للنقاش والحوار حول هذه الأفكار، ودون أية إمكانية لتغييرها أو تعديلها بناء على ما يستجد من أحوال أو يتبدل من متغيرات علمية ومعرفية!

ولذا فالتعصب الدوجماطيقي للمتون البشرية موقف جامد يعاند التطور والتجديد ومراعاة الظروف وتغير الأحوال، ولا يقبل النقاش ولا التغيير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية، فآراؤه مقدسة ومنزهة عن أي نقد!

ومن ناحية أخرى فإن من الخطل والمَنْطِقُ الفاسد الزعم بأن أي تعاليم بشرية هي مبادئ وقواعد يقينية مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، ومن ثم فإن على الإنسان أن يسعى لمعرفة الحقيقة بالبحث في الكون، وفي النفس، وفي الوحي المقدس، وفي المراجع العلمية، مستخدما مناهج البحث العلمي سواء في العلوم الطبيعية والرياضية أو العلوم الإنسانية والاجتماعية أو العلوم الدينية.

ومما يعارض طبيعة التفكير العلمي وسنن الواقع، زعم بعض الأصوليات الدينية أن أفكار الأشعري أو ابن تيمية أو غيرهما، مبادئ وقواعد مطلقة تصلح لكل زمان ومكان! فهذا رفع لمتونهم إلى مستوى الوحي الإلهي في شكله المكتمل في المتن المقدس (القرآن الكريم)، وأخشى أن يكون شركا. وقل مثل ذلك في الأصوليات غير الدينية مثل الأصولية الماركسية -مثلا- التي ترى أن تعاليم ماركس وإنجلز ولينين إنما هي تعاليم مطلقة تصلح لكل زمان ومكان!

وقد وقعت قديما الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في أوربا، في خطأ تاريخي، عندما عدت تعاليم أرسطو وبطليموس حقائق نهائية ومتطابقة مع تعاليم الكتاب المقدس، وأن علم أرسطو وبطليموس علم مطلق لا يجوز الخروج عليه. وكان هذا عقبة أمام تطور العلوم، لأن العلماء وجدوا أنفسهم أمام محاكم التفتيش بتهم الكفر لمجرد محاولة القول بحقائق علمية مخالفة لهما، مثل القول بأن الأرض كروية! فقد حاكموا جاليليو لقوله بكروية الأرض حسب نظرية كوبرنيكوس. وهذه القصة معروفة في شكلها الطريف والساخر من المتمسكين بمتون بشرية بوصفها متونا إلهية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ففي عام ١٦١٦م تم إحضار جاليليو إلى روما لمحاكمته، لكنه أفلت من العقوبة، وتم الاكتفاء بتوجيه أمر له بعدم القول بنظرية كوبرنيكوس. لكنه أصر بعد ذلك على السير في طريق البحث عن الحقيقة. ونشر براهين جديدة في عام ١٦٣٢م يؤكد فيها أن نظرية كوبرنيكوس هي الأصح من نظرية أرسطو وبطليموس، فتم التنبيه عليه مجددا بالتراجع، لكن في عام ١٦٣٣م تم اتهامه رسميا وإجباره على الإعلان عن رجوعه عن أفكاره، وحكموا عليه بالسجن المؤبد. ونظرا لأنه كان في سن الشيخوخة، فقد قرروا أن يقضي العقوبة في بيته رهن الاعتقال. وعلى الرغم من ذلك، وأيضا على الرغم من إصابته بالعمى وضعف صحته ومرضه، فقد استمر في البحث والتأليف مستخدما العلم الرياضي في إثبات نظرياته العلمية. وطبعا أثبتت الأيام الموقف الخاطئ للكنيسة الرومانية الكاثوليكية في توحيدها بين الكتاب المقدس وبعض المتون البشرية لأرسطو وبطليموس. وبعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف، جاء البابا المعروف عنه التسامح الحقيقي والعقلانية الإنسانية البابا يوحنا بولس الثاني Pope John Paul II ، وأعلن في عام ١٩٧٩م، أنه ربما تكون الكنيسة الكاثوليكية قد أخطأت وجانبت الصواب في إدانة جاليليو، ووجه بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق.

أرجو أن نتعلم!».

العقل المغلق والمتون البشرية

١٩ يوليو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«لا يمكن تأسيس خطاب ديني جديد، دون بيان خطورة العقل المغلق الذي يستعصي على أي تجديد حتى ولو كان التجديد بالعودة إلى المنابع الصافية للمتن المقدس (القرآن الكريم والسنة الصحيحة) في مقابل المتون البشرية. ولم يخطر في بالي يوما أن أحدا من المتدينين سوف يعارض العودة إلى الوحي المقدس في مقابل الاجتهادات البشرية المتغيرة بتغير العصور. ولم أتصور يوما أن أحدا سوف يرفع بعض المتون البشرية إلى منزلة النصوص التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ فقد اعتقدت دوما أن هذه سمة للوحي المقدس وحده، وتصورت أن هذا محور من محاور عقيدتي في توحيد الواحد الأحد، ذلك الواحد الأحد الذي يمتاز وحيه بأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا تفاوت ولا نقص، فكيف يزعم زاعم أن متنا بشريا يمتلك هذه الصفات التي يمتلكها الوحي؟!

ربما يكون أحد أهم أسباب ذلك، هو العقل المغلق المتمترس بالتعصب لفرقة من الفرق البشرية؛ حيث تجد أن هذا العقل المغلق مقفول على ما حفظه من متون هذه الفرقة بوصفها متونا مقدسة، ولا يستطيع أن يفهم أو يتفهم سواها بسبب وجود معوقات على حدود هذا العقل المغلق، بل وفي بنيته، تعوق تفكيره عن التوصل إلى رؤية الواضحات البينات. وقد سبق أن تناولت جانبا من هذه المعوقات في مقدمة دراستي وتحقيقي لكتاب الشوكاني (أدب الطلب ومنتهى الإرب) الصادر عام ١٩٨٥م عن مكتبة القرآن. ومن هذه المعوقات أمام العقل المغلق: النشوء في جماعة متمذهبة بمذهب معين، وتقليد المذهب دون تبصر، وحب الجاه والنفوذ والمال، والجدال والمراء وحب الانتصار والظهور، وحب القرابة والتعصب للآباء والأجداد، وعدم الرجوع إلى الحق الذي سبق أن قال بخلافه، وعدم رؤية الصواب لأن المتكلم به من غير أنصار المذهب، والاستناد إلى قواعد ظنية، وعدم الموضوعية في عرض حجج الخصوم، وتقليد المتعصبين من بعض القدماء، والمنافسة بين الأقران بلا تبصر، والاغترار بمجرد الاسم عن المسمى...)، أضف إلى ذلك أن التعصب قد يدفع المتعصب إلى الكذب في نقل كلام خصمه وتحريفه وإسناد أقوال إلى الخصم لم يقل بها!

ومنذ سنوات تم رسم بروفايل للعقل المغلق في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد)؛ فالعقل المغلق مثل الحجرة المظلمة التي لا نوافذ لها، ولا يدخلها النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئا سوى ما اعتاد عليه. وهي حجرة لا يدخلها هواء جديد، ومَنْ بداخلها لا يتنفس إلا هواء قديما، أما أكسجين الحياة المتجدد فلا يمكن أن يصل إليه! إن صاحب العقل المغلق أشبه بالطفل في رحم الأم، كل عالمه هو هذا الرحم، وهو غير متصل مع العالم الخارجي، ولا يمكن لأحد أن يحاوره، ولا يمكن أن يخرج من هذا العالم المغلق بإرادته، إنه يظن أن الخروج من هذا العالم مهلكة، وهو يصرخ بأعلى صوته ويتلوى ويرفس عند إخراجه قسرا!

ولذا لا يستطيع صاحب العقل المغلق أن يتجاوز ذاته أو عالمه الخاص، ومن المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، ولا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعدها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، بل يصل به الحد إلى الاعتقاد أن آراءه ذات طابع إلهي، وأن الله تعالى معه! بل إنه ممثل الله على الأرض. ويتصور أن الله ليس رب العالمين كلهم، بل ربه هو فقط.

وعندما يدخل في صراع مع أحد، فالبديل الوحيد عنده هو إعلان الحرب المقدسة؛ فهو وحده على طريق الحق والخير، وغيره كافر، أو عَلماني، أو ضال، أو شرير. وهكذا يتحول معه العالم إلى: أبيض وأسود، ملائكة وشياطين، دار السلام ودار الحرب. وهذه الحالة من الانغلاق العقلي التي يعيشها تجعله منفصلا تماما عن الواقع؛ أسير أوهام يعدها مقدسة ومنزهة!

وليس بوسع أحد أن يفرض على العقل المغلق الذى ينطلق من موقف عقائدي مغلق قواعد وقوانين من خارج مفاهيمه وحقائقه هو؛ لأنه هو الذى يحددها ويختارها ويلتزم بها بمقدار ما تخدم قضيته، وبما تتناسب مع الظروف التى يكافح فيها. ومن هنا فإن قاعدة الضرورات تبيح المحظورات مستخدمة عنده على أوسع نطاق لتحقيق مصالحه الخاصة وأهوائه، والضرورة عنده ليست هي الخط الفاصل بين الحياة والموت مثلما قال الفقهاء، بل هي الخط الفاصل بين مصالحه الشخصية والمبادئ الأخلاقية العامة، وعندما تتعارض مصالحه مع الدين أو مع الأخلاق أو مع المصالح العامة، يقوم على الفور بإعادة تفسيرها أو بالقفز عليها. ولا مانع عنده من تغيير موقفه السياسي، فالمهم أن يظل صاحب نفوذ.

لاحظ معي أن العقل المغلق ينتقل من الموقف لنقيضه تبعا لأوهامه التي تتخذ نقطة ارتكاز مخادعة، ونقطة الارتكاز ليست هي الدين أو الوطن أو المصالح العامة، إنها فقط أهواؤه ومصالحه الشخصية الموقتة. وهي نقطة مخادعة لأنه يوهم نفسه ويوهم الآخرين في كل مرة أنها نقطة ارتكاز الدين أو الوطن، بينما هي في الحقيقة نقطة ارتكاز مصالحه الشخصية!

وحتى لا أطيل على القارئ، ألخص له مجموعة السمات التي يتسم بها صاحب العقل المغلق من بعض كتبي، مثل (العقلانية والتعصب) و(نحو تأسيس عصر ديني جديد)، وهي: الاستئثار بالحقيقة، أي يزعم أنه وحده الذي يعرف الحقيقة المطلقة، وعدم الرغبة في فتح قنوات للحوار مع الآخر، وهو إذا اضطر لفتح الحوار لا يقدم أية تنازلات عندما تظهر له الحقيقة، كما أنه لا يدخل في عهد إلا إذا كان ضعيفا ومضطرا، وعندما يقوى يقوم بنقضه على الفور، والتقية هي سلاحه الذهبي في خداع الآخرين، ولا يبحث عن الأرضية المشتركة مع التيارات الأخرى، وينغلق على نظام قيم معين بصورة جامدة، وتحكمه ثقافة التسلط، حيث الرغبة في التحكم التام في الآخرين وفرض أفكاره ورغباته وطريقة حياته عليهم، علاوة على إصراره على نفى الآخر، أي يعد المخالفين له على الباطل المطلق أو كفرة!

ومن غير الخفي أن العقل المغلق ليس فقط طابعا يميز بعض التيارات الدينية الأصولية، بل هو طابع بعض الحركات الشيوعية والعلمانية أيضا التي تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة! ويظهر العقل المغلق كسمة أيضا وبوضوح في بعض المواقف الاستعمارية الغربية التي تتخذ موقفا معاديا من الحضارات الأخرى وتزعم أن نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق! ولذا فهي تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات، التي تنظر فيه إلى حضارتها كممثلة للمدنية أما الحضارات الأخرى فهي بدائية! وهنا فالقوى الاستعمارية لا تعمل إلا لتحقيق مصالحها الخاصة، بل تعمل على تدمير الآخر، مرة بالحرب المباشرة، ومرة باستراتيجية «فرق تسد»، ومرة بذرع بذور الفتنة الأهلية بين أبناء الوطن الواحد، وفي كل هذه الاستراتيجيات ترفع شعار الديمقراطية، والحوار، وحقوق الإنسان!

لقد كان الاستعمار حاضرا في كل مرة: حروب التتار، والحروب الصليبية على الشرق، وفلسطين الحديثة، وأفغانستان، وباكستان، والعراق، وتونس، واليمن، وليبيا، وسوريا، والوجهة هذه المرة هي مصر! وبالاستراتيجية نفسها المستخدمة في العقود الأخيرة «التحالف مع التيارات الدينية المتطرفة»! والتحالف مع الخونة الذين باعوا أوطانهم بحفنة دولارات تحت شعارات مزيفة! لكن مصر التي أوقفت الزحف التتاري القديم، قادرة أن توقف المستعمرين الجدد الذين يوظفون الخونة من بعض أصحاب العقول المغلقة كعرائس ماريونيت».

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (١)

٢٦ يوليو ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«أقامت رابطة العالم الإسلامي ومجلس الإمارات للإفتاء الشرعي مؤتمرا عالميا مهما تحت عنوان (فقه الطوارئ)، وتشرفت برئاسة جلسة تحت عنوان (مجال المعتقدات) التي تبحث في موقف الإنسان من الكوارث والأزمات وكيف يمكن تفسيرها في ضوء (مسألة الخير والشّر والصّلاح والأصلح)، ومعي كوكبة من العلماء والباحثين المحترمين من أنحاء العالم. وأتصور أن هذه مناسبة لفتح النقاش حول محور جديد من المحاور المهمة لتطوير علوم الدين، وهو ضرورة دراسة الصلة بين الفقه الأصغر (علم الفقه) وأصوله من جهة، والفقه الأكبر (علم أصول الدين) من جهة أخرى، ومحاولة تعميق العلاقة بين تلك العلوم الثلاثة (علم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم أصول الدين)؛ حيث من الخطأ الفهم التقليدي لها كعلوم منعزلة عن بعضها البعض. إن الصلة بين الشريعة والعقيدة صلة وثيقة، والجسور بين الفقه والمعتقدات بحاجة لدراسات أكاديمية مستفيضة؛ في إطار ضرورة التحول إلى التخصصات البينية بين العلوم طبقا لاستراتيجيات جامعات الجيل الثالث، خاصة وأن كثيرا من الأحكام الفقهية الخلافية، يرجع السبب الحقيقي فيها إلى التصورات الاعتقادية التي يحملها الفقيه في خلفيته المعرفية وفي رؤيته للعالم، وهي تؤثر على طريقته في استنباط الحكم الشرعي. وربما لا يكون الفقيه على وعي مباشر بهذا، بل لا تكاد تجد هذه الصلة واضحة في كتب كل علم على حدة، سواء علم الفقه أو علم أصول الدين. وذلك على الرغم من وضوحها في القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

إن النظر المتعمق في المرجعيات الابستمولوجية لهذه العلوم يكشف عن وجود تواز وتأثير متبادل. ومن هنا فإن أية محاولة لتطوير علم الفقه مرتبطة ارتباطا جذريا بتطوير علم أصول الفقه، وأيضا مرتبطة بتطوير علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام، وهذا العلم الأخير بحاجة لتجاوزه مجاوزة حقيقية من أجل إعادة ضبط المعتقدات بردها إلى حدود القرآن الكريم والسنة المتواترة بعيدا عما دخلها بعد اكتمال الدين الخالص وتوقف الوحي الإلهي. وأؤكد دوما على ضرورة تطوير علوم الدين وليس إحياء علوم الدين مجرد إحياء نقلي. فهذه سنة تاريخ العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية والاجتماعية، والدين إلهي المصدر لكن علوم الدين بشرية يجري عليها ما يجري على كافة العلوم، إن الدين قرآنا وسنة صحيحة (دين)، لكن علوم الدين إنما هي (علوم بشرية) قابلة للنقد وقابلة للتطور والتطوير. وهي ليست دينا، بل اجتهادات بشرية في فهم الدين. وكثير من الفقهاء والمفسرين القدماء كانوا على وعي بهذا، لكن المشكلة تكمن في المتأخرين وفي تيارات التطرف القديمة والمتأخرة والحديثة.

ربما تكون الصلة بين علم الفقه وبين علم أصول الفقه واضحة ولا تحتاج إلى حديث إضافي الآن، لكن الصلة القوية بين علم الفقه وعلم أصول الفقه من ناحية، وعلم أصول الدين من ناحية أخرى، غير بادية في كل علم على حدة، فلا يزال هذان المجالان جزيرتين منعزلتين عن بعضها البعض. وأتصور أن فتح النظر في هذه الصلة سوف يكشف عن ضرورة إصلاح كثير من معتقدات الفرق العقائدية المتاحرة بردها إلى المعتقدات المنضبطة من القرآن والسنة الصحيحة المتواترة. وسوف يترتب على إصلاح المعتقدات -بلا شك- تغيير طريقة تحديد الأحكام الشرعية. وسوف أضرب أمثلة للتوضيح من (فقه الطوارئ) تكشف عن تأثير المعتقدات في استنباط الأحكام الشرعية؛ حيث أثرت معتقدات البعض ممن يتبعون بعض الفرق على طريقة استخلاص الأحكام الشرعية، بل جعلت بصرهم لا يلتفت إلى أحكام الرسول الشرعية الواضحة والمباشرة في هذا الأمر! عليه الصلاة والسلام.

إن بعض البلدان التي تنتشر في بعض مؤسساتها الدينية العقيدة الأشعرية (المنكرة للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات)، تأخرت في تنفيذ حكم عدم جواز صلاة الجمعة والجماعة منعا للعدوى؛ ولم تغلق المساجد إلا بعد التعرض لنقد شديد من الرأي العام. والغريب أنها عندما فعلت هذا تحدثت عن (جواز) الإغلاق، ولم تتحدث عن (وجوب) الإغلاق حرصا على حياة الناس وسلامتهم من عدوى قد تكون مميتة.

لكن البلدان الأخرى التي تغيب منها مثل تلك المعتقدات الأشعرية (المنكرة للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات)، كانت مؤسساتها الدينية حاسمة في التبكير بالمنع وجوبا للحفاظ على أرواح الناس وسلامتهم؛ خاصة أنها تدرك قيام التشريع على التعليل والغائية والمقاصد. ومن أهم مقاصد التشريع الحفاظ على الحياة، والسلامة من الأمراض، والوقاية من كل ما قد يضر بالإنسان مما هو مذكور تفصيلا في الكليات الخمس، وهِيَ حفظ: الحياة، والدِّينُ، وَالْعَقْلُ، وَالنَّسْلُ، وَالْمَالُ. ومن هنا كانت الشجاعة في غلق الكعبة المشرفة حفاظا على أرواح الناس عند ذروة تفشي كورونا المستجد. وهذا في لب المقصد الذي قام عليه الدين الخالص. وهذا يعكس أيضا الفهم الصحيح للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات.

إن الذين لم يتبينوا خطورة هذا، ورفضوا في البداية، وتأخروا، أو لم ينفذوا الإغلاق مبكرا على الرغم من وصول الجائحة إلى ذروتها، يمكن فهم موقفهم هذا في ضوء المعتقدات الأشعرية؛ لأنها تعتقد في عدم الارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات. إنهم حسب إنكارهم للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات في أصول فرقتهم الاعتقادية، لم يتصورا في البداية خطورة تجمع الناس في إحداث العدوى، وكأنهم كانوا يظنون أنه يمكن أن تصلي في جماعة ولا تتعرض للعدوى من حاملي الفيروس. بل ويمكن أيضا المزايدة على الدين الخالص والمحكم، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وجه إلى الصلاة في البيوت أو الرحال عند المطر والطين والزلق، فإنهم يزايدون في الأسباب الأقوى التي تتعلق بسلامة الناس وحياتهم والتي توجب منع صلاة الجمعة والجماعة في المساجد!

للأسف لا يزال يحكم عقليتهم في عصر العلم الطبيعي وقوانينه، إنكار العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات، بل ويعدون هذا الإنكار من أصول العقائد. وذهب المتأخرون من الأشاعرة إلى تكفير المخالف لهم في هذه المسألة. وهو أمر غريب من أوله إلى منتهاه، فمن الغريب أن يجعلوا تلك المسألة الخلافية من أصول العقائد، مع أنها ليست ركنا من أركان الإيمان التي ذكرها القرآن الكريم وبينتها السنة الصحيحة. ومن الغريب أيضا أن يندفعوا في تكفير المخالفين لهم فيها، مع أن آيات الوحي واضحة في إثبات العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات سواء في عالم الخلق أو عالم التشريع. .للحديث بقية».

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٢)

٢ أغسطس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

« تقوم العلوم الأساسية والهندسية، وعلوم الطب والحياة والأرض، وعلوم الرياضيات والحاسوب، على العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات. وبدون هذا لا يمكن أن تتحدث عن قوانين علمية ولا عن تقدم العلوم، وبدون هذا أيضا لن تستطيع الحديث عن كون محكم الصنعة يعمل وفق قوانين دقيقة وغايات حكيمة. وتقوم أيضا العقائد الكونية في علم أصول الدين المستند إلى الكتاب والسنة الصحيحة على السببية والتعليل والمقاصد والغائية. وبالمثل تقوم الأحكام الشرعية في الفقه اللصيق بالوحي على السببية والتعليل والمقاصد، وهناك حكمة وغاية من وراء الحكم الشرعي.

إن أي حكم شرعي له علته وسببه (السبب والعِلَّة مترادفان عند البعض ومختلفان عند البعض الآخر، ونحن نستخدمهما في هذا السياق بمعنى واحد). ومن الصريح الواضح -مثلا- أن علة الصيام حددها الوحي في قوله تعالى: (لعلكم تتقون)، وعلة تحريم الخمر الإسكار وكون ضرره أكبر من نفعه. وهكذا في باقي الأحكام.

أما منكرو العلية والسببية في علم أصول الدين، فهم لا يثبتون علة أو سببا مؤثرا لطبيعته وذاته في الكون ولا في العقائد ولا في الأحكام الشرعية، والمسألة كلها عندهم ترجع للإرادة الإلهية وحكمها. ومعتقد القائلين بإنكار السببية على مستوى الوجود، جعلهم يعدون السبب في الفقه وأصوله مجرد علامة فقط على الحكم، وأمارة لظهور ووجود الأحكام، ومجرد مناسبة أو ظرف مصاحب، أي أن الأسباب ليست مؤثرة لذاتها في وجود الأحكام التكليفية (أصول الفقه لأبي زهرة، ص ٥٤). ولا توجد عندهم علاقة ضرورية بين السبب والمسبب الذي هو الحكم، بل نفوا حقيقة وضرورية السببية والتعليل والحكمة والغائية لذاتها من الحكم... لكن المثبتين للسببية في الكون وفي علم أصول الدين، أثبتوها أيضا في الحكم الشرعي. ويتضح بهذا أن موقف الفقهاء والأصوليين من طبيعة السبب وحقيقته متأثر بمعتقداتهم السابقة في الموضوع. مع التأكيد على أن السلف الأوائل متفقون على إثبات الأسباب والحكم خلقا وأمرا.

ولمزيد من الإيضاح فإن السببية هي العلاقة القائمة بين السبب والنتيجة، ومبدأ السببية Principle of Causality هو المبدأ الذي يقرر أن لكل ظاهرة سببًا، وأن لا شيء يحدث من لا شيء، وكل ما يظهر للوجود فلوجوده علَّة، وأن الأسباب تتبعها النتائج المترتبة عليها. والسببية مبدأ من مبادئ الطبيعة والفكر. وهي مبدأ قرآني راسخ. ومن الآيات التي ربط الله فيها بين الحوادث على أساس السببية قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: ٦٠). وحين تتخلف أية علَّة عن إحداث معلولها المعتاد، فإن أغلب العلماء والفلاسفة لا ينسبون ذلك إلى عدم الانتظام في الطبيعة وإنما يفترضون أن بعض العلل في بنية خاصة من الأجزاء قد أعاقت العملية (Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, ed. Seiby – Bigge. Oxford: Claren-don Press. 1902, P. 58). فقوانين السببية التي تحكم الطبيعة لا تقبل استثناء، ولم يحدث شيء يدل على عكس ذلك؛ «إذن توجد بعض الأسباب منتظمة ومُطَّردة تمامًا في إحداث نتيجة خاصة، ولا يوجد أي مثال لتخلف أو عدم انتظام في وقوع عملياتها؛ فالنار دائمًا تحرق، والماء يخنق، والجاذبية قانون كليّ لم يقبل استثناء حتى الآن» (Ibid., PP. 57 –).

وإذا حللنا كل الاستدلالات الأخرى التي لها هذه الطبيعة، فإننا سوف نجد أنها تقوم على أساس علاقة العِلَّة والمعلول، وتلك العلاقة إما قريبة وإما بعيدة، مباشرة أو غير مباشرة، فالحرارة والضوء معلولان مصاحبان للنار، والواحدة منها تستنتج بالضبط من الأخرى» (Ibid., PP. 26–7). وهناك نوع من السببية يطلق عليه السببية القائمة على الذاكرة Mnemic causation، وهو مصطلح يستخدم في فلسفة العقل ونظرية المعرفة. (مشتق من الكلمة اليونانية menme التي تعني الذاكرة). استخدم «رسل» هذا المصطلح، الذي استوحاه من عالم النفس «ريتشارد سيمون»، للتعبير عن العلاقة بين حدث وقع في الماضي والتذكر اللاحق لهذا الحدث. استجابة الحيوان للحافز الحالي لا يتم تحديدها من خلال القيمة الحالية للمُثير فحسب بل أيضًا من خلال الذكريات memories المرتبطة بدرجات الإثابة والخيبة في الماضي فيما يخص هذا الحافز. هذه الاستجابة هي نوع من الأفعال التي تتم بصورة متفاوتة وتقوم الخبرة experience من خلالها بإصدار صور لاحقة في الذاكرة، لكن بعض الفلاسفة يحاولون إثبات أن هذه العلاقة ليس من الضروري أن تكون علاقة سببية. يقول «رسل»: «أحيانًا نكتشف، فيما يتعلق بالسببية القائمة على الذاكرة، أن صورة أو كلمة ما، بوصفها مُثيرًا، لها تأثير متشابه (أو نفس التأثير تقريبًا) مثل ذلك التأثير المرتبط بالشيء». (رسل، تحليل العقل Rus-sell, The Analysis of Mind).(انظر مادة السببية في كتابنا: معجم الأديان العالمية).

وإثبات العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات قال به السلف الأوائل وغيرهم كما قلنا سابقا، لكن للأشاعرة رأي آخر في ذلك! فهم ينكرون العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات في علم أصول الدين ويعدون السبب غير فاعل بنفسه، وأن المسبب حدث (عنده) وليس (به)، على عكس صريح القرآن الكريم. كما ينكرونها في الفقه وأصوله؛ فتعريف السبب في علم أصول الفقه حسب اللغة هو: «كل ما يتوصل به إلى مقصود ما»، وحسب الاصطلاح: « ما يلزم من وجوده الوجود، ويلزم من عدمه العدم لذاته « . وقال الغزالي: « وَاعْلَمْ أَنَّ اسْمَ السَّبَبِ مُشْتَرَكٌ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ، وَأَصْلُ اشْتِقَاقِهِ مِنَ الطَّرِيقِ وَمِنَ الْحَبْلِ الَّذِي بِهِ يُنْزَحُ الْمَاءُ مِنَ الْبِئْرِ. وَحَدُّهُ مَا يَحْصُلُ الشَّيْءُ عِنْدَهُ لَا بِهِ» (المستصفى، طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٩٣، ص: ٧٥). لاحظ أن الغزالي الأشعري يعد السبب هو ما يحصل الشيء (عنده) لا (به)، فهو ينكر أن السبب هو المنتج، ويعده مجرد مناسبة أو أمارة أو علامة مظهرة أو ظرف مصاحب. ويضيف الغزالي :» تَسْمِيَتُهُمُ الْمُوجِبَ سَبَبًا فَيَكُونُ السَّبَبُ بِمَعْنَى الْعِلَّةِ، وَهَذَا أَبْعَدُ الْوُجُوهِ عَنْ وَضْعِ اللِّسَانِ، فَإِنَّ السَّبَبَ فِي الْوَضْعِ عِبَارَةٌ عَمَّا يَحْصُلُ الْحُكْمُ عِنْدَهُ لَا بِهِ؛ وَلَكِنَّ هَذَا يَحْسُنُ فِي الْعِلَلِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا لَا تُوجِبُ الْحُكْمَ لِذَاتِهَا بَلْ بِإِيجَابِ اللَّهِ – تَعَالَى –، وَلِنَصْبِهِ هَذِهِ الْأَسْبَابَ عَلَامَاتٍ لِإِظْهَارِ الْحُكْمِ، فَالْعِلَلُ الشَّرْعِيَّةُ فِي مَعْنَى الْعَلَامَاتِ الْمُظْهِرَةِ فَشَابَهَتْ مَا يَحْصُلُ الْحُكْمُ عِنْدَهُ» (المستصفى، الموضع نفسه).

وعلى سبيل المثال في علم الفقه لا يعد الإسكار عند الأشاعرة علة تحريم الخمر وإنما هو علامة على الحكم ومجرد مناسبة لإظهاره. وبالتوازي في الطبيعة -في معتقدهم- أن الله تعالى لا يروي الزرع بالماء، والماء ليس سببا لنمو الزرع بل مجرد مناسبة، الله يفعل (عندها) لا (بها). وهكذا فإن نفي السببية في الطبيعة في علم أصول الدين عند الأشاعرة ومن وافقهم، يوازي نفي السببية عندهم في علم الفقه وعلم أصول الفقه. وللحديث بقية».

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٣)

٩ أغسطس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

يمكنك أن تشبع دون أن تأكل! فالشبع ممكن حدوثه بدون أكل عند منكري الرابطة الضرورية بين الأسباب والنتائج. والسؤال الذي يطرح نفسه أين نضع قوله تعالى :(وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلي واشربي وقري عينا) (مريم: ٢٥- ٢٦). فالله تعالى قادر طبعا على إسقاط الرطب الجني على مريم عليها السلام، لكنه سبحانه قد جعل لكل شيء سببا فأمرها (وهزي إليك بجذع النخلة)، والله طبعا قادر أن يشبع مريم بدون أكل، لكن سنته وقانونه الذي لا يتخلف أن الشبع يكون بسبب الأكل (فكلي واشربي وقري عينا).

ويمكنك أن تتصرف برعونة في كل شيء، فالنتيجة قد لا تترتب على السبب، سوق سيارتك برعونة وعدم انتباه، واكسر قواعد المرور والقيادة، وانزل البحر في الشواطئ التي بها دوامات وسحب، واعمل ما بدا لك، وغالط نفسك وارمي بها إلى التواكل، ولا تعتني بصحتك، ووظف عقيدتك مغالطا فكله بأمر الله، مع أن الله دعاك لاحترام قوانينه في الطبيعة وقوانينه في المرض والشفاء!

ومن الممكن أيضا أن تلقي بيدك إلى التهلكة ولا تهلك، طبقا لمعتقد القائلين بنفي العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات حسب المثل الذي ضربه الغزالي القديم رحمه الله، مع أن الله تعالى يقول: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة :١٩٥).

يتخيل منكرو الرابطة السببية الضرورية أنهم يثبتون قدرة الله في مقابل إضعاف الأسباب، ويتصورون أن الإيمان بعظمة الله لن يأتي إلا بإضعاف الرابطة الضرورية السببية، وكأن هناك مقارنة بين الله ومخلوقاته، ونسوا أن قوة الصنعة ليست إضعافا للصانع، بل دليل على قدرة أكبر له. ولَا يَنْفِي قدرة الله مطلقا وُجُود السَّبَب وكَوْنه سببا لِلْمُسَبَّب، فهكذا خلق الله الأسباب، وهكذا سبحانه خلق فاعليتها على إنتاج المسبب. ولا يقلل مطلقا إثبات طبيعتها الفاعلة من قدرة الله وكونه خالق كل شيء. لكن للأسف قد فهم منكرو الرابطة السببية الضرورية ومن سار معهم، أن فاعلية الأسباب تقلل في تصورهم من قدرته سبحانه وتجعل معه شريكا. وما هو بفهم مستقيم ذلك الفهم الذي يرى أن عظمة الصنعة وفاعليتها تقلل من عظمة الصانع! ونسوا أن عظمة الشريعة في قيامها على تحقيق المصالح، والمصالح مرتبطة بغايات ضرورية، كما نسوا أن الأحكام الشرعية معللة بوضوح في الوحي الإلهي والسنة الصحيحة.

يقول الغزالي ملخصا موقفه وموقف منكري الرابطة السببية الضرورية: «مسألة الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وما يُعتقد مسبباً ليس ضرورياً. الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار والنور وطلوع الشمس والموت وجز الرقبة والشفاء وشرب الدواء وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحيوة مع جز الرقبة، وهلم جرا إلى جميع المقترنات». (تهافت الفلاسفة، طبعة دار المعارف، ص: ٢٣٧).

وهكذا من المستقر في معتقد منكري الرابطة السببية الضرورية، أن جَز الرقبة لا يترتب عليه الموت بالضرورة! ووارد جدا عندهم أنك ممكن أن تنزل النهر ولا تبتل، ومن الممكن أن تغرق تماما ولا تموت. وقس على ذلك أنه من الممكن أن تتعرض لفيروس وجهازك المناعي ضعيف ولا تمرض. وكل شيء في الكون غير مرتبط بالآخر، ولا مترتب عليه، فكل شيئين ≠ حسب الغزالي- ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنًا لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر!

إن القول بعدم الارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات عود لعصور السحر والخرافة. أما نظرية الاحتمالات التي يتحجج البعض بها في العلوم، فهي احتمالية معرفية نتيجة عدم الإحاطة بقوانين الكون وعدم الإحاطة بكل العوامل المتحكمة في الظواهر، وليست لأن الكون يعمل دون نظام سببي محكم (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: ٣)، (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثم ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك :٣-٤).

إن قوانين الله وسننه التي لا تتبدل إنما هي جوانب من أمر الله تعالى في نصوص الوحي المبين، لكنك سوف تزايد على الإيمان وتكسر قوانين الطبيعة ولا تحترم قوانين العدوى! وسوف يشجعك على ذلك أحكام فقهية يطلقها البعض من ذوي التصورات العقيدية المنافية لنصوص الوحي الإلهي الصريح والمتعارضة مع السنة النبوية الصحيحة. والأغلب أنك لن تحتاج إلى هذه الفتاوى فثقافتك العقائدية والفقهية تكونت وتعمل وفقا لها دون أن تدري! وهذا هو كلمة السر في كل السلوكيات العامة العشوائية التي تجدها في قطاعات متعددة من المجتمع، والتي لا تزال تحركه ثقافة التخلف التي يغذيها المزايدون. وهؤلاء هم أنفسهم يجزمون بوجود التخلف العلمي، لكنهم لا يعملون من أجل القضاء عليه؛ فيكفيهم بعض الخطب والكلمات الرنانة للمزايدة على الدين حتى تصحوا النعرات القبلية التي لا تختلف كثيرا عن نعرات متعصبي كرة القدم!

لابد من إدراك أن الدين جاء من رب العالمين رحمة للعالمين في نص واضح الدلالة واضح المعنى، ومن هنا يجب أن تكون هذه الغاية حاكمة لعمل الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية، وعليهم أن يدركوا أن الدين جاء من أجل الناس ورحمة بهم، أما الذين يزايدون على الدين فيظنون أن الناس جاءت من أجل الدين، ويا ليته الدين الأصلي النقي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، بل إنه الدين كما يفهمونه هم، الدين الأصلي قائم على الرحمة بينما أفهامهم تقوم على التضييق والتشدد.

ونقول مجدد إن العلاقة بين الأسباب والنتائج في علم أصول الدين مرتبطة ارتباطا وثيقا بالموقف من السببية في علم الفقه وأصوله. وسوف يترتب على إصلاح المعتقدات بردها إلى الوحي الواضح المبين الذي يؤكد الروابط الضرورية في القوانين العلمية، إصلاح علم الفقه وأصوله؛ حيث سوف يترتب على ذلك ارتباط كل حكم بعلته ومقصده وحكمته وجودا وعدما. وهو الأمر الذي سوف يترتب عليه إصلاح الحياة العملية وقيامها على أخلاق التقدم».

في الصلة بين الفقه الأصغر والفقه الأكبر (٤)

١٦ أغسطس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

نحن نتحرك من قوانين الله في الطبيعة إلى قوانين الله في الطبيعة، نتحرك من قدر الله إلى قدر الله ، نتحرك من مستوى للقوانين إلى مستوى آخر، لكن لا خرق لقوانين الطبيعة. إن الله لا يعبث بصنعته. وهو سبحانه لا يتحدى أعماله بأعماله. وهو سبحانه أعلى وأجل من أن يتحدى مخلوقاته. والكون منظومة شاملة محكمة صنعها الحكيم وجعلها تسير في نظام غائي معلل وخاضع لمنهجية سببية ضرورية في الزمان والمكان.

لكن البعض يظن خطأ أن إثبات قدرة الله لا يكون إلا بالمقارنة مع مخلوقاته! وأنا أتصور أن وضع المقارنة غير جائز ولا يليق بمعتقدنا في الله القائم على التنزيه المطلق. وليس من الحكمة إثبات قدرة الله تعالى بإضعاف فاعلية الأسباب وكأنها طرف أمام الله سبحانه. وكما أوضحنا في مقالات سابقة فإن إضعاف الرابطة السببية في رؤية الطبيعة في علم أصول الدين التقليدي وجعلها مجرد مناسبة، الله يفعل (عندها) لا (بها)، أدى إلى إضعاف الرابطة السببية في تعليل الأحكام الشرعية في علم الفقه عند الطوائف المنكرة للعلاقة السببية الضرورية، والتي تعد العلة علامة على الحكم وليست سببا له؛ فالأسباب عندهم ليست مؤثرة لذاتها في وجود الأحكام التكليفية. وهو ما انعكس على الأحكام العملية في حياتنا التي أصبح فيها كل شيء جائزا وممكنا، فكانت الرعونة وكان التهاون وكان التواكل، فسبقتنا الأمم علما وقوة.

ولِمَ لا ؟ فليس من الضروري أن تترتب النتيجة على أسبابها!

تفضل مشكورا ارمي نفسك في النار فليس من الضروري أن تحترق؛ لأن النار عند منكري الرابطة السببية الضرورية قد لا تحرق. وهم يستدون إلى معجزة إبراهيم عليه السلام. وهي معجزة نؤمن بها بوصفها من الثوابت التي ذكرها الوحي، ووقوعها ليس مستغربا من صاحب العلم والقدرة المطلقة سبحانه.

إن المعجزة حدث معجز واستثنائي، ونحن ننظر إليها في هذا الإطار، لكن البعض يحولون المعجز والاستثنائي إلى قاعدة عامة في قوانين الطبيعة! وهم بهذا يقعون في مغالطة واضحة؛ فإذا كانت المعجزة استثنائية فكيف يحولونها إلى قاعدة عامة في طبيعة العلاقة السببية بين السبب والنتيجة على مستوى الطبيعة كلها؟! ثم انهم لا يعلمون كل الأسباب العاملة في تلك الواقعة بأمر الله وبقوانينه الأخرى، ولا يعلمون الشروط والظروف المحيطة بها. وهذا إعجاز بالنسبة لمعارفنا وعلومنا وخبرتنا الإنسانية، ولكنه ليس إعجازا أمام الله تعالى وعلمه وقدرته، فهناك أسباب وقوانين أخرى دقيقة بقدره المقدور تعمل في بنية خاصة قد أعاقت الحرق ونحن لا نعلمها حتى الآن.

وتوجد قوانين أعلى يمكنها أن تحول خاصية الحرق إلى برد وسلام، فالمسألة أيضا خاضعة لقوانين، وليست ضرب عشواء. فتجاوز بعض القوانين المعروفة لنا ليس خرقا لها بل إعمالا لقوانين أخرى. وهي ظاهرة يمكن رصدها في العديد من قوانين الطبيعة، مثل تلك القوانين التي تقلل درجة عمل الجاذبية الأرضية، فالجاذبية الأرضية لها قانونها الفاعل، والجاذبية تحكم الحركة في أنحاء الكون كله بدرجات متفاوتة، وليس من الصواب الاعتقاد الشائع بانعدامها تماما في الفضاء، فهناك ما يطلق عليه الجاذبية الصغرى microgravity.

لكن هذه الفاعلية للجاذبية الأرضية تحدث بشروط معينة وفي ظروف مناسبة، فإذا غيرت هذه الشروط والظروف طبقا لقوانين الله أيضا في الطبيعة، يمكنك أن تحول الجاذبية إلى درجة أقل أو ما يسمى مجازا انعدام الجاذبية، وليس هذا معناه خرقا لقوانين الطبيعة التي يحكمها الارتباط الضروري بين السبب والنتيجة، بل معناه إعمال قوانين أخرى أعم من القانون الخاص الحاكم لظاهرة الجاذبية. وهو ما يحدث في تدريب رواد الفضاء في بيئات مصطنعة على الأرض تحاكي ما يسمى مجازا انعدام الجاذبية. فهذا ليس سحرا ولا خرقا لقانون الجاذبية، بل إعمال لشروط وظروف أخرى تخضع بدورها لقوانين محكمة.

إذن نحن نتحرك من قوانين الله في الطبيعة إلى قوانين الله في الطبيعة، نتحرك من مستوى للقوانين إلى مستوى آخر، لكن لا خرق لقوانين الطبيعة. إن الله لا يعبث بصنعته.

لكن سوف يعيد البعض السؤال: أليست المعجزات خرقا لقوانين الطبيعة؟

إن هذا الإشكال يحل عن طريق تفسير موقف القرآن من المعجزات بوصفه خرقا لما تعود عليه الناس في معرفتهم بالطبيعة، وليس خرقا لقوانين الطبيعة نفسها؛ ففي المعجزات إعمال لقوانين طبيعية أعم لا يعرفونها في زمنهم وإن كان يعرفها النبي بوحي إلهي، وهي ليست خرقا للقوانين الطبيعية الثابتة؛ فهي أكرر- خرق لعادات الناس المألوفة في التعامل مع الطبيعة، وليست خرقا للقوانين الطبيعية ذاتها. فالمعجزات تنطوي على تحدي لقدرات ومعارف الناس المقيدة بعلوم عصرهم في التعامل مع الطبيعة، وليست تحديا للقوانين الطبيعية نفسها؛ فالله سبحانه -أكرر- لا يتحدى أعماله بأعماله، وحتى المعجزات لها أسبابها ووسائلها والطرق المؤدية إليها التي تفوق القدرات البشرية المألوفة.

لكن لماذا نعتقد أن هناك أسبابا أخرى وقوانين أعم تعمل بفاعلية تفوق قانون الحرق في النار؟

لأن قوانين الله في الطبيعة ثابتة، ومنسجمة مع بعضها البعض، وقد جعل سبحانه لكل شيء سببا، والطبيعة صنعة الله المحكمة محكومة بآلية مطردة لا يمكن خرقها، وخاضعة للقوانين الثابتة. والوحي نفسه يؤكد هذا في نصوص واضحة الدلالة على أن سنة الله ثابتة لن تجد لها تبديلا، (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب: ٦٢)، وكل شيء عنده وفي كونه بقدر ومقدار (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩)، (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) (الزخرف: ١١)، فالماء ينزل بقدر دقيق، وهو السبب في إحياء الأرض الميتة بجوار الأسباب الأخرى لصلاحية نمو النبات. وأيضا التمكين في الأرض خاضع لضرورة تحكم العلاقة بين الأسباب والنتائج. (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف: ٨٤، ٨٥).

هذا قانون الله الذي يعمل في الطبيعة وفي التاريخ، ومن المؤكد أن الله تعالى يقدر على كل شيء، لكنه سبحانه أراد -حسب نصوص الوحي- أن يتم كل شيء بسبب، وأن هناك علاقة ضرورية بين الأسباب والمسببات إلا إذا تدخل سبب أكبر وهنا سوف تختلف النتيجة. لكن ليس معنى ذلك أن العلاقة غير ضرورية؛ حيث إن عمل السبب الأكبر يخضع أيضا للعلاقة الضرورية بين جميع الأسباب والمسببات الأخرى. إنها منظومة شاملة محكمة صنعها الحكيم وجعلها تسير في نظام غائي معلل. ومسار الأحداث في التاريخ والطبيعة له غائية حتى وإن غابت عنا بعض جوانبها حتى الآن؛ لأن الحكم للأغلب وليس للاستثنائي. والطريقة العلمية في النظر تقيس الأمور على الأغلب الأعم، بينما الطريقة السحرية في التفكير تقيس على الاستثنائي وتحوله إلى قاعدة عامة!

والإنصاف يقتضي القول إنه مثلما توجد طوائف تنكر العلاقة الضرورية في رؤية الطبيعة في الفقه الأكبر (علم أصول الدين)، وفي الأحكام في الفقه الأصغر (علم الفقه)، فإن هناك قطاعا يقول بهما ويؤكدهما بطرق مختلفة ربما تختلف مع طريقتنا في بعض الجوانب وربما يكون لها أهداف أخرى. وفي كل الأحوال فنحن لسنا مع الماديين الذين يقعون في خطأ مقابل لخطأ الطوائف المنكرة للعلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات، حيث يقعون في النقيض فيثبتون العلل وفاعليتها في مقابل إنكار الله أو إنكار قدرته. إننا إزاء طريق ثالث مختلف يرفض منطق إما أو ، أي يرفض منطق (« أ » إما أن تكون «ب» أو لا «ب»، ولا ثالث بينهما). بمعنى أن أية قضية (إما أن تكون صادقة أو كاذبة ولا ثالث بينهما). فهذا منطق ضيق الأفق. وقد سأل أحدهم ذات مرة بهذه الطريقة الخطأ في التفكير: (قوانين الله أم قوانين الطبيعة؟)، ونحن نقول بمنطق إثبات الثالث بينهما، وهو هنا أن قوانين الطبيعة هي قوانين الله المحكمة التي لا يتخلف عملها، والكون منظومة طبيعية شاملة محكمة صنعها الحكيم وجعلها تسير في نظام غائي معلل وخاضع لمنهجية سببية ضرورية. فنحن نتحرك من قوانين الله في الطبيعة إلى قوانين الله في الطبيعة، نتحرك من مستوى للقوانين إلى مستوى آخر، لكن لا خرق لقوانين الطبيعة. إن الله لا يعبث بصنعته. وهو سبحانه لا يتحدى أعماله بأعماله. لسنا مع الذين يفكرون بطريقة سحرية فينكرون القوانين الطبيعية الضرورية، ولسنا مع الماديين الذين لا يرون الله في الطبيعة».

تجديد المسلمين لا الإسلام (١)

٢٣ أغسطس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

الخلط بين الإسلام والمسلمين:

من أكبر المغالطات المعرفية الخلط بين الإسلام والمسلمين؛ فالإسلام هو الدين قرآنا وسنة صحيحة فقط، والقرآن هو المتن المقدس للإسلام مبينا بالسنة الصحيحة الثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الدين، الدين هو الوحي الإلهي الذي تم إعلان اكتماله في لحظة محددة (اليوم أكملت لكم دينكم). أما ما جاء بعد ذلك أو بخلاف ذلك فليس وحيا ولا دينا، وإنما خطاب ديني بشري قابل للصواب والخطأ مهما كان قائله، فلا كلمة نهائية نحن مأمورون بأخذها إلا كلمة الوحي، وكل بشر يؤخذ ويرد عليه إلا النبي محمد عليه الصلاة والسلام حامل مهمة تبليغ الرسالة، ولا أحد يتحدث عن الله تعالى إلا مبلغ الرسالة.

ومن أسف فقد خلط الناس في أغلبهم بين الإسلام والمسلمين وعدوا تاريخ المسلمين هو تاريخ الإسلام، سواء في قوتهم أو ضعفهم، وسواء في تقدمهم أو تخلفهم، وسواء في التزامهم بالإسلام أو عدم التزامهم. وتسبب هذا الخلط وتلك المغالطة في إساءة فهم الآخرين للإسلام، فكلما أخطأ المسلمون اعتبر الآخرون أن هذا خطأ الإسلام. والخطيئة المعرفية الكبرى أن يتحدث البعض عن تاريخ الإسلام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وهو يقص تاريخ البشر، بينما كان يجب عليه أن يتحدث عن تاريخ المسلمين وليس الإسلام.

ومن هنا فإن أحد أهم متطلبات تأسيس خطاب ديني جديد هو التمييز بين الإسلام والمسلمين، التمييز بين المقدس والبشري، التمييز بين الدين من ناحية وطريقة فهمه وتطبيقه بواسطة المسلمين من ناحية أخرى، التمييز بين الدين الإلهي والخطاب الديني البشري، فالدين مرة أخرى- هو الوحي، أما الخطاب الديني فهو ما يفهمه المسلمون من الدين ويتجلى في كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم وينعكس على سلوكهم وطريقة حياتهم.

والدين صالح لكل زمان ومكان، بينما المسلمون متغيرون وعقولهم الفردية والجمعية متفاوتة، والتجديد يجب أن يطال طريقة فهمهم للإسلام، ويطال خطابهم الديني البشري المتغير. فالتجديد إذن يكون للمسلمين وطريقتهم في التفكير ويكون لخطابهم الديني وأنماط حياتهم الرجعية، وليس تجديدا للوحي، إنه تطوير في طريقة فهم الوحي وليس تغييرا للوحي نفسه. إنه تطوير بالعودة للوحي الأصيل في نقائه الأول وتخليصا له من كل ما نسب إليه من أقوال البشر.

ويؤكد هذا الفهم، ما سبق أن أكدنا عليه في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد)؛ حيث من الواضح أنه مع مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على ظهور الإسلام، لاتزال الفجوة واسعة بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام (قرآنا وسنة صحيحة) يقدم نموذجا عالميا للدين الذي يلائم الطبيعة الإنسانية، ويعترف بالتنوع الكوني والإنساني، ويعدّ التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين الإلهي والبشري.

إن الإسلام دين يؤمن بالتطور والتغير، وتعطي نصوصه قرآنا وسنة صحيحة مساحات واسعة للاجتهاد البشري ومراعاة المصالح المرسلة، والاستحسان العقلي...إلخ، بينما المسلمون -في أغلبهم- يعيشون في جمود علمي وفقهي منذ أكثر من سبعة قرون، ويتبنون خطابا دينيا وعظيا إنشائيا فارغا ومنفصلا عن تطور العالم وتطور العلوم والثقافات، ولا تزال أنماط حياتهم اليومية رجعية لا تأخذ من الحضارة إلا قشورها، ويعيشون العلوم والتكنولوجيا كمستهلكين لها وليس كمنتجين.

ولا يزال المسلمون يخلطون بين موروثاتهم الاجتماعية التي ورثوها من بيئتهم والتصور الإسلامي النقي المستمد من القرآن العظيم والسنة المطهرة الصحيحة، وهم يخلطون بين العبادة الحق والعبادة المزيفة، فلا يزال الكثيرون منا يقيمون علاقتهم مع الله من خلال الطقوس والمظهر فقط، وينسون المعاملات والصدق والالتزام والدقة وإتقان العمل.

وهذا الفريق يظن أن النجاة في الدنيا والآخرة تتوقف على بعض المظاهر الشكلية والأقوال الجوفاء، وليس من خلال الالتزام والمسئولية، فسبيل الخلاص عندهم في الشعارات والالتزام الصوري والمظهري، وليس في ممارسة العمل البنّاء في تنمية بلادهم والعالم، وهم يخلطون بين العبادة الحق في الدين والتي تقيم علاقة فعالة بين الإنسان والله فتمده بدافع شخصي متجدد لممارسة دوره في إعادة بناء العالم، وبين العبادة المزيفة التي يمارسها المراؤون، أو التي يمارسها الذين يخدعون أنفسهم ويظنون أنهم يسترضون الله تعالى بأداء بعض الطقوس ثم يسعون في الأرض فسادا؛ فيغشون ويكتمون الشهادة ويشيع بينهم عادة النفاق والرياء وسيادة مبادئ الإهمال والغدر وعدم الالتزام بالوعود.

كما يخلط كثير من المسلمين بين معتقدهم الديني ومواقفهم السياسية ذات الطابع الإنساني المتغير. إن الإسلام يشتمل على أصول تحقيق العدل والإنصاف. هذا شيء لا شك فيه، لكن الخطل يكمن في أن يعدّ البعض أن مواقفهم السياسية المتغيرة والمرتبطة بالمصالح الشخصية والأيديولوجية والطبقية التي ينتمون إليها هي تعبير عن الإسلام الخالد نفسه!

والخطورة الحقيقية في عدم التمييز بين الثابت والمتغير في الأحكام الشرعية، وبين قطعي الدلالة من النصوص وظني الدلالة منها، وبين المحكم والمتشابه في القرآن، وأيضا عدم التمييز بين الأحاديث المتواترة والأحاديث الآحاد، وبين الأحاديث الصحيحة النسبة إلى الرسول الكريم والأحاديث الضعيفة والموضوعة كذبا عليه.

وبطبيعة الحال ينتج عن ذلك الخلط تضخم تشريعي مكبل للإبداع والحياة الإنسانية، كما تنتج منظومة من الخرافات والمعتقدات والأحكام غير المنضبطة، ومجموعة من القيم المعكوسة التي تولد عقولا مغلقة وهشة، يمكن بسهولة قيادتها نحو ممارسة الإرهاب ليس ضد الآخر فحسب بل ضد أبناء الدين الواحد والوطن الواحد.

لسنا مع المنغلقين دينيا الذين يوحدون بين أفكارهم المغلقة والدين نفسه، ولسنا مع مقابلهم من الماديين، إنهما طرفا نقيض، وساهم كل منهما في إحداث فهم غير منضبط للوحي. ولعل أخطاء المنغلقين، هي السبب في النقد غير العادل الذي يوجهه الماديون المؤكدون على الطابع التاريخي للدين، والذين يركزون-من وجهة نظري- على رؤية الجزئي والسلبي والمؤقت فيما يدخل الفكر الديني نتيجة الظروف التاريخية ونتيجة الجهل والسطحية، دون أي تمييز بين الدين من جانب والفكر الديني من جانب آخر، ودون أي تمييز بين الإسلام في نقائه الأول وبين المسلمين في ممارساتهم التاريخية التي تصيب وتخطئ.

ويتجاهل الماديون حقيقة أن التاريخ الديني لا يقدم على الدوام ما هو جزئي ومؤقت ومرحلي، وإنما يقدم كذلك ما هو ذو طابع كلي وإيجابي ودائم. ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا مُحقين في نقدهم لأتباع الدين عندما حولوا (فهمهم) للدين الأصلي إلى حقائق نهائية ومؤسسية وكهنوت يركز على الطقوس والمظاهر أكثر مما يركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن، ويركز على الشكلي والسلطوي والقهري أكثر مما يركز على الجوهري والعقلي والإنساني.

ويبدو -من وجهة نظري - أن هذا قدر كل دين، عندما ينسى أتباعه المنغلقون في عصور الانحلال والتراجع الطبيعة الأصلية والمقصد الحقيقي له. ولهذا نجد أن محمد عليه الصلاة والسلام كان يدرك خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، ويخشى من (البدع) التي تفقد الدين جوهره وتتحول فيه الوسائل إلى غايات، والنوافل إلى فروض، والشكليات إلى جوهريات، والفروع إلى أصول، والعادات الاجتماعية إلى واجبات دينية.

وهنا لابد أن نفهم أن تحذير محمد عليه الصلاة والسلام كان من (البدع) في مجال العبادات، وليس من (الإبداع الإنساني) في مجال الحياة. ولذا فإنه في الوقت الذي حذر فيه من الأولى، دعا إلى تجديد فهم المسلمين للدين في جانبه المتعلق بالحياة، حيث بشر بمن يأتي على رأس كل مائة عام مجددا لأمر الدين، أي مجددا للخطاب الديني بغية تخليص فهم الدين من العنصر التاريخي ذي الطابع المؤقت الجزئي والعرضي، مع التدبر والتنقيب لاكتشاف ما هو دائم وكلي وجوهري في الدين، ومع ذلك يتنوع في معناه ليلائم التطور الحادث في ظروف الناس والمجتمع والتاريخ. ولذلك فإن المفسرين الأوائل عددوا المعاني للآية الواحدة واللفظ الواحد، ليس فقط في نطاق التفسير العقلي أو التفسير بالدراية، بل أيضا في نطاق التفسير النقلي بالمأثور عند الأوائل، حيث كانت تفسيراتهم المأثورة تطرح تعددية مدهشة في المعاني لا يفهمها أهل الجمود الذين لا يريدون إلا معنى واحدا ووحيدا مطابقا لعقولهم المغلقة».

تجديد المسلمين لا الإسلام (٢)

٣٠ أغسطس ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إشكاليات فهم المسلمين والغرب للإسلام و «مشروع التقدم» الذي لم يحققه المسلمون بعد:

يعاني الإسلام الأول النقي من إشكالية في فهمه، ليس من الغرب فقط، ولكن من المسلمين أيضا؛ فالغرب – في أغلبه – يفهم الإسلام من خلال حكمه على المسلمين، ويخلط معرفيا بين الإسلام والمسلمين، ولا يميز بين الوحي ومَنْ طبقوه. أما المسلمون – في أغلبهم – فإنهم يفهمون الإسلام من خلال وسطاء، وليس بالعودة المباشرة إلى منابعه الأولى (القرآن والسنة الصحيحة).

ويمكن القول انه بقدر وجود فجوة بين «فهم الغرب» و«الإسلام الأصلي»، توجد فجوة من نوع آخر بين «فهم المسلمين» و«الإسلام الخالص».

والحل ليس هو تجديد الإسلام، بل تجديد المسلمين وطريقة فهمهم للإسلام والعمران والعالم والألوهية. وفي ظني أن هذا سوف يقضي على الفجوتين في وقت واحد!

كيف؟

في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد) أوضحنا أن تأسيس خطاب ديني جديد يجرنا إلى مجموعة من الإشكاليات الحقيقية التي تتعلق بواقع المسلمين اليوم وعلاقتهم بالإسلام الحقيقي؛ وهي علاقة تقوم على فهم هش ومزيف، ولذلك ازدادت الفجوة بين المسلمين والإسلام. وهذه الفجوة، لا تسأل عنها فقط الظروف التاريخية والاجتماعية، وإنما يُسأل عنها أيضا «الخلل في طرق التفكير» وهو خلل جاء نتيجة التعليم القائم على الحفظ والتلقين لا الفهم والتدبر.

والمصيبة أن مَنْ يحاول فهم الوحي لا يُعمل عقله، ولا يرجع للأصل، وإنما يستعير فهم الماضيين المقلدين أو يستورد فهم الغرب! وهنا تحدث إشكاليات كثيرة تتسبب في فجوة حقيقية مع الإسلام الأول النقي. ويتضح ذلك من الإشكاليات الآتية:

لماذا يحصر كثير من المسلمين أنفسهم في جانب ضيق: نصف الجسد الأسفل، الجنس، الزوجات، الطقوس.. بينما رؤية الإسلام أوسع من ذلك بكثير: الكون، الإنسانية، الحضارة، التاريخ، العدالة الاجتماعية، الإنصاف؟

لماذا يفهم البعض تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالظواهر أكثر مما تتعلق بالبواطن؛ ومن ثم حوّلوها من تعاليم للروح والجسد معا إلى تعاليم للجسد فقط، وحولوها من تعاليم للسلوك إلى تعاليم للمظهر والشكليات بوجه عام؟!

والمفارقة المتجددة: لماذا يفشل المسلمون بينما هم يؤمنون بدين تقدمي عالمي يحمل بداخله كل عناصر التطور؟

لماذا انهزم المسلمون في الماضي أمام التتار بينما انتصر عليهم الإسلام؟! ولماذا ينهزم المسلمون منذ قرون أمام خصومهم، ولا يزال الإسلام صاعدا؟!

ثم لماذا فشل المسلمون في استعادة ماضيهم المجيد الذي تميز بالقوة والإنجازات الحضارية، والذي أعقبه فترة غلب عليها التدهور الخطير والسقوط في بئر التخلف بل والتهميش؟

ما الأخطاء التي أدت بهم إلى هذا المصير؟ ولماذا؟ وما الذي يقتضيه ذلك من تحركات في المستقبل؟

وما أسباب الفشل في المصالحة بين الأخوة الأعداء: الإسلاموية الأصولية في مقابل الإسلاموية الليبرالية أو العلمانية؟

ولماذا فشلت التيارات الأصولية في اتخاذ موقف عقلاني واقعي في مواجهة تيار العولمة المتسارع الذي يحمل روح التشيؤ وعدم الإنصاف؟

ولماذا فشلت تلك التيارات في تحقيق حالة جديدة من الانسجام بين «الإسلام» و«المعاصرة» بشكل يمكّن المجتمع الإسلامي من اللحاق بالركب ودخول الألفية الجديدة بخطى واثقة تعتمد على أخلاق التقدم والتمدن؟

هذه إشكاليات تحتاج إلى إجابة، وهي أيضا شجون تثيرها حالة «التناقضات» التي يعيشها العالم الإسلامي والتي عجز التيار السياسي الأصولي عن حلها، ومن ثم عجز عن تقديم نموذج تقدمي يقرب الإسلام من العالم، ويقرب العالم من الإسلام.

هذا من ناحية المسلمين، أما من ناحية الغرب فيوجد بالمثل عيوب تقليدية وإشكاليات معرفية يقع فيها أغلب الغربيين في فهم الإسلام والخلط بينه وبين المسلمين. ومن تلك العيوب ذلك الطابع الذي يسيطر على الخطاب الغربي في اتهام الإسلام جزافيا ودون برهان حاسم: إما بضعف البعد الروحي، أو بالتخلف الديني المناهض لحركة العلم، أو بالإرهاب!

وقد جاء الحكم الأول نتيجة «المقارنة المعكوسة» بالمسيحية؛ حيث لا يُنظر للإسلام وفق جدليته الخاصة، بل كانعكاس مقلوب لتاريخ المسيحية. فإذا كانت المسيحية رهبانية روحية، فإن الإسلام حسي مادي. وهكذا جاء الحكم على الإسلام بنقص الروحانية نتيجة عملية «قلب عكسية».

في حين جاء الحكم على الإسلام بالتخلف الديني المناهض لحركة الارتقاء العلمي نتيجة «قياس المثل»، فإذا كانت المسيحية الكاثوليكية – من وجهة نظر البعض – قد أعاقت في العصور الوسطى حركة العلم في أوربا، فإن الإسلام كذلك قد أعاق حركة العلم في الشرق! وهذا بالطبع موقف الاستشراق العلماني المناهض للكهنوت، لكن يوجد موقف آخر اتخذه الاستشراق التبشيري الذي قرن بين تقدم أوربا والدين المسيحي من ناحية، وبين تأخر الشرق والدين الإسلامي من ناحية أخرى!

أما الحكم على الإسلام بالإرهاب، فقد جاء نتيجة «الخلط» بين الإسلام كدين خالص وعقول قطاع من المسلمين! وتستمر المغالطة وتتسع لتزعم أنه إذا كانت المسيحية مسالمة فالإسلام محارب! (لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع لكتابنا: الوضعية والاستشراق في عصر الأيديولوجية، القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠٠٧).

لكن إلى متى سوف تستمر هذه الإشكاليات؟

إنها فعلا إشكاليات حقيقية، وتحتاج إلى حل ليس موجودا عند الماضويين، بل في الواقع المرير الذي ينظر فيه العالم إلى الإسلام كأيديولوجية للإرهاب! والمسئول عن ذلك ليس قصور النظرة الغربية فقط التي تخلط بين جماعات الإرهاب والإسلام، بل المسئول عن ذلك أيضا قطاعات كبيرة من المسلمين بقصورها وضعفها وعصبيتها وتخلفها وعجزها عن تقديم مشروع علمي وحضاري متمدن يواكب العصر.

إن آلاف الخطب العنترية وآلاف العمليات الإرهابية لن تحل أية إشكالية من الإشكاليات السابقة، بل سوف تزيدها تعقيدا، وهذا ما برهنت عليه المائتا عام الأخيرة. ومع ذلك لا تزال الخطب الجوفاء مستمرة، ولا يزال التهليل لها عاليا صاخبا من عقل جمعي يعيش خارج التاريخ، ولا تزال العمليات الإرهابية المصابة بعمى الألوان جارية! ولا يزال الفشل مستمرا!

ولذلك لابد من تجديد المسلمين عن طريق تعليم عصري يقوم على التفكير النقدي، ونبذ التقليد الأعمى لطرق التفكير القديمة التي تجعل المسلم منفصما عن عصره وعن العالم وعن دينه في نقائه الأصلي والأصيل.

الحل هو في تطوير العقل الجمعي لكي ينتقل من منطق النقل الحرفي إلى منطق العقل النقدي، من الجمود إلى المرونة، ومن الواحدية إلى التعددية، ومن منطق الصراع إلى منطق المنافسة.

الحل هو في التحول إلى مجتمع إنتاجي لا مجتمع استهلاكي، من مجتمع رعوي إلى مجتمع صناعي، من الاقتصاد الريعي إلى الاقتصاد الصناعي. من الخطاب الديني المتكلس إلى خطاب ديني ديناميكي.

وهنا سوف يتم تجسير الفجوة بين الإسلام والمسلمين، وهنا سوف تتحول الطاقات من طاقات للهدم إلى طاقات للبناء، فالإصلاح الديني مرتبط ارتباطا جذريا بالإصلاح الاقتصادي، ومرتبط بالتحولات الاجتماعية، وكلها دوائر لا ينفصل بعضها عن بعض. وقد أوضحنا هذا في مشروع جامعة القاهرة في ربط الإصلاح الديني بالإصلاح الاقتصادي من عدة سنوات.

إن تطوير العقل وتغيير طرق التفكير، وقيام مشروع علمي تقدمي يشمل كل قطاعات التنمية، بجوار تأسيس خطاب ديني جديد، هي أركان جوهرية من بين أركان الإجابة الأساسية التي يمكن تقديمها لتجاوز الفجوة بين الإسلام والمسلمين؛ ومن ثم سحب البساط من تحت العيوب التقليدية التي يقع فيها الخطاب الغربي من ناحية، والخطاب الديني التقليدي للمسلمين من جهة أخرى».

تغيير رؤية العالم عند المسلمين

٦ سبتمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إذا كنت تعتقد في الخرافات والأعمال السفلية والعلوية، فإن هذا يكوّن رؤيتك للعالم بوصفه عالما تحكمه الأشباح والعفاريت والسحرة، وليس قوانين الطبيعة التي سنها الله تعالى والتي لا تتبدل. وبالتالي سوف تؤثر هذه الرؤية على سلوكك، فلن تحاول اكتشاف قوانين الكون، وبالتالي لن تتقدم في العلوم. وسوف تترك الأخذ بالأسباب الطبيعية وتعمل على تحقيق أمنياتك بمجرد نطق بعض الكلمات أو التعاويذ أو تلجأ إلى السحرة وصانعي «الأعمال السحرية» لجلب الحبيب مثلا أو لشفاء المريض أو للترقية في المنصب أو للنجاح في الامتحانات أو للحصول على كنز يغنيك! بينما الرؤية العلمية تقوم على أن الكون محكوم بقوانين محكمة لا تتخلف، وأن التغيير فيه يكون بالأخذ بالأسباب الطبيعية (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف: ٨٤، ٨٥).

وإذا لم تكن على التوحيد الخالص المبين لله تعالى وحده، وتعتقد في تأثير الأولياء في العالم، فإنك سوف تدعوهم أو توسطهم عند الله تعالى لتحقيق أمنياتك، أو سوف تأخذ بعض الزيت من قنديل أم هاشم (رضي الله عنها) لتشفي مرضك، ولن تأخذ بالعلم ولا بالأسباب ولا بقوانين الطبيعة في الشفاء! وبالمناسبة أنا أحبها وأقدرها فوق ما يظن البعض، لكن لا أتوسل بها ولا أدعو الله ولا أصلي له سبحانه عند قبرها؛ فهو وحده النافع الضار وهو وحده مقصد السماوات والأرض.

وإذا كانت تسيطر عليك الرؤية الأحادية للعالم السياسي والاجتماعي والعقائدي التي تقوم على مبدأ (إما ... أو...) ، فسوف تنظر للعالم على أنه مقسم إلى قسمين (أبيض وأسود)، (دار الحرب ودار السلام)، (إما معي أو ضدي)، (كل من يختلف معي فهو ضدي)، بينما الرؤية العلمية المؤسسة على نصوص الوحي النقي الأصيل تؤكد أن الإسلام نفسه يعترف بالتنوع البشري، ويدعو للتعايش الإنساني، ويدعو إلى قيم وأخلاق التقدم. وهذا هو «قلب عصر العلم» الذي لم يدخله المسلمون المعاصرون حتى الآن!

ولذلك أكدت في كتاب (نحو تأسيس عصر ديني جديد) على أن تجديد المسلمين يقتضي أول ما يقتضي تغيير رؤية العالم Worldview في مخيالهم؛ لأن هذه الرؤية هي الأساس النظري للفهم والتفكير، وهي التي تضع المحددات التي في ضوئها يتشكل الفعل وطرق التعامل والتفاعل مع العالم المحيط وعناصره.

ورؤية العالم في تصوري - ولا يعنيني هنا إن كنتُ متفقا أو مختلفا مع إمانويل كَنْت أو وليلهام دلتاي أو ماكس فيبر أو غيرهم- أقول إن رؤية العالم في تصوري هي الخريطة الذهنية العامة الذي نفهم بها كل ما يحيط بنا : الكون، الحياة، الناس، مستويات الوجود، الألوهية، الثقافات العالمية، بل هي الإطار الذي نفهم به أنفسنا أيضا بوصفنا جزءا من هذا العالم؛ لأن رؤية العالم هي مجموعة من الافتراضات الأساسية Basic Assumptions في مخيالنا عن العالم، وهي أيضا الخرائط المعرفية Cognitive Maps التي توجه مسارات التفكير وتحدد صورة العالم، وتتضمن في داخلها كتلة المبادئ والمعتقدات الكلية التي يحيا بها الإنسان؛ وفي ضوئها يضع الوعي الجمعي للناس علاقاتهم مع العالم، ونجد لها انعكاسات واضحة على الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

وعلى هذا فإن وظيفة الرؤية هي وظيفة معرفية، وهي نقطة البدء في تغيير المسلمين؛ فالمسلمون اليوم -أو أغلبهم- ببساطة يملكون رؤية عقيمة عن العالم، وهي رؤية تتقاطع مع الرؤية الكهنوتية والسحرية اللاهوتية للعالم (التي حاربها الإسلام الأول لكن المسلمين في عصور التراجع ارتدوا إليها). وهذه الرؤية الكهنوتية والسحرية لا تخرج عن مجمل رؤية العصور الوسطى الأوربية. والغرب والشمال والشرق الأقصى يتقدمون علينا لأنهم ثاروا على هذه الرؤية السحرية اللاهوتية، وكافحوا من أجل تكوين رؤية علمية للعالم. وهذه الرؤية هي الأساس النظري لكل مكتسباتهم العلمية والحضارية وتفوقهم علينا في التكنولوجيا، والعلوم الاجتماعية، والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية.

إن الرؤية الكهنوتية تعتمد في الأساس على وجود وسطاء بين الله والإنسان الفرد، والرؤية السحرية تقوم على رؤية العالم محكوما بالسحر والسحرة والجن والعفاريت والأشباح والأعمال السفلية تارة، والتدخلات الغيبية الخارقة تارة أخرى. أما قوانين الطبيعة فهي سواء عند أصحاب الكهنوت أو أهل الرؤية السحرية- شيء طارئ وثانوي وغير ضروري، والعلوم الرياضية والطبيعية من النوافل في التعامل مع الكون، وأيضا العلوم الإنسانية والاجتماعية هي آخر شيء يمكن اللجوء إليه لحل مشاكل المجتمع أو الفرد. وكيف يمكن أن يحدث هذا والبعض لا يزال يصر على استمرار العلوم الدينية القديمة بالاعتماد فقط على النقل والحفظ والترديد؟!

إن العالم باختصار عند أغلبهم محكوم بقوى غيبية تربط وتنظم الأشياء بصورة منافية للقوانين العلمية التي تحكم الطبيعة في الرؤية العلمية. ومن هنا تكون الردة -دون وعي- إلى تصورات الأديان الوضعية السحرية التي انتبذها الإسلام.

ولنقف قليلا عند الفروق الحقيقية بين الإسلام الأول والرؤية السحرية التي تعد إحدى سمات الخطاب الديني البشري في عصور التراجع. وهذه الفروق -من وجهة نظرنا- تكمن في عدة جوانب سوف نتناولها في هذا المقال ومقالات تالية إن شاء الله تعالى. ونذكر هنا من هذه الجوانب أن السحر يعتمد على التأثير في الأشياء عن طريق كائنات شيطانية أو أرواح أو تعاويذ أو كلمات مجردة أو أعمال سفلية أو قوى غيبية يتصورون أنها كامنة في بعض الأشياء المادية. أما الإسلام الأول فينص على أن كل شيء في الكون خاضع لقانون السببية Principle of Causality، وهو المبدأ الذي يقرر أن لكل ظاهرة سببا، وأن لا شيء يحدث من لا شيء، وكل ما يظهر للوجود فلوجوده علة، وأن الأسباب تتبعها النتائج المترتبة عليها على وجه اللزوم إذا توافرت كافة العناصر والمتغيرات المصاحبة لإنتاج الظاهرة.

والسببية من مبادئ الطبيعة، وأيضا من مبادئ الفكر، وهي مبدأ قرآني راسخ، فالله سبحانه - كما يقول ابن القيم :» ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء؛ فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة، كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات. والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر. والقرآن مملوء من إثبات الأسباب... ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول على عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة...»(ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

ومن هنا يجب إعادة ضبط هذا العنصر الحاكم لرؤية العالم التي يجب أن ينطلق منها أي خطاب ديني جديد، باستبعاد الرؤية السحرية والرؤية الكهنوتية المنكرة للسببية من طرق تفكير المسلمين، واستعادة الرؤية العلمية التي حكمت تقدم طرق التفكير العلمي والتي أدت إلى تقدم العلوم الرياضية أولا، ومن بعدها العلوم الطبيعية، ثم العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي أكدها التصور القرآني للعالم بوصفه محكوما بالسببية الطبيعية وليس بقوى سحرية أو كهنوتية ميتافيزيقية خارقة».

ضد التصور الأسطوري للشيطان

١٣ سبتمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

« إن عالم الأساطير والموروثات الشعبية والديانات المحرفة والخطاب الديني التقليدي المسيطر على قطاعات من الوعي الجمعي، هو عالم من الخوف والرعب، لكن العالم في الوحي النقي هو عالم بلا خوف. إنه عالم القوانين الطبيعية، وليس عالما تحكمه الشياطين والعفاريت. إنه عالم محفوظ بتقدير الله وقوانينه، ولا يحميه الزاعمون لسلطة دينية أو سحرية.

كيف؟

من العناصر التي تدخل في تكوين رؤية كثير المسلمين للعالم، تصورهم الأسطوري للشيطان. وهذا التصور يخالف المعتقد النقي في القرآن والسنة المتواترة، ويتجاوز حدود الوحي. ويمكن أن تُرجع رؤية العالم المحكومة بعناصر خرافية إلى الخطاب الديني البشري التقليدي؛ حيث تملأه الغرائب والقصص الأسطورية عن طبيعة الشيطان وقدراته المخيفة والانسحاق أمامه. وفي هذا الخطاب التقليدي تجد كل بقايا الديانات القديمة والأساطير الشعبية التي تصوره ككائن قوي مخيف هو المسؤول عن الشر كله في العالم!

وحتى لا يجد أصحاب العقل المغلق منفذا للتضليل وإثارة الشبهات، فإن الشيطان معتقد قرآني ككائن خفي له دور محدود، وقدراته أيضا ضعيفة، وتأثيره يمكن التغلب عليه بالإرادة العقلانية الفردية المؤسسة على الإيمان، وليس عن طريق الاستعانة بالوسطاء سواء من المشعوذين أو السحرة أو رجال الدين.

ومن أسف تسللت بعض المعتقدات الضالة إلى معتقدات بعض المسلمين من خلال كتب تزعم أنها كتب دينية، وللأسف أيضا سقط بعض العلماء في براثن الاسرائيليات والحكايات الموضوعة والروايات الضعيفة، بل سقط فيها أيضا بعض المفسرين مثل الطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم.

وفي مقابل خطاب ديني تقليدي يتضمن كثيرا من العناصر الاسطورية في رؤيته للعالم، فإن الخطاب الديني الجديد يسعى للعودة في المعتقدات إلى الوحي وحده في إطار العقل النقدي الذي يميز بين حدود الإيمان الخالص من جهة، وعالم الخرافة والأساطير من جهة أخرى. فالوحي النقي المحتكم للواقع والتعقل يحرر المعتقد من ضلالات الاهتزاز النفسي، وأوهام الوجدان، وخيالات النفس، والموروثات الشعبية، وخرافات الأساطير والسحرة ورجال الدين والكهنوت والديانات المحرفة والوضعية.

إن قدرة الشيطان وحدوده تختلف في الوحي الإسلامي بوضوح عن كل الديانات الوضعية، كما تختلف عن الخطاب الديني التقليدي عند المسلمين، في تفسير وجود الشر الأخلاقي في العالم، وفي النظر إلى الشيطان من حيث طبيعته ودوره، وكيفية التغلب عليه، فضلا عن وجود عناصر أخرى في الإسلام غير الشيطان لتفسير الشر الأخلاقي في العالم. وقد استطاع هذا الدين كما أوضحت في كتاب (مدخل إلى فلسفة الدين)- أن يتخلص من أساطير القدماء ومن أوهام البشر ومن مغالطات بعض رجال الدين والكهنوت المتأثرين بالديانات الوضعية والمحرفة.

إن الشر الأخلاقي موجود من أجل إمكان الحرية الإنسانية؛ لأنه يمتنع القول بأن الإنسان حر إذا كان مجبولا على الخير فقط. ولا يكتسب فعل الخير ميزته إلا إذا كان فعل الشر ممكن الحدوث. ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام لا يقول بطبيعة شريرة فى الإنسان، وإنما إمكانية للشر وللخير، موجودة فى الإنسان كأساس ضرورى للحرية، فإمكانية الشر والخير هى التى تجعل الحرية ممكنة، والشر الأخلاقي ليس محركه وساوس الشيطان فقط، بل النفس أيضا عندها القابلية؛ يقول تعالى :(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)(الشمس: ٧-١٠). فلا يتصور المرء إرادة حرة دون أن يكون لديها إمكانية فعل الخير وإمكانية فعل الشر.

والأمر كله يتوقف على الإرادة الإنسانية في امتحان الشر والخير.(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)(الأنبياء:٣٥)، فالشر امتحان، والخير امتحان، أمام الإرادة الإنسانية. والإنسان بإمكانه دوماً أن يتجنب هذا الشر إذا ما أحسن الاختيار ولم يسئ استخدام حريته. وليس على المرء أن يخشى الشر وممثليه من الجن والإنس، بل عليه أن يواجهه بكل قوة دون خوف، (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(آل عمران:١٧٥).(فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)(النساء:٧٦).

إن الشيطان في الإسلام ولأول مرة في تاريخ الأديان- عدو لا يملك إلا الوسوسة، ولا يستطيع إلا الدعوة والتحريض والإغواء، باعترافه الأخير:(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)(إبراهيم:٢٢). وبالمناسبة فإن العقل لا يمنع وجود كائنات أخرى غيرنا في هذا العالم. والذين ينفون وجود تلك الكائنات لا يوجد عندهم أي أساس علمي لهذا الإنكار. وفي كل الأحوال فإنهم لم يمسحوا الكون كله حتى يستطيعوا تحديد ما يوجد به وما لا يوجد. لكن مما لا شك فيه أن العقل يرفض تلك الأساطير التي يختلقها البعض عن تلك الكائنات.

إن الشيطان في الوحي الإسلامي، ليس إلها كما هو في الهندوسية والزرادشتية المحرفة والزروانية والجماعات المنشقة في العصور الوسطى، كما إنه ليس إلها للزمان ولا للعالم الأرضي، إنه مجرد مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وليس أزلياً وليس كائناً بذاته بدون خالق، إنه من طائفة الجن المخلوقة من النار (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)(الحجر:٢٧). ولذا له طبيعة مختلفة عن الإنسان، ومن ثم فإن القوانين التي تحكم عالمه مختلفة، وله قدرات مختلفة، لكنه كائن محدود ليس كامل القدرة ولا العلم. وهو يرى الإنسان في حين أن الإنسان لا يراه، ومع ذلك لا يملك إلا محاولة إثارة الفتنة، لكن تأثير محدود بالوسوسة. وله سلطان على الغاوين لا المؤمنين، (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)(الحجر:٤٢) . وكيده ضعيف (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) (النساء:٧٦).

وهذا واضح على مدى التاريخ من تخبطه في معاركه التي ينهزم فيها عند مواجهة أية طائفة قوية من المؤمنين، (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(المجادلة: من الآية١٩). أما انتصارات الشيطان فهي انتصارات مزيفة؛ لأنها على ضعفاء الإرادة، (يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)(الأعراف:٢٧). وما يتمتع به من سلطان ضعيف، فإنما هو معطي له من الله، (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) (الأعراف:١٤-١٥). وهو حر أن يعمل داخل الحدود التي سمح له بها ، لكنه لا يستطيع تجاوزها (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)(الملك:٥).

ولقد أوضح الله للإنسان طريق التغلب على الشيطان؛ فمواجهة نزغاته لا تستلزم سحرا ولا كهانة ولا طقوسا معقدة، بل إرادة قوية واستعاذة بالله، (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأعراف:٢٠٠)؛ فالانتصار على كل هجمات الشيطان ممكنة. ومع أن الحكم الإلهي صدر عليه، إلا أنه مازال مسموحاً له بممارسة سلطانه الضعيف والمحدود كفتنة واختبار للناس لامتحان إرادتهم، وبانتهاء هذا الامتحان يتحدد المصير النهائي بالعذاب الأبدي؛ هكذا أعلن القرآن المصير المحتوم للشيطان والنهاية الأخيرة للصراع بين الخير الأخلاقي والشر الأخلاقي، (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(إبراهيم:٢٢).

وهكذا فإن الشيطان كائن مهزأ، ومنبوذ، يهاجمه المسلم ولا يخشاه، ويرجمه دون خوف في شعيرة من شعائر الحج؛ لأنه أصبح عدواً مهزوماً بفضل الإرادة القوية المؤسسة على الإيمان بالله، فليس له من سلطان عليه، إنما سلطانه على الذين لا يؤمنون. ومن ثم تحرر الإنسان مع الإسلام من عبودية كائن طالما استحوذ على النفوس الضعيفة، مثلما تحرر من كل مخاوفه الأخرى التي طالما عاش بسببها في جحيم من الخرافة والوهم والوعي الشقي. وهنا تصبح رؤية العالم بلا خوف وبلا وساطة».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٢)

٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«لا يزال ملف الشر مفتوحا منذ اللحظات الأولى لخلق الإنسان، ومثل ملفات كثيرة فإن الخيال الإنساني لا يزال أيضا سابحا في بحور من تصورات من محض توهماته، ويبلغ الحد بهذه التوهمات أن تصبح وقائع أكثر من الواقع الحقيقي نفسه. وقد استغل الكهنة والسحرة في الأديان والفرق الدينية قابلية التصديق العالية عند كثير من الناس لنشر هذه التوهمات وتوظيفها لتحقيق مصالح دينوية وسياسية. ويعد هذا من بين أسباب نشأة كثير من الأساطير التي لا تزال تحتل مساحات كبيرة من العقل الإنساني. والغريب أنها تجد مكانها عند بعض المشتغلين بالعلوم الذين يحفظون العلم كمعلومات لكنهم لا يفكرون تفكيرا علميا نقديا.

ومع أن الشر الأخلاقي يُسأل عنه الإنسان وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والعامة، فإن البعض يحاول أن يبرأه من المسؤولية ويرميها على كائن آخر غير مرئي . وتمادت بعض الديانات وبعض الفرق الدينية ونسبت إلى هذا الكائن أي خلل كوني! ومن هذه الديانات والفرق من عده إلها يصارع إله الخير.

ووجد الإنسان نفسه محاطا بعالم من الأساطير والخرافات التي لا تزال لها نفوذ على الرغم من أن هناك تيارا آخر يكافح من أجل العلم في مواجهة الخرافة. ولا يزال عالم الشيطان بغرائبه وقصصه الأسطورية مفتوحا. وعلى الرغم من تطور الأديان وتقدم العلم وتطور الفكر الفلسفي، فإن الإنسان لا يزال متخبطا على مدى التاريخ، وإلى اللحظة الحاضرة، في تفسير الشر وعلاقته بعالم الشيطان المثير، وفي كيفية التعامل معه! وبين مؤيد ومعارض، يستمر الخلاف والجدال، وتبقى الحيرة مستمرة، ويزداد التردد، ولا يتوقف الضلال، ولا تنحسر مساحة الأوهام، ويظل البحث مفتوحا في قضية ظلت تؤرق كثيرا من الناس كما تؤرق كل من يبحث عن الحقيقة. وعلى الرغم من كل ما في الإسلام الحقيقي من عقائد تقلص مساحة الأسطورة ، فإن الأساطير لا تزال تنتشر عند قطاعات من المسلمين لكنها متقنعة تحت روايات يتداولها بعض أدعياء العلم الديني.

ومثلما اختلف الناس حول الشيطان اختلفوا أيضا حول مشكلة الشر، وحول تحديد المقاصد الإلهية، وتنوعت مواقف الفلاسفة من مشكلة الشر في العالم تبعا لمواقفهم العامة من الدين وطبيعة رؤيتهم الأنطولوجية للعالم. كما تنوعت مواقف الأديان من الشيطان والشر تبعا لمواقفها العامة من الألوهية وطبيعة رؤيتها للعالم والحياة؛ فهناك من الأديان الوضعية من تفسر وجود الشر في العالم عن طريق الاعتقاد في وجود إله للشر، أو أصل منفصل له في الوجود (أصل قديم لم يخلقه الله، مثل المادة أو الظلام)، أو كائن كوني أسطوري مثل الأفعى،أو التنين، يدخل في صراع مع إله الخير، مثل: الفيدية، والهندوسية، والمجوسية، والزرادشتية بعد تحريفها، والمانوية.

وهناك من الأديان من يفسر وجود الشر في العالم عن طريق الاعتقاد في وجود شيطان أو شياطين. مع اختلاف بينها في طبيعة دور الشيطان، وكيفية التغلب عليه، فضلا عن وجود عناصر أخرى غير الشيطان لتفسير الشر في بعض الديانات.

ولا يحسبن أحد أن عصر الأساطير انتهى، بل لا يزال مستمرا بجوار العلم، ولا يزال بعض رجال الدين والسحرة يؤمنون بالأساطير والخرافات القديمة لكنهم يلبسونها ثوبا دينيا، حتى في التاريخ الإسلامي للأسف قام الكثيرون باستخدام الأساطير القديمة في تفسير الوحي!

وإذا عدنا لخريطة الأديان العالمية نجد في كثير منها حضور أسطوري طاغ للشيطان، وإذا رجعنا إلى الديانات القديمة نجد عند المصريين القدماء أن «ست» إله الشر والانتقام والدمار، أكبر من يمثل الشيطان في الديانة المصرية القديمة، وقد عبده بعض قدماء المصريين من قبيل الخوف لا المحبة. وكان «ست» هو المعبود القومي للجنوب، وعاصمته أمبوس، وكان حيوانه المقدس كلبا بريا، وكان رمزه القوة والبأس والعواصف والرعود.

ويقف ست على نقيض أخيه أوزوريس إله الخير والمحبة، وتروى تواريخ الأساطير المصرية أنه تآمر على قتل أوزوريس ليستولي على عرشه، ولكن إيزيس زوجة أوزوريس كانت ساحرة كبرى، نجحت فى أن تلقح نفسها من أوزوريس الميت، ثم أنجبت حورس الذي حارب عمه «ست» وانتصر عليه، واسترد العرش السليب. والملفت أن بعض المصريين لا يزال يستخدم كلمة «ست» لكن في موضع اخر!

وفي ديانات أخرى تجاوز دور الشيطان العالم الإنساني وامتلك قدرات كونية، ففي الديانة الفيدية الهندية أقدم الديانات الوضعية في العالم اتخذ الشر شكلا آخر ، وهي تعبر عن قوى الشر في العالم بمصطلح «مايا Maya»، وفى «الريج فيدا» تعنى مايا: التغيير المدمر أو المنكر المنافى للغير، والتغيير الشيطانى والمخادع الذي يؤدي إلى خلخلة نظام الكون، وأيضا فساد الفساد.

لكن نجد في الفيدية بجوار المايات السيئة مايات خيرة. أما المايات الخيرة فهى على نوعين:

(١) مايات المعركة: التى يستخدمها اندرا عندما يحارب الكائنات الشيطانية.

(٢) المايات الخالقة: وهى متميزة عن الآلهة العليا، وفى الدرجة الأولى عن فارونا.

ويمكن اعتبار هذه المايا الكونية كمعادلة لريتا. والريتا هي النظام الكوني الشامل في الديانة الفيدية،وتمثل الطبيعة الحق التي تنظم الأشياء، فهي القانون الأبدي الذي ينظم العالم. وهكذا نرى أن المايا تتعلق- كما يشير مرسيا إياد- بمفهوم مختلط، بل متناقض، فالمايا ليس مجرد فساد شيطانى للنظام الكونى، وإنما عملية إبداعية أيضا. وفيما بعد فإن الكون ذاته سيصبح، بالنسبة للفيدانتا، تحولا وهميا ونظاما من التغيرات مجردا عن الحقيقة. وفي الديانة الهندوسية أصبحت المايا تدل على «الوهم»؛ فالعالم المادي وهم؛ لأن الهندوسية تنظر إلى العالم المحسوس على أنه الشر بعينه الذي يجب تحرر الروح منه. ومن هنا فالمادة في الهندوسية شر، فالمادة هي «مايا»، أي وهم وخداع وباطل.

وإذا عدنا للمايا الشريرة في الفيدية نجد أنها تتعلق بالحيل والسحر، وبخاصة أنواع السحر المتعلق بالتحول لنموذج شيطانى، مثل تلك التى للتنين الجبار فريترا Vritra أو الأفعى الكونية التي هي «ماين Mayin» أى الساحرة. ومايا التى من هذا النوع تفسد النظام الكونى، فمثلا تعيق مسير الشمس وتحبس المياه. وفريترا هي الخصم اللدود للنظام الكوني، ودخلت هي وأعوانها من قوى الشر في صراع مع الإله إندرا عند بدء الخليقة.وقد كاد الشر أن يهزم الخير، حيث خاف إندرا في البداية عندما رأى فريترا،وأسرع بالهرب، لكنه عاد وتغلب عليها بقتلها.وأطلق المياه الحبيسة.فقد كان من الضروري مواجهة وقتل هذا الكائن الشرير؛حتى يمكن للوجود والكائنات أن تتولد وتنشأ بواسطة إندرا .وقام إندرا بعد ذلك بقسمة الوجود إلى عالمين:عالم علوي، وعالم سفلي، وأجبر القوى الشريرة على الانعزال في العالم السفلي، هذا العالم الذي لا يوجد فيه نظام ولا قانون ولا نور؛ فهو عالم الاضطراب والفوضى والظلام!

أساطير وخرافات وعوالم متوهمة صنعها خيال جامح وآمنت بها عقول ضعيفة، واستفاد منها بعض رجال الدين المأجورين والساعين إلى السيطرة والتحكم في العوام طلبا للذة السلطة والنفوذ والتقديس وربما أشياء أخرى! والحديث لا يزال مستمرا عن أساطير بعض رجال الدين في ديانات العالم المختلفة، وعلى الرغم من اختلاف تلك الديانات لكن أساليب طائفة من رجال الدين واحدة في كل تلك الديانات!».

 تصويب خطأ مطبعي: العنوان الصحيح للمقال قبل السابق هو (تغيير رؤية العالم عند المسلمين)، وليس (تغيير رؤية العالم عن المسلمين).

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٣)

٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«مثلما تجد تنوعا في خيال مؤلفي الروايات والقصص والحكايات، تجد تنوعا في مؤلفي العقائد في كثير من الأديان التي يعتنقها كثير من الناس شرقا وغربا عن الشيطان وقوى الشر، ليس فقط فيما يعتنقه الكثيرون في الماضي، بل أيضا في الحاضر. وإذا اطلعت على عقائد كثير من الأديان عن الشيطان وقوى الشر سوف تجد الخيال جامحا في التوهم دون برهان حقيقي، وبطبيعة الحال تجد معتنقي هذه العقائد يتحدثون بيقين مطلق استنادا إلى فكرة التسليم لما قاله الأجداد أو رجال الدين الذين يوهمون الناس بالتقديس لشخصهم وأفكارهم.

وتجد الناس يتمسكون بتقديسهم على الرغم من أخطائهم وقصور علمهم، وربما على الرغم من تاريخهم المشبوه سياسيا. لكن الناس يقنعون أنفسهم ويتناسون ذلك لحاجتهم اللاشعورية لفكرة التقديس، مثل مشجعي كرة القدم الذين ينهزم فريقهم لكنهم يقنعون أنفسهم أنه الفريق الأفضل! ومثل جمهور السينما الذي يلعب خياله دورا في التعاطف مع البطل على الرغم من أخطائه الكارثية!

وموقف كثير من الناس مع عقائد كثير من الأديان مثل جمهور المسرح الذي لديه ميل داخلي في أن يصدق أن الرواية التي يشاهدها أمامه حقيقية حتى يستمتع بها على الرغم من أنه يعلم أنها مجرد خيال! وهذه المفارقة نفسها تجدها مع الناس في عقائدهم المزيفة لكن في شكل تعمل فيه آليات التقديس المزيفة دور البطل المحرك.

وتجد أن معتنقي العقائد الزائفة يستدلون على عقائدهم بمنظومة من الاستدلالات التي لا تفرق بين القرينة والدليل، بل لا يعرفون الفرق بين الدليل البرهاني والجدلي والخطابي والسفسطائي. ومن أسف تجد أن أغلب رجال الدين في كثير من الأديان التي يعتنقها الناس لا يعرفون الدليل البرهاني، والحقيقة التي يمكن أن أصدمك بها أن أدلتهم سفسطائية أو خطابية أو جدلية وكلها تقوم على مقدمات ظنية. لكنهم يدغدغون مشاعر العوام بألفاظ رنانة وباللعب على عواطف التقديس المزيفة التي تستحوذ على نفوسهم. وهي عواطف تقديس مزيفة لأن وجهتها إلى غير الله تعالى.

ولنعطي بعض الأمثلة على ذلك من عقائد بعض الأديان التي يقاتل معتنقوها من أجلها بوصفها حقيقة مطلقة. وسوف نجد في هذه الأمثلة أنه على الرغم من تنوع الخيال الجامح في معتقدات كثير من الديانات القديمة والتي لا يزال بعضها حيا حتى اليوم، أنه يوجد تيمة مشتركة بينها. وسوف تلاحظ معي -أيها القارئ الكريم- أنها التيمة المشتركة نفسها للصراع، مع اختلاف الشخصيات، في كثير من الأفلام السينمائية التي يقبل عليها الناس. حيث يشير أحد مؤرخي تاريخ المعتقدات الدينية، وهو مرسيا إلياد، إلى وجود :»خط مميز وشائع في كل هذه الأساطير، هو الخوف أو خيبة أولى للبطل...». لكن يعقب ذلك انتصار الإله أو البطل. ففي الديانات القديمة نجد «لازمة» ثابتة، هي عبارة عن معركة ضد إله أو شيطان غول أو أفعواني أو بحري (التنين)، والأمثلة على ذلك: المعركة التي دارت بين رع وأبوفيس في الديانة المصرية القديمة، والمعركة بين الإله السومري نيفورتا وأساج، والمعركة بين الإله مردوخ وتيمات في أسطورة الخلق البابلية، والمعركة بين الإله الحيثي والأفعى إلويانكا، والمعركة بين زيوس وتيفون في الديانة الإغريقية، والمعركة بين البطل الإيراني ترايتورا والتنين ذي الرؤوس الثلاثة. واتسمت كل هذه المعارك الأسطورية في تلك الديانات بفشل الإله في الجولة الأولى، ثم انتصاره في النهاية؛ فمردوخ، ورع، ترددا قبل دخول المعركة، وتوصلت الأفعى إيلويانكا لبتر عضو من الإله، وتمكن تيفون من قطع عرقوبي زيوس، وأسرع إندرا بالهرب عند رؤيته لفريترا، لكن كل هذه المعارك انتهت لصالح الإله ضد خصمه الشرير.

وتتصور الهندوسية المبدأ الأول للوجود على أنه البراهما الذي يتجلى في ثالوث إلهي:

١- البراهما (المذكر)، صاحب النشاط المنتج والمنجب، فاطر العالم، كبير الآلهة، الخ.

٢- فشنو أو كريشنا، الذي يحفظ ويصون، والذي يتجسد فى أشكال كثيرة لا حصر لها.

٣- شيفا الإله الشرير الذي يدمر. يبغض البشرية، ويسبب لها الكوارث والأمراض. وشريك عدد من الكائنات الشيطانية. وصفاته متناقضة فهو بجانب الصفات الشريرة السابقة يوصف كذلك بأنه طبيب الأطباء، فسحره الغامض يمكن توجيهه نحو الأهداف الخيرة.

ويعبد الهندوس عضوه التناسلي فقط «اللنجا»، ويمثلون اللنجا فى شكل وثن وعلى هيئة تمائم ترمز إلى العلاقة الجنسية، ويلبسها بعض الهندوس فى العنق أو فى الذراع وتوجد أوثانه بكثرة فى معبد نياليز وغيره فى بنارس، وفى معابد شيفا بجنوب الهند. ويغسلون اللنجا كل يوم بماء نهر الجانج فى معبد رامشفارام، ثم يباع بعد ذلك للمتدينين! مثلما يباع الماء المقدس عند اليهود، ومثلما يباع الماء المقدس فى بعض بلدان أوروبا وغيرها. واللنجا تُعبد بطقوس تشتمل على صب الماء أو الزيت المقدس على حجر اللنجا، ثم يتم تزينه بأوراق الشجر. وتوجد عبادة العلاقة الجنسية فى الهند منذ القدم وحتى الآن. ويعتقد الكثيرون أن (شيفا) هو الشيطان في الديانة الهندوسية نظراً لما يقوم به من أعمال شريرة، بينما يعتقد البعض أنه إله للشر وليس شيطانا شريراً بطبعه، لأنه يدمر ويهلك لاستمرار الحياة في هذا الكون.

وفي فارس اتخذ الشر شكلا إلهيا مزيفا أيضا؛ ففي ديانة زرادشت(٦٦٠- ٥٨٣ ق. م) المحرفة (الأصلية توحيدية وليست ثنائية كما تدل ترانيم زرادشت)، إيمان بنوع من ثنائية الإلهي: الأول باسم أهورامزدا، وهو الإله المضيء والظاهر فى ذاته، ونقيضه هو أهريمان، أى الظلام، وهو نجس فى ذاته. فمملكة النور لا تستقل وحدها بالعالم، وإنما تقف على النقيض منها مملكة الظلام، وعلى رأسها أهريمان. وينتمي إليها الشر الروحى والطبيعى، وكل ما هو هدام وسلبى. غير أنه غير مسموح لأهريمان إله الشر أن يوسع نفوذه ويبسط سلطانه، حيث إن العالم فى مجموعه يسعى إلى تدمير مملكة الظلام وإزالتها نهائيا، وتأمين حضور أهورامزدا وسيطرته على كل مناحي الحياة. ووفق هذا التصور لطبيعة الإلهي، تأتى العبادة فى الزرادشتية، حيث ينبغي على الإنسان أن يكرس حياته كلها من أجل مملكة النور، فيعمل على تطهير جسمه وروحه، وإشاعة الخير حوله، وأن يتعبد بالقول والفكر لأهورامزدا وكل ما هو منبثق عنه، ومحاربة أهريمان وكل نشاط منبثق عنه. إن المجوسي لا يوجه صلواته فقط إلى أهورامزدا، وإنما كذلك إلى جميع ما انبثق عنه تبعا لدرجته ومقامه من الطهارة والصلاح. فبعد الصلاة إلى أهورامزدا يصلى المجوسي إلى « الأمسشسباندات «وهى الانبثاقات الأولى لأهورامزدا والأكثر سطوعا وتجليا، والتي تحيط بعرشه، وتساعده فى حكم العالم!

وتستهدف الصلاة التي توجه إلى تلك الأرواح السماوية- خواصها ومهامها بالتحديد، فإذا كانت من الكواكب، فإن الصلاة توجه إليها في زمن ظهورها، وترتفع الابتهالات إلى الشمس نهارا، وتختلف طبيعة الابتهالات تبعا لحالة الشمس، من شروق إلى تعامد إلى غروب. ويصلى المجوسى فى فترة الضحى لأهورامزدا فى المقام الأول حتى يزيد من سطوعه وتجليه، وعندما يأتي المساء يصلى توسلا لأهورامزدا من أجل أن تتم الشمس مسارها. وعندما جاء الإسلام نهى عن الصلاة في تلك الأوقات درءا للتشبه بالمجوس وحرصا على التفرد والتوحيد الخالص. (انظر كتابنا: مدخل إلى فلسفة الدين).

ويستمر الخيال الإنساني في ضلاله على حساب مساحة العقل النقدي. وهذا الأخير لا توجد له أية مساحة في عقول عنكبوتية تتعامل مع الدين بوصفه عصبية وانتماء قبليا. أما الإله الذي نؤمن به نحن فليس كمثله شيء، وهو لا يُهزم، لأنه أساسا لا يتعارك ولا يتصارع ولا يتنافس، فهو أكبر وأعلى وأجل من ذلك، ويجب أن يتوقف الإنسان عن المقارنة بين الله وبين أي شيء إيجابا أو سلبا، ويجب أن يتوقف عن تصوره على أنه على شاكلة الإنسان أو شاكلة أي شيء؛ فكل ما خطر على بالك بشأنه فإنه بخلاف ذلك. سبحانه وتعالى عما يصفون».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٤)

٤ أكتوبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«كثير من التصورات التي نعدها الآن من الخرافات والأساطير، كانت في الأصل معتقدات راسخة يقاتل الناس بعضهم بعضا من أجلها. وبمرور الوقت وتطور العقل الإنساني وتقدم العلوم، أصبحنا ننظر إليها بوصفها حكايات للتسلية في أوقات الفراغ.

إذن كانت توجد تصورات تعدها بعض الشعوب معتقدات راسخة وحقائق مطلقة وذات مستوى صحة في أعلى درجات اليقين في تفسير الكون وظواهره وفي فهم الحياة الإنسانية وأحداثها، وفي تفسير ظواهر الخير والشر، وفي تفسير التاريخ. وكثير من تلك المعتقدات كانت تنشأ في البداية بمجموعة من الحقائق ثم يُضم إليها تدريجيا مجموعات من الخرافات في منظومة واحدة، ثم تنمو هذه المنظومة حيث تتحول إلى ما يشبه كرة الثلج التي تتدحرج على الجليد فتزيد تدريجيا، وهكذا كانت المعتقدات أو الأساطير تنمو تدريجيا خاصة مع الروايات الشفهية التي تفتح المجال لمزيد من الإضافة والتحريف في كل مرة لمزيد من تحقيق الإثارة أو لمزيد من التوظيف السياسي والاجتماعي لتحقيق مصالح جديدة.

وآمنت شعوب بأكملها بهذه المعتقدات كمسلمات، ليس فقط كمعتقدات دينية بل أيضا كحقائق علمية في تفسير نشأة الكون وتفسير الظواهر الطبيعية وكيفية خلق الإنسان وتطوره على الأرض. وتحول كثير من تلك المعتقدات عند كثير من الشعوب، إلى التصنيف لاحقا كأساطير وأضغاث أحلام وحكايات تشكل جزءا من التراث الأدبي، مثل الأساطير المصرية القديمة، والأساطير العراقية والسورية، والأساطير الهندية والفارسية، والأساطير اليونانية والرومانية، إلى آخره.

لكن عصر الأسطورة لم ينته بعد، فهناك مجموعة أخرى لا تزال حية كمعتقدات تدافع عنها بعض الشعوب والطوائف كعقائد مطلقة تُقام من أجلها الحروب المقدسة! ومن أسف تسللت بعض تلك الأساطير إلى معتقدات بعض الطوائف من المنتمين إلى مجموعة الديانات الإبراهيمية، أي الديانات الكتابية للأنبياء من سلالة إبراهيم عليه السلام، حيث تسللت الأساطير عبر الفرق الدينية إلى معتقدات كثير من الناس نتيجة ما أضافه منها بعض رجال الدين إلى المعتقدات الأصلية. ولذلك يتحمل بعض رجال الدين والفرق الدينية المسئولة كاملة عما لحق المعتقدات الأصلية من تحريفات وإضافات. كما أن الأساطير لا تزال تعيش في كل ديانات العالم الأخرى التي نطلق عليها في ثقافتنا مصطلح «ديانات وضعية».

ونضرب بعض الأمثلة الجديدة من التصورات الأسطورية للشيطان من مجموعة متنوعة من الديانات التي ربما لا يسمع عنها البعض، والتي انتهت من الوجود كديانات مستقلة، لكن معتقداتها (أساطيرها) تسللت إلى بعض فرق الديانات الكتابية وأخذت صورة جديدة فيما يمكن أن يُطلق عليه التشكل الكاذب. وقد سبق أن تحدثنا عنها في كتاب (تطور الأديان)، وكتاب (مدخل إلى فلسفة الدين) وغيرهما. ومن تلك الديانات الديانة الميثرائية، وكانت الديانة الميثرائية ديانة وثنية من أصل هندي فارسي، لكنها انتشرت بعد الإسكندر الأكبر عبر آسيا الصغرى في الغرب وبلاد البحر المتوسط في أوربا، وانتشرت في الدولة الرومانية خاصة بين الجنود الرومان، ووصلت قمة انتشارها في الدولة الرومانية في القرن الثالث الميلادي. وهذه الديانة نوع من الديانة الزروانية الفارسية التي كان يعبد فيها كل من «ميثرا» إله الشمس، و«انكرامايندو» إله الشر. وكان اتباعها يمارسون شعائر وتعازيم خاصة لتجنيد الشياطين في خدمتهم واستخدامهم ضد أعدائهم أملا في القضاء عليهم. لكن كان بها فرع يقوم على عبادة إله الشر أو الشيطان فقط وممارسة السحر والجحود والإباحيات. وكانت الميثرائية كديانة للجيش الفارسي القديم تنتشر في الأقطار التي تصلها الجيوش الزروانية، كما اعتنقها الجنود الرومان وزاد انتشارها معهم، لكنها واجهت ضربة قوية من الديانة المسيحية في القرن الرابع بعد الميلاد، وتعرض أتباعها لاضطهاد شديد. ومع ذلك تخفت وتسللت إلى عقائد بعض الفرق في صورة جديدة وفي نوع من التشكل الكاذب، ولا يزال يؤمن بها البعض بطريقة أخرى دون أن يدري أصلها الوثني.

والشيطان بمفهومه هذا لا يكاد يكون له وجود في أساطير اليونان، لكن توجد أرواح شريرة تسمى (Alastores)، وهي تحاول دائماً أن تزين الضلال للناس ليسلكوا طريق الشر. أما الغنوصية في القرن الأول للميلاد فقد أدخلت كثيراً من السحر والشعوذة في تعاليمها، وقالت بإمكانية السيطرة على القوى الخفية كالشياطين وغيرهم. وتأثرت في مراحلها المتأخرة بالديانة الثنوية، حيث اعتبرت الشيطان مساوٍ لله في القوة والسلطان! ومن أسف تسرب هذا المعتقد المزيف إلى طوائف من ديانات أخرى.

وفي تاريخ التراث الإسلامي، وصل الحال بالبعض إلى عبادة الشيطان، وتنسب عبادة الشيطان في التاريخ الإسلامي إلى اليزيدية التي نشأت بعد انهيار الدولة الأموية، ويقطن أكثر أتباعها الشمال الشرقي من الموصل، وبغداد، ودمشق، وحلب، ومنهم طوائف في إيران وأوران الروسية. وتقوى الشكوك حول ما يشيع عن هذه الطائفة عند التدقيق العلمي؛ لأن أغلب الدراسات الشائعة تقول بعبادتهم للشيطان، بينما ثمة دراسات حديثة لاسيما من أبناء هذه الطائفة تنفي هذا. والرؤية التقليدية هي أن اليزيدية تدين بعبادة الشيطان بسبب تأثرها بالعقيدة الزرادشتية المحرفة، فهم بقية عبدة أهريمان، وقيل لأنهم يعتقدون أن الشيطان تاب والله قبل توبته، فرجع يتعبد مع الملائكة. والذي أسسها حسب هذه الرؤية هو عدي بن مسافر المتوفى حوالي سنة ١١٥٤ م الذي قال بتحريم لعن الشيطان. وهناك من يرى أن اليزيدية أخذت هذه التسمية من تأليههم ليزيد بن معاوية. ويعتقد آخرون بأنها ظهرت في العصر العباسي. ولليزيدية كتابان مقدسان أحدهما يسمى «الجلوة» وفيه خطاب الإله إلى اليزيديين خاصة ويشتمل على عقيدة تناسخ الأرواح، ويؤكد على أن الكتب السماوية بُدلت وحُرفت. أما الكتاب الثاني فيسمى «مصحف رش» أي الكتاب الأسود، وفيه الشرائع التي أنزلت إليهم. ومنها الإباحية، وشرب الخمر، وارتكاب الفواحش.

لكن يدافع د. ميرزا حسن دنايي عنها ويرى أنها بريئة من عبادة الشيطان، وتؤمن بالله الواحد الأحد ولا تقبل له شريكا، وطاووس ملك هو عندهم اسم من أسماء الله. وظهر هذا الاتهام ضدها في العهد العثماني عام ١٧٩١ لأسباب مغرضة حينما أصدر أحد الأئمة وبتحريك من سليمان باشا فتوى تحرض على قتل اليزيدية، لغايات سياسية بحتة من أجل الاستيلاء على أملاكهم وعقاراتهم وسبي نسائهم. والإله حسب اليزيدية هو الذي خلق نفسه، ومن ثم خلق كل شيء بما فيه الخير والشر. واليزيديون يحرمون الأعمال الشريرة والتعدي على الغير، ويقدمون جل احترامهم- حسب قول ميرزا- لأتباع كافة الديانات الأخرى ولكل الأنبياء والرسل والكتب والتعاليم المقدسة. بل يزعم ميرزا أنهم لا يؤمنون بوجود الشيطان أو ملاك الشر؛ حيث إن الملائكة السبعة في اللاهوت اليزيدي خيرة كلها وتدير أمور الدنيا بأمر من الله تعالى. هكذا يدافع ميرزا حسن دنايي عنها ويرى أنها بريئة من عبادة الشيطان.

ومن وجهة نظري يبدو أن الطائفة اليزيدية تقلبت في أطوار مختلفة على مر القرون، فدخلتها عناصر غنوصية ويهودية ونصرانية وفارسية، كما تأثرت بالإسلام، وتوالى عليها التحريف والنقص والتبديل حتى اليوم. ويبدو أن رأي د.ميرزا يدور حولها في مرحلتها الأخيرة تحت التأثير الإسلامي. لكنه لا يذكر ذلك.

...

أساطير بعضها فوق بعض، تختفي حينا، وتظهر أحيانا أخرى، تموت ظاهريا في بعض العصور، لكنها تعود في صورة جديدة وشكل مزيف لتندمج مع عقائد أخرى. أساطير لا يكاد ينجو منها إلا من يتمسك بالعقل النقدي والإيمان الكوني بالواحد الأحد والتفسير العلمي للظواهر الطبيعية.

متى يأتي اليوم الذي يتأسس فيه الإيمان على التفسير العلمي للكون وليس على الأسطورة وأوهام الكهنة؟».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٥)

١١ أكتوبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

:» توجد أسباب شتى لتفسير نشأة المعتقدات المزيفة والأسطورية، منها أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية. وقد تكون تلك المعتقدات نتيجة توهمات أو تخيلات أو أحلام أو عقد نفسية أو اضطراب عقلي. وقد يندهش القارئ الكريم عندما يعلم أن كثيرا من المعتقدات المزيفة كانت في نشأتها نتيجة هلاوس، والهلاوس هي اليقين الحسي لدى الفرد أو المجموعة بوجود «كائن محسوس» على الرغم من أن الشخص الطبيعي لا يشعر بوجوده. ويرى المصابون بالهلاوس أشياء غير حقيقية، ويسمعون أصواتا لأشياء غير موجودة، وسماعهم ورؤيتهم لتلك الأشياء تكون متجانسة ومترابطة ولها خصائص المشهد الدرامي المحكم المتحقق في الزمان والمكان بكل حيويته وامتلائه بالإحساس والحيوية! وهنا يتكون لهم يقين مطلق بها! والحال نفسه والمواصفات ذاتها تجدها في كثير من الأنساق العقائدية لكثير من الفرق والمذاهب الدينية التي يتقاتل الناس من أجلها!

وهذا في الحقيقة مرض عقلي لكن صاحبه لا يعي ذلك. ومن أسف فإن الهلوسة في شكلها هذا تهيئ للشخص أنه يرى ويسمع كائنا غير موجود، ويعتقد أن هذا الكائن متجسد في الواقع الخارجي ماديا، بينما هو من صنع عقله المريض.

ويوجد اختلاف بين الهلاوس والحلم؛ لأن الهلاوس تحدث في اليقظة وفي أثناء الوعي، أما الحلم فيحدث في النوم عند غياب الوعي. وبالمناسبة بعض المعتقدات المزيفة تكون أيضا نتيجة الحلم أثناء النوم، لكن الشخص عندما يستيقظ يعدّها رؤية لواقع حقيقي، مثلما يحدث لكثير من مدعي النبوة. ويختلف الحلم عن التخيل؛ لأن التخيل يكون أثناء اليقظة والوعي ويكون للإرادة دخل فيه، أما التخيل فيكون متعلقا بأشياء واقعية لكن الخيال يضفي عليها ما ليس فيها ويعدل في طبيعتها.

ومن جهة أخرى تختلف الهلاوس عن التوهم؛ لأن التوهم يكون تفسيرا إدراكيا محرفا ومشوها لشيء موجود بالفعل لكن الشخص المتوهم يراه على غير حقيقته، أو يعطيه معنى زائدا. ومن الممكن أن يجعل التوهم الشخص يرى شيئا قبيحا مع أنه في الواقع جميل، أو العكس. ومن الممكن أن يكون الشيء ضعيفا صغيرا لكن المتوهم يراه قويا ضخما. والفرق بين التخيل والتوهم أن التوهم لا إرادي.

ونرجع للهلاوس مرة أخرى، وهي غالبا ما تكون تصورا لكائنات محسوسة توجد عادة في الواقع، لكن المهلوس يراها أو يسمعها ويتصور وجودها في لحظة ومكان لا تكون موجودة فيهما، مثل الذي يرى وجود قطة على الرغم من عدم وجودها. ويوجد نوع يُطلق عليه «الهلاوس الكاذبة»، وفي هذا النوع يرى الشخص كائنا لا يوجد على الإطلاق. وهذا النوع يمكن أن يفسر كثيرا من نشأة المعتقدات المزيفة. والهلاوس أنواع متعددة، مثل الهلاوس البصرية، و الهلاوس السمعية، و الهلاوس اللمسية، و الهلاوس الشمية، و الهلاوس التذوقية.

ولعل من أفضل الأمثلة على المعتقدات المزيفة التي تنشأ نتيجة الهلاوس بأنواعها، خاصة «الهلاوس الكاذبة»، معتقدات عبادة الشيطان في العصور الوسطى الأوربية؛ حيث عاد الشيطان كإله الشر في تلك العصور. وعلى رغم من عدم وجود كيان شيطاني قوي عند اليونان فقد نشأ الإيمان بإله الشر في الغرب عند بعض الفرق الخارجة على المسيحية تحت تأثير الديانة الزروانية الفارسية وبعض نصوص العهد الجديد المتأثرة بالثنوية. وأبرز فرقه «البوجمولية» المنشقة عن المسيحية في آسيا الوسطى والبلقان. وتؤمن بإله شرير وإله خير، وأنزلت إله الشر «ساتانيل» منزلة رفيعة، واعتبرته الابن الأول المتمرد على الإله الآب، وآمنت بأن إله الشر خلق العالم وآدم من أجل احتباس الروح في المادة. وأرسل الله الآب ابنه الثاني المسيح من أجل إنقاذ العالم. وتم إعدام مؤسسها سنة ١١١٨م.

وفي القرن الحادي عشر نشأت فرقة أخرى هي «الألبجنسية» بجنوب فرنسا، تتوهم أن الأرواح خلقت من مبدأ خيّر، بينما المادة خلقت بواسطة مبدأ الشر الأزلي. وتعتقد أن الله لم يخلق هذا العالم المادي، بل هو من خلق الشيطان. وهي منشقة عن المسيحية، وتعتبر أن المسيح ملاك وأن جسده وهم أو شبح. وهي ليست إباحية، وتحرم الفواحش، وتدعو إلى العمل، وتنكر البابوية الكاثوليكية وتعتبرها دجلا.

وثمة فرقة أخرى منشقة عن المسيحية ظهرت في ألمانيا في القرن ١٢ ، هي «الكاثارية»، وتقوم عقيدتها على احتقار الحياة والمادة لأنهما من صنع إله الشر الذي سجن الروح في المادة، ولهذا الإله النفوذ والسيطرة على الأرض. ولذا أرسل الإله الأكبر المسيح إله الخير ليعلم البشرية طريقة النجاة! وفي عام ١٢٠٨م شن عليهم البابا أنوسينت الثالث حرباً دامت عشرين عاماً، تلا ذلك ظهور محاكم التفتيش فتم القضاء عليهم في القرن الرابع عشر.

ولم تعبد هذه الفرق إله الشر على عكس ما هو شائع، لكن من جهة أخرى ظهرت عبادة الشيطان في الغرب في القرون الوسطى، وتدور حول الاعتقاد بأن الشيطان إله الأرض، والله إله السماء، وهما متكافئان في القوة، ويتصارعان صارعا قويا، ويتساجلان النصر والهزيمة، ولذا فالعالم محل نزاع بين القوى السفلي الممثلة للشر والقوى العليا الممثلة للخير. وتكشف الحالة الحاضرة للصراع عن انتصار الشيطان؛ حيث تبدو واضحة سيادة الشيطان على العالم الأرضي، لذا يرون من الضروري التقرب من الشيطان واتباع أوامره خوفا من شروره! وقد مارس عبدة الشيطان طقوسهم بعيدا عن الأعين في الجبال والغابات والأودية، في حفلات جنسية إباحية وتضحيتهم بالبشر وخاصة الأطفال وأكل لحومهم. وسبوا المسيح وحواريه والقديسين، ودعوا إلى الانتقام من البابا والملوك المسيحيين وتدنيس كل ما هو مقدس. ويزعم بعضهم أن الشيطان يزورهم في صورة امرأة.

وقد وصلتنا وثيقة من عام ١٠٢٢م في أورلنس بفرنسا، أشارت إلى أنه حوكم عدد من الأفراد لاشتراكهم في عبادة الشيطان. كما ظهرت فرق مشابهة في إنجلترا والنمسا تبتهل للشيطان. وقد اكتشفت الكنيسة هذه الفرق، وقامت بحرق مجموعة من أتباعها وقتلت زعيمها ما بين عام ١٣١٠م وعام ١٣٣٥م . ولكن الحرق والقتل لم يقضِ على عقائدهم الشيطانية، إذ ظهرت بمدينة «تولوز» جماعة تدعو لنفس العقائد، لاسيما التضحية بالأطفال، وقد خطفت مئات الأطفال لهذا الغرض بين عامي ١٤٣٢-١٤٤٠م.

وثمة إشارات في المراجع المختلفة تصنف فرسان الهيكل وجمعية الصليب الوردي في القرون الوسطى مع عبدة الشيطان وتنسب لهم كثيرا من المعتقدات المذكورة أعلاه. وظهر في القرن السابع عشر فرق مشابهة مثل «ياكين»، والشعلة البافارية، والشعلة الفرنسية، وأخوة آسيا؛ وكلها ذات طقوس ومفاهيم تؤله الشيطان. (انظر كتابنا: مدخل إلى فلسفة الدين).

...

وسوف تستمر الأوهام، والتخيلات، والهلوسات، وأضغاث الأحلام، مالم يسد العقل النقدي ويحل العلم محل الخرافة، ويتم علاج المنفصلين عن الواقع!».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٦)

١٨ أكتوبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«ألا ما أسخف بعض البشر الذين يحولون الأوهام إلى وقائع، ويجسدون الهلوسات في معتقدات، وينقلون أضغاث الأحلام إلى الطقوس والعبادات، ويجعلون التخيلات كائنات محسوسة، ثم يدافعون عنها بحياتهم!

والمشكلة الأكبر أن تلك المعتقدات المزيفة تختلط بمرور الوقت بدين التوحيد الخالص، ويسير على طريقها الضالون. والضال هو مَن لديه يقين مطلق بوجود بعض المعتقدات مع أنها متوهمة لا برهان عليها من الواقع أو العقل، والضال هو مَن يتبع أقوال الشخصيات التي تدعي القداسة دون فحص أو مراجعة، والضال هو مَن يسير في كل الطرق الخاطئة عدا طريق البرهان، والضال هو من يتأثر بالأقوال الخطابية والجدلية التي تخاطب المشاعر ولا تخاطب العقل المنضبط.

والفرق بين العاقل والضال هو بدرجة الفرق نفسها بين الشخص الطبيعي الذي يرى الواقع في حجمه وحدوده الطبيعية، والشخص المهلوس الذي يملك يقينا مطلقا بوجود كائنات محسوسة متجسدة في الواقع الخارجي ماديا، على الرغم من أنها غير حقيقية وغير موجودة. والعاقل هو من لا يلجأ إلا إلى الله تعالى وحده، والضال هو مَن يجعل بشرا وسطاء بينه وبين الله سبحانه سواء في العبادات أو المعتقدات. والعاقل هو من يرجع إلى البرهان ومصادر الحقيقة مباشرة، والضال هو من يأخذ بأقوال بشر تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة. والعاقل هو من يأخذ الدين من الوحي النقي، والضال هو من يأخذ الدين من الكتب الصفراء التي تعجّ بتحريف معاني الكلمات الإلهية.

وتأخذ المشكلة في عصرنا صورا أخرى عند المنفصلين عن الواقع بدرجة ما، حيث لا تأخذ ذلك الشكل الصارخ من الهلاوس والهلوسات، بل تتخفى في أنواع وصور ودرجات من الانفصال الإدراكي عن الواقع! مثل ذلك الذي يظن أنه سيد العالم بينما هو في ضعف وجهل يراه العقلاء ولا يراه هو ولا أتباعه! وهذا الانفصال الإدراكي لا يصيب العوام فقط، بل يصيب قطاعا من المتعلمين الذين تعلموا بالطرق التقليدية، بل ويصيب قطاعا من الزاعمين لتمثيل الدين والحديث باسمه!

وبين نقطة الهلاوس ونقطة الانفصال عن الواقع خط ممدود، وبين النقطتين تدرج من النقاط يقف عند كل منها طائفة من الواهمين المخادعين الذين يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس دون وعي ذاتي. وقمة الهلاوس رؤية كائنات غير موجودة والاعتقاد في معتقدات كاذبة، وفي آخر الخط من الجهة المقابلة أولئك المنفصلون والمعزولون عن الواقع والتاريخ، وأيضا أولئك الذين يدركون الواقع إدراكا مزيفا ومشوها. وهؤلاء وأولئك لدينا منهم الكثيرون الذين يقفون عند درجات متفاوتة من الانفصال الإدراكي عن الواقع وعن التاريخ وعن النفس. وأنا هنا أستخدم مفهوم «الانفصال عن الواقع» بدلالة غير متقيدة بمفهوم علم النفس، ولا أقصد المرضى الحقيقيين طبقا لعلم النفس، بل أقصد مرضى الوعي الزائف الذين ينفصلون عن إدراك الواقع الحقيقي والتاريخي وموازين العلوم وموازين الأفكار والمعتقدات المنضبط، ويضللون العوام ويتحكمون بهم بزعم قداسة مزعومة! والذين يريدون تحويل الدين إلى كهنوت وأسطورة.

ولا نريد أن نضرب أمثلة عليهم، فهم يحيطون بك من كل جهة، ولا تندهش من قولي هذا؛ فهذه هي الحقيقة التي تدل عليها كافة مظاهر الفكر الرجعي والتخلف العلمي والزيف العقائدي ونمط الحياة غير الحضاري.

وسوف أضرب لك أمثلة من مجتمع آخر، هو الغرب، وهذه الأمثلة لا تعكس حالة عامة هناك، بل تعكس تيارا شاردا عن الروح العامة في الغرب. وما ينطبق على الجزء لا ينطبق على الكل. وتكشف هذه الأمثلة عن أن الهلاوس تصيب كل شارد عن الواقع المتعين.

ولقد أصابت الهلوسات طوائف في المجتمع الغربي رغم دخول الغرب في عصر الحداثة والعقلانية؛ حيث بُعثت عبادة الشيطان من جديد في العصر الحديث. وتدور عقائد عبدة الشيطان عامة على أن الشيطان يمثل ويعبر عن الوجود الحقيقي والتواجد الحيوي والروحانية الحقيقية والفكر الذكي، في مقابل الأمل الكاذب الوهمي! والشيطان المزعوم الذي يعبدونه يدعو إلى الانتقام، بدلا من الحب الزائف للحاقدين وجاحدي الجميل. ويمثل الشيطان عندهم الحكمة غير المزيفة في مقابل ما يوجد في الأديان من خداع النفس بأفكار زائفة؛ فالشيطان يعبر عن الانغماس الذاتي في الأهواء والشهوات والتمتع ويقبل كل ما يطلق عليه خطايا أو آثام باعتبارها طاعات؛ لأنها تؤدي إلى الإشباع العضوي والعقلي والعاطفي.

وفي القرن التاسع عشر دعا إلى عبادة الشيطان الساحر الإنجليزي بريت أليسر كرولي Brite aleiser Crowly ١٨٧٥-١٩٤٥. ومع دخول القرن ٢٠ إلى منتصفه، دخل هذا الدين الخرافي مرحلة ثانية، بصدور كتاب لا فالي «الكتاب الشيطاني المقدس» سنة ١٩٥٧، شرح فيه طرق ممارسة شعائر عبادة الشيطان، والأركان الأساسية للإيمان بالشيطان كإله تتجسد قوته في التحكم بعناصر الطبيعة، وإنكار البعث والجنة والنار. ومن ثم دعا إلى استغلال الحياة في ممارسة كل الرغبات، والشذوذ، والسحاق، والاستعانة بالسحر والشعوذة للحصول على أي شيء، ودعا إلى عدم قتل الحيوانات (عدا البشر) إلا دفاعا عن النفس أو لتقديمها قربانا للشيطان!

وفي سنة ١٩٦٦ ظهر كتاب «إنجيل الشيطان» في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية، وأسس مؤلف الكتاب انطوان تليدر ليفي أول معبد لعبادة الشيطان، ثم أنشئت معابد أخرى في عدة بلدان أمريكية وأوربية. وفي هذا السياق من التخبط الذهني والروحي ظهرت عدة مؤلفات له: «الطقوس الشيطانية»، و«الساحر الشيطاني»، و«مذكرة الشيطان». كما ظهرت كتابات أخرى مثل: «صمت إبليس» تأليف لورانس بازدر. وتكونت طائفة أخرى بزعامة «مايك وازنكي» تزعم أن الملة الشيطانية، تشمل بعض التيارات المسيحية مثل روحانية العصر الحديث. كما توجد جماعات عبدة الشيطان في منطقة «برواكن بابك» المقدسة عند عبدة الشيطان بجبال هيرتس بألمانيا.

وفي عام ١٩٨٠م فضحت ميشيل سميث في كتابها «ميشيل تتذكر» كل رذائلهم، بعد أن خرجت من طائفتهم، ووصفت ما تعرضت له من تعذيب جنسي، وشرحت كيف يقومون بعمليات تضحية بشرية كجزء من سحرهم الأسود الذي يقوم على الاعتقاد بأن الألم الذي يتعرض له الضحايا يزيد من فعاليته.

ومن أسف فقد وجدت هذه المعتقدات الشيطانية لها سبيلا في بعض البلدان العربية، مثل مصر والأردن والمغرب، نتيجة سيطرة خطاب ديني بشري رجعي، ونتيجة حياة الترف والتحلل الاجتماعي والفراغ الروحي الموجود عند بعض فئات الطبقات الغنية. وكل حين وآخر يتم القبض على مجموعة منهم ومحاكمتهم بالسجن.

...

وسوف يعود أولئك بين وقت وأخر، خاصة بسبب حالة الفراغ الروحي وسيطرة خطاب ديني رجعي يغرّد بعيدا عن الوحي الإلهي ولا يهتدي ببوصلة العقل النقدي.

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٧)

٢٥ أكتوبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«تبقى الكلمة الأخيرة في عقائدنا كمسلمين موحدين بالله تعالى ومؤمنين بثوابت الدين، للوحي الإلهي الذي تحررت معتقداته الأصلية في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المتواترة من أوهام الوجدان، وخيالات النفس، وضلالات العقل، وخرافات الأساطير والمرويات الوضعية. تبقى الكلمة الأخيرة للوحي النقي في حدود العقل النقدي. لكن من أسف فإن طوائف من المسلمين لا تزال منفصلة عن الواقع وعن العقل النقدي، بل ومنفصلة عن الإسلام الأصلي نفسه، حيث تملأ عقولها بالأحاديث الموضوعة والإسرائيليات التي ترويها الكتب الصفراء في التراث، بل ويحشو بها بعض المفسرين تفاسيرهم لآيات الله، إنهم لا يحرفون كلمات وعبارات الوحي بتغيير ألفاظها، لكنهم يحرفون معناها ومغزاها، بل ويضيفون عليها من أساطير الأولين الكثير والكثير.

ويصل بهم الحال إلى أن يزعموا أنهم لا يأخذون في العقائد إلا بالمتواتر، لكن إذا فحصت معتقداتهم وكتبهم سوف تجدها مليئة بالضعيف والآحاد والموضوع من الأحاديث النبوية. ويمكن أن تتصفح كتبهم في العقيدة أو الفقه أو في التفسير وسوف تجد حشوا لا طائل من ورائه في فهم كلمات الله تعالى.

أما الخطاب الديني الجديد فيريد فهم كلمات الله تعالى في حدود كلماته، أي تفسير الكتاب بالكتاب، وأيضا فهم الكتاب في حدود السنة النبوية الصحيحة. إن الكتاب مبين، والسنة الصحيحة تبيان إضافي له. أما الحكايات الشعبية والخرافات وأساطير الأولين فإنها تحرف معاني الكتاب عن مواضعها وعن دلالاتها الأصلية. ومن أسف فإن كثيرا من الكتب الصفراء تخلط بين المعاني الأصلية والمعاني المحرفة، ومن أسف فإن هذه الكتب لا تزال تملأ أرفف المكتبات ولا تزال تُدرس ويُرجع لها كمرجعيات علمية ويدافع البعض عنها بوصفها من نفائس التراث الذي انتصرت به الأمة!

نعم إنهم لا يعبدون الشيطان، لكنهم يعتقدون عنه معظم أنواع الأساطير الآتية من عصور الظلمات. ويمكن أيضا أن تتصفح كتبهم المصنفة عن الجن أو عن الشياطين، وسوف تجد برهان ما أقوله لك. ويكفي أن تطلع مثلا على كتاب (آكام المرجان في أحكام الجان) لمحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ الحنفي، أبي عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين (المتوفى: ٧٦٩هـ)، والذي لخصه السيوطي الأشعري في كتاب (لقط المرجان في أحكام الجان)؛ حتى تدرك حجم الخرافات والأساطير والأحاديث الموضوعة المكذوبة والضعيفة التي يستند إليها في حديثه عن الجن والشياطين. وسوف تدرك أيضا أن المعتقدات الأصلية للقرآن والسنة المتواترة قد ضاعت ملامحها في وسط هذا الركام من الخرافات التي ملأت بعض جنبات أروقة التراث؛ حيث سيطرت الأساطير على عقول قطاعات من الأمة، تلك الأمة التي يقود حفظة المتون الحركة الفكرية فيها الآن، ولذا فلا غرابة أنها لا تزال في عصور التراجع!

والدافع الذي يراه الشبلي مؤلف كتاب (آكام المرجان في أحكام الجان) سببا وجيها لتأليف كتابه هو الخلاف حول زواج الجن، وكأنه حل كل مشاكل الواقع الذي كان يعيشه، ثم تفرغ لعلاج مشكلات العوالم الأخرى! يقول : «وَكَانَ السَّبَب في تصنيفه ونسخه على هَذَا المنوال الْغَرِيب وترصيفه، مذاكرة وَقعت في مَسْأَلَة نِكَاح الْجنّ وإمكانه ووقوعه، وضَاق الْمجْلس عَن تقريرها وَتَحْقِيق المباحث فيهَا وتحريرها، ثمَّ رَأَيْت أَن هَذِه الْمَسْأَلَة تَقْتَضِي مُقَدمَات»، ومن بين هذه المقدمات التي يذكرها الشبلي: «أَن من جوز النِّكَاح بَين الْإِنْس وَالْجنّ، إِمَا أَن يشْتَرط في نسَائهم الْإِيمَان، أَو أَن يكن من أهل الْكتاب؛ لِأَن مَا اشْترط في حل النِّسَاء الآدميات أولى أَن يشْتَرط في الجنيات؛ لِأَن الْقَائِل بِجَوَاز نكاحهم لَا يفرق».

ويتحدث الشبلي، بكل ثقة ويقين مطلق، مستندا إلى حكايات شعبية، وليس إلى القرآن والسنة المتواترة، عن كيفية خلق الله تعالى للجن، ويورد حوارات بين الله والجن ليس لها أي مستند سوى أساطير مروية وحكايات مكذوبة، يقول (ص: ٢٦ وما بعدها) : «خلق الله تَعَالَى بني الجان قبل آدم بألفي سنة ... وَكَانَ الْجنّ سكان الأَرْض وَالْمَلَائِكَة سكان السَّمَاء وهم عمارها لكل سَمَاء مَلَائِكَة، وَلكُل أهل سَمَاء صَلَاة وتسبيح وَدُعَاء، فَكل سَمَاء فَوق سمائهم أَشد عبَادَة وَأكْثر دُعَاء وَصَلَاة وتسبيحا من الَّذين تَحْتهم، فَكَانَت الْمَلَائِكَة عمار السَّمَاء وَالْجنّ عمار الأَرْض أهـ. وَقَالَ بَعضهم: عمروا الأرض ألفي سنة. وَقَالَ بَعضهم: أربعين سنة ... وخلق الله (سوميا) أبو الْجِنّ، وَهُوَ الَّذِي خلق من مارج من نَار». هكذا يستند الشبلي في العقائد إلى أقوال مرسلة ومرويات ضعيفة ومكذوبة ليس لها أي سند من علم أو وحي إلهي.

وما يزيد الطين بلة، هو الجرأة على إسناد حوارات إلى الله تعالى دون أي سند من القرآن والسنة المتواترة، حيث يذكر الشبلي بكل بساطة، ومن خلفه السيوطي الأشعري، رواية تتحدث بقين عن حوار دار بين الله تعالى وأبي الجن، وحوار آخر مع آدم أبي الإنس، على النحو التالي:» قَالَ تبَارك وَتَعَالَى: تمنّ. قَالَ: أَتَمَنَّى أَن نَرى وَلَا نُرى، وَأَن نغيب في الثرى، وَأَن يصير كهلنا شَابًّا. فَأَعْطِي ذَلِك فهم يرَوْنَ وَلَا يرَوْنَ، وَإِذا مَاتُوا غيبُوا في الثرى، وَلَا يَمُوت كهلهم حَتَّى يعود شَابًّا يَعْنِي مثل الصَّبِي يرد الى أرذل الْعُمر. قَالَ: وَخلق الله تَعَالَى آدم فَقيل لَهُ: تمن. قَالَ: فتمنى الْجَبَل فَأَعْطِي الْجَبَل. وَقَالَ إِسْحَاق حَدثنِي جُوَيْبِر وَعُثْمَان بإسنادهما أَن الله تَعَالَى خلق الْجنّ وَأمرهمْ بعمارة الأَرْض فَكَانُوا يعْبدُونَ الله جلّ ثَنَاؤُهُ حَتَّى طَال بهم الأمد فعصوا الله عز وَجل وسفكوا الدِّمَاء وَكَانَ فيهم ملك يُقَال لَهُ: يُوسُف فَقَتَلُوهُ فَأرْسل الله تَعَالَى عَلَيْهِم جندا من الْمَلَائِكَة كَانُوا في السَّمَاء الدُّنْيَا، كَانَ يُقَال لذَلِك الْجند الْجنّ فيهم إِبْلِيس وَهُوَ على أَرْبَعَة آلَاف، فهبطوا فأفنوا بني الجان من الأَرْض وأجلوهم عَنْهَا وألحقوهم بجزائر الْبَحْر، وَسكن إِبْلِيس والجند الَّذين كَانُوا مَعَه الأَرْض، فهان عَلَيْهِم الْعَمَل وأحبوا الْمُكْث فِيهَا».

بل يبلغ به اليقين المطلق أنه يذكر عدد السنوات دون أي مستند سوى حكايات مروية دون أي مرجعية من الوحي الإلهي، يقول:» حَدثنَا مُحَمَّد بن إسحاق عَن حبيب بن أبي ثَابت أَو غَيره: أَن إِبْلِيس وَجُنُوده أَقَامُوا في الأَرْض قبل خلق آدم أَرْبَعِينَ سنة...».

ويتعمق في تفصيلات غيبية دون الاستناد إلى القرآن والسنة المتواترة، فيقول:» إِن الله تَعَالَى خلق الْخلق أَرْبَعَة أَصْنَاف: الْمَلَائِكَة وَالشَّيَاطِين وَالْجنّ وَالْإِنْس، ثمَّ جعل هَؤُلَاء عشرَة أَجزَاء، فتسعة منْهُم الْمَلَائِكَة، وجزء وَاحِد الشَّيَاطِين وَالْإِنْس وَالْجنّ، ثمَّ جعل هَؤُلَاء الثَّلَاثَة عشرَة أَجزَاء فتسعة منْهُم الشَّيَاطِين وَوَاحِد الْجنّ وَالْإِنْس، ثمَّ جعل الْجنّ وَالْإِنْس عشرَة أَجزَاء فتسعة منْهُم الْجنّ وَوَاحِد منْهُم الْإِنْس...»، وهو لا يكتفي بالاستناد إلى الأساطير في العقائد، بل يستنتج أيضا في أمور غيبية، يقول الشبيل :» قلت : فعلى هَذَا يكون نِسْبَة الْإِنْس من الْخلق كنسبة الْوَاحِد من الْألف، وَنسبَة الْجنّ من الْخلق كنسبة التِّسْعَة من الْألف، وَنسبَة الشَّيَاطِين من الْخلق كنسبة التسعين من الْألف، وَنسبَة الْمَلَائِكَة من الْخلق كنسبة التِّسْعمائَة من الْألف».

هذا قاسم من الخطاب الديني التقليدي الذي يتغول على الغيبيات ويزعم امتلاك مفاتيحها في مروياته الضعيفة والمكذوبة، أما الخطاب الديني الجديد فلا يزعم معرفة بمفاتيح الغيب؛ لأنه يؤمن بيقين ثابت بقوله تعالى : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...) (سورة الأنعام: ٥٩).

صلوات النور والحياة في ذكرى مولد الحبيب

١ نوفمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«اللهم في ذكرى مولد الحبيب ﷺ، علمنا من لدنك علما نفهم به أن الصلاة على نبيك ﷺ ليست لفظا فقط، بل تخلقا بأخلاقه، ولينه وعفوه، وده ووداده، وقوته المنصفة من أجل الحياة لا من أجل الموت...

اللهم صلي وسلم على الحبيب المبعوث رحمة للعالمين.. محبة وإنسانية وتسامحا؛ فهو الذي علمنا الإيمان بالحياة كنعمة إلهية للجميع، وأن التنوع بين الحضارات والأمم لا يشكل تهديدًا، وإنما هو سنة كونية، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)؛ وهو ﷺ الذي دعا إلى تغيير طريقة تفكير الناس، من أجل أن يتقبلوا فكرة التنوع. ومن ثم يجب تغيير عقول أولئك الذين يعتقدون (لأننا مختلفون يجب أن نكون أعداءً)!

اللهم اجعل المسلمين من قوى التعارف لا الانفصال، وقوى التواصل لا الانعزال، وقوى الانفتاح لا الانغلاق؛ فالحبيب ﷺ هو الذي أكد ضرورة الاختلاف النمطي، وإلى حتمية وجوده حتى يتمكّن كل فرد وكل مجتمع من العيش حسب ما لديه من إرادة وحرية واختيار وبالطريقة التي يرتضيها طالما لا يضر الآخرين (ولو شاء ربّك لجعل الناس أُمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين)؛ فالاختلاف قانون إلهي في خلق الناس. ولو عاد الحبيب ﷺ لأظهر لنا أنه لابد من إعادة بناء الأفكار حول السلام والتعايش الإيجابي بين العالم الإسلامي وغيره من الشعوب؛ فلن يتجاوز العالم المعاصر أزماته، ويترك الجانب الخطأ من التاريخ، دون حوار جاد للحضارات؛ لأن الغاية من اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل وتنوعهم إلى ثقافات ومَدَنيات إنما هو التعارف الذي أكده الكتاب المبين في آيته الخالدة المحكمة (لتعارفوا).

اللهم بصر العالمين بالفرق بين الإسلام والمسلمين، فقد تحمل الإسلام أحكاما جائرة عليه وعلى نبيه الكريم ﷺ بسبب المغالطات المعرفية التي تخلط بين الإسلام والمسلمين؛ فالإسلام هو الدين قرآنا وسنة صحيحة فقط، ولا أحد يتحدث عن الله تعالى إلا مبلغ الرسالة. ومن أسف -يا ربي- قد خلط الناس في أغلبهم بين الإسلام والمسلمين وعدّوا تاريخ المسلمين هو تاريخ الإسلام، سواء في قوتهم أو ضعفهم، وسواء في تقدمهم أو تخلفهم، وسواء في التزامهم بالإسلام أو عدم التزامهم. وتسبب هذا الخلط وتلك المغالطة في إساءة فهم الآخرين للإسلام ونبيه ﷺ، فكلما أخطأ المسلمون ظن الآخرون أن هذا خطأ الإسلام. والخطيئة المعرفية الكبرى أن يتحدث البعض عن تاريخ الإسلام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وهو يقص تاريخ البشر، بينما كان يجب عليه أن يتحدث عن تاريخ المسلمين وليس الإسلام. ومن ثم لابد من التمييز بين الدين من ناحية وطريقة فهمه وتطبيقه بواسطة المسلمين من ناحية أخرى، التمييز بين الدين الإلهي والخطاب الديني البشري، فالدين ﷺ مرة أخرى- هو الوحي، أما الخطاب الديني فهو ما يفهمه المسلمون من الدين ويتجلى في كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم وينعكس على سلوكهم وطريقة حياتهم.

اللهم جدد أمر المسلمين حتى يكونوا جديرين بالإسلام.. إسلام النور والكتاب المبين، إسلام المحبة والإبداع، إسلام التعارف والتواصل والانفتاح، إسلام القوة والعدالة والإنصاف.

اللهم أعن على سد الفجوة الواسعة بين الإسلام والمسلمين، وساعدنا - يارب العالمين- على التخلص من الجمود العلمي والفقهي الذي طالت عصوره، والتخلص من الخطاب الديني الوعظي الإنشائي الفارغ والمنفصل عن تطور العالم وتطور العلوم والثقافات. يارب مددك في نبذ أنماط حياتنا اليومية الرجعية التي لا تأخذ من الحضارة إلا قشورها، واجعلنا من المنتجين للعلوم والتكنولوجيا وليس كالذين يستهلكونها دون إنتاجها.

يا رب، مددك للرجوع إلى الطبيعة الأصلية للدين والمقصد الحقيقي الذي دعا إليه الحبيب ﷺ، وذكرنا بتحذيره ﷺ من خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، وخشيته من «البدع» التي تفقد الدين جوهره وتتحول فيه الوسائل إلى غايات، والنوافل إلى فروض، والشكليات إلى جوهريات، والفروع إلى أصول، والعادات الاجتماعية إلى واجبات دينية!

اللهم اجعل المسلمين من قوى الإبداع، لا الجمود، وعلمهم الفرق بين الابتداع والإبداع، فقد حذر الحبيب ﷺ من «البدع» في مجال العبادات، وليس من «الإبداع الإنساني» في مجال الحياة. ولذا فإنه في الوقت الذي حذر فيه من الأولى، دعا إلى الإبداع في العلوم كلها بما فيها علوم الدين وتجديد فهم المسلمين للدين في جانبه المتعلق بالحياة، حيث بشر بمن يأتي على رأس كل مائة عام مجددا لأمر الدين، أي مجددا للخطاب الديني بغية تخليص فهم الدين من العنصر التاريخي ذي الطابع المؤقت الجزئي والعرضي، مع التدبر والتنقيب لاكتشاف ما هو دائم وكلي وجوهري في الدين، ومع ذلك يتنوع في معناه ليلائم التطور الحادث في ظروف الناس والمجتمع والتاريخ.

اللهم أدبهم بأدب رسولك وتسامحه ومحبته وده ووداده.

اللهم اجعل نصرتهم لنبيك أدبا وإتقانا ونبلا واجتهادا.

اللهم اجعل نصرهم لدينك علما وعطاء وحضارة وتقدما، لا كلمات جوفاء ولا شعارات رنانة.

اللهم اجعل مواقعهم وأفعالهم إحياء للنفس وزخما للحياة، وتقديسا لثقافة النماء والإنتاج التي تجلت في أخلاقيات الحبيب ﷺ، أخلاقيات التقدم التي يشعر معها كل إنسان أن أي عمل إيجابي ﷺ ولو كان صغيرا- سوف يساهم في عملية التنمية والتقدم. يقول الحبيب ﷺ :»إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها». (رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات. الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٤/ص ٦٣. والفسيلة هي النخلة الصغيرة تُقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتُغرس، وتطلق على أي جزء من النبات يُفصل عنه ويُغرس. وقول النبي ﷺ: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة». رواه البخاري، باب ٢٥ إماطة الأذى، ج ٢/ ص ٨٧١).

اللهم أمدنا بمدد من لدنك يجعلنا نسمي الأفعال بأسمائها الحقيقية، مددا نتخلص به من ثقافة العجز والاستهلاك وانقلاب صفات السلوك واختلط الأسماء والأفعال؛ وأن نفهم أن الفهلوة ليست ذكاء، وأن السكوت عن الحق ليس من مظاهر الحكمة، وأن التسامح ليس ضعفا، وأن الاحتيال ليس من علامات العبقرية، وأن الضرب تحت الحزام ليس مؤشرا على الفطنة، وأن النفاق ليس قدرة على الاستمرار، وأن التبرير ليس قدرة على التفسير، وأن نهب حقوق الغير ليست شطارة. يارب نفهم أن الكلام عن التطوير دون فعله ليس تطويرا، وأن القدرة على الكلام ليست قدرة على الفعل. يارب نفهم ظاهرة الذين يفشلون في ملفاتهم فيسطون على نجاحات الآخرين، يارب ارزقنا بمن يفهم أن العبرة بالنتائج على الأرض وليست بالعروض التقديمية ولحن القول!

اللهم صلي وسلم على رسول الإسلام ونبي السلم والسلام، نبي القوة العادلة والمنصفة.. قوة من أجل الحياة.. قوة من أجل التقدم والحرية والنماء للعالم كله وليست للمسلمين فقط.

اللهم اهدنا (سبل السلام)، اللهم أعد بعث نور العقل والكتاب المبين وأخلاق نبيك من أجل العدالة والرخاء والسلم والسلام، واهدنا واهدي من فرقوا دينهم وكانوا شيعا، واهدنا واهدي من يدعو لإمام فرقة أو مرشد جماعة أو شيخ يخاتل العوام. اللهم علمنا أن الشمس والقمر هما القرآن والسنة الصحيحة المتواترة، وليست مؤسسة مزعومة أو حزب فاسد تروج له عمامة من صنعه.

اللهم يسر لنا العودة للمنابع الصافية للوحي والعقل، وقرب خطانا من نهر الحياة حيث النماء وتغريد طيور العقلانية والتنوع والتعايش؛ وحيث يصل صوت الجميع إلى رب العالمين الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، رب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي تتسع سماؤه للجميع، وتشرق شمسه على كل المخلوقات والألوان والأعراق.

وصلي اللهم بارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٨)

٨ نوفمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«من أهم مقاصدنا في تأسيس خطاب ديني جديد، هو الرجوع في العقائد إلى الوحي في نقائه الأول (القرآن الكريم والسنة المتواترة يقينية الثبوت)؛ فلا يعقل أن يأخذ المرء عقائده من حكايات ومرويات بشرية وأحاديث ظنية الثبوت أو ظنية المعنى التي يعج بها الخطاب الديني التقليدي، وتسيطر على قطاعات من المسلمين سواء من العامة أو من رافعي رايات الدفاع عن القديم كله دون تمييز، وكأن كل ما هو قديم مقدس! وكأن كل ما يُكتب في صفحات كتب التراث البشرية له القداسة نفسها التي يتمتع بها الوحي في الكتاب المبين!

والغريب أن هناك من يزعم أنه لا يأخذ من السنة النبوية إلا بالمتواتر ثابت اليقين في الثبوت، لكنه عمليا يخالف ذلك في كتبه وأقواله، حيث يبني جانبا واسعا من عقائده على مرويات ضعيفة أو ظنية الثبوت، بل إنه يأخذ بعض عقائده في الغيبيات من مرويات ليس مرجعها إلى الوحي، بل هي مجرد حكايات يرويها بشر عن بشر. ويزعمون أن ما يقولونه مقدس مع أنه ليس وحيا ثابتا في الكتاب والسنة المتواترة.

ونستمر في ضرب الأمثلة على نوعية تلك العقائد التي يحملونها عن الغيبيات وفي قلبها مزاعمهم عن الجن والشياطين، والتي يوردها كتاب (آكام المرجان في أحكام الجان) لمحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ الحنفي، أبي عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين (المتوفى: ٧٦٩هـ)، والذي لخصه السيوطي الأشعري في كتاب (لقط المرجان في أحكام الجان)؛ وعلى الرغم من أن الشبلي الحنفي والسيوطي الأشعري لا يعرفان طبيعة أجسام الهوام التي تقطن منزلهما، فإنهما يعرفان طبيعة أجسام الجن والشياطين بالتفصيل، ويعرف ذلك مثلهما كل رافعي رايات الخرافة المقدسة والحقيقة المطلقة! ويخصص الشبلي الباب الرابع من كتابه لذلك، أما السيوطي فيدمج الحديث عن أجسام الجن ضمن حديثه عن موضوعات أخرى يتناول فيها الأصل الذي خُلقوا منه وطبيعة أشكالهم وتشكلهم. ويدخل التيار الأشعري مع التيار المعتزلي في عراك حول تحديد طبيعة أجسام الجن، وكأن الاثنين اطلعا على هذا العالم وشاهدا مخلوقاته وأجريا التجارب والمعاينات. ويستدل التيار الأشعري والتيار المعتزلي ضد بعضهما البعض بأقوال مرسلة واستنتاجات جدلية وخطابية دون دليل مباشر من القرآن والسنة المتواترة، ودون أية مشاهدة علمية تخضع للقياس العلمي.

وتطول المعركة بين التيار المعتزلي والتيار الأشعري حول هل أجسامهم كثيفة أم رقيقة؟ وكيف يمكن رؤيتهم؟ ونظرا لأن الخرافة منظومة متكاملة الأركان، فإنهم يزعمون أن رؤية الجن والشياطين منهم ممكنة، «قَالُوا: إنه يجوز أَن نراهم إِذا قوى الله تَعَالَى شُعَاع أبصارنا» (آكام المرجان في أحكام الجان، ص٣٥). وهذا خطأ علمي كبير؛ لأن الرؤية لا تتم نتيجة شعاع يصدر من أبصارنا، بل تحدث في البصر عندما تسقط أشعة الضوء على الجسم الخارجي ثم تنعكس على العين؛ وتقوم القرنية في العين بتجميع أشعة الضوء الساقطة، ثم تنتقل إلى الشبكية، ثم إلى العصب البصري، ثم إلى مركز الإبصار في الدماغ الذي يقوم بتفسير وترجمة الرسائل العصبيّة ويحولها إلى أشكال وصور.

ومن الأمثلة على الاستدلالات والقفزات في الاستنتاج في الكتب الصفراء، التجرؤ على إدخال الله سبحانه وطبيعته وقدراته طرفا في المقارنة مع الإنسان، ينقل الشبلي في ذلك :» قال القَاضِي عبد الْجَبَّار: وَهَذَا لَا يَصح لوجوه، مِنْهَا أَن الله تَعَالَى يراهم وَيرى بَعضهم بَعْضًا، وَلَو كَانَ الْأَمر كَمَا قَالُوا لما جَازَ أَن يرَوا؛ لِأَنَّهُ جعل الْعلَّة فِي جَوَاز كَونهم مرئيين هُوَ إِحْدَاث لون مَخْصُوص، فَإِذا لم يحدث لم يَكُونُوا مرئيين، وَأَن يكون الله تَعَالَى أحدث هَذَا اللَّوْن، فَلهَذَا رَآهُمْ وَرَأى بَعضهم بَعْضًا، فَيجب أَن نراهم نَحن».

هكذا عزيزي القارئ، إنهم يقيسون طريقة الرؤية في الإنسان على الرؤية الإلهية. وهذا عندنا في الخطاب الديني الذي ندعو إليه غير جائز فلا مقارنة بين الله ومخلوقاته، ولا يجوز قياس رؤيتنا على رؤية الله أو العكس، فالله سبحانه (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (سورة الشورى، آية ١١)، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (سورة الإسراء، آية ٤٣).

وتستمر المناقشات الجدلية البيزنطية في العقائد، ومنها، « أَنه لَا يجوز خلو الْأَجْسَام من اللَّوْن أَو ضِدّه، عَن شَيخنَا أبي عَليّ فَلَا بُد من أَن يكون فيهم لون من الألوان، وكل مَا يتضاد على الْجِسْم وَيدْرك بحاسة فَلَا بُد من أَن يدْرك تِلْكَ الحاسة مَا يُنَافيه وبضده. وَقد جعل الله تَعَالَى فِي الْجِنّ اللَّوْن الَّذِي ذكره هَذَا الْقَائِل ورأيناهم ثمَّ نفى هَذَا اللَّوْن بلون آخر لوَجَبَ أَيْضا على مَا قُلْنَا إِن نراهم، فَإِذا كَانَ حكم كل لون هَذَا الَّذِي ادَّعَاهُ فِي أَنه يدْرك بالحاسة الَّتِي يدْرك بهَا هَذَا اللَّوْن وَيدْرك الْجِنّ لأَجله ثمَّ لم تخل الْأَجْسَام من الألوان كلهَا على مَذْهَب شَيخنَا أبي عَليّ وَوَجَب أَن نراهم وَفِي علمنَا باضطرار أَن الْأَمر بِخلَاف هَذَا دَلِيل على سُقُوط هَذَا الِاعْتِرَاض، وَأما على قَول أبي هَاشم فَإِنَّهُ يُجِيز خلو الْأَجْسَام من الْأَعْرَاض كثيفة كَانَت أَو رقيقَة سوى الألوان وَلَو كَانَت كثيفة لم يكن بُد من أَن يَرَاهَا الرَّائِي مَعَ عدم السواتر، وَكَيف يَصح لَهُ هَذَا الِاسْتِدْلَال مَعَ هَذَا القَوْل على أَن الْجِسْم يرى وَإِن كَانَ يرى مَعَه اللَّوْن أَلا ترى أَن الرَّائِي يرى حُدُود الْجِسْم وَطوله وَعرضه وَهَذِه صِفَات الْأَجْسَام لَا صِفَات الألوان فَدلَّ على ان وجود اللَّوْن فِي الْجِسْم لَيْسَ من شَرطه كَونه مرئيا فقد بَان بِهَذِه الْوُجُوه بطلَان هَذَا الِاسْتِدْلَال وَأَن الدَّلِيل فِي كوننا غير رائين لَهُم إِنَّمَا هُوَ رقة أجسامهم على مَا بَينا. قَالَ: وَإِنَّمَا يدْرك بَعضهم بَعْضًا للطافة حواسهم وللطافة تَأْثِير فِي هَذَا الْإِدْرَاك أَلا ترى أَن الْإِنْسَان يدْرك بحدقته من الْحر وَالْبرد مَالا يُدْركهُ بِأَسْفَل قَدَمَيْهِ وَذَلِكَ للطاقة الحدقة وَنحن أَسْفَل الْقدَم وصلابته، فَإِن قيل فِي الْحَاجة فِي رُؤْيَة اللَّطِيف إِلَى قُوَّة شُعَاع الْبَصَر فِي رُؤْيَته، قيل لَهُ : الَّذِي يدل على الْحَاجة إِلَى قُوَّة شُعَاع فِي رُؤْيَة اللَّطِيف لَا يحْتَاج إِلَى مثل ذَلِك فِي الكثيف، أَلا ترى أَنا لَا نرى الرّيح مَا دَامَت رقيقَة لَطِيفَة فَإِذا كثفت باختلاط الْغُبَار رأيناها وَهَذَا ظَاهر فَلذَلِك قُلْنَا لَو كثف الله تَعَالَى أجسام الْجِنّ وقوى شُعَاع أبصارنا على مَا هُوَ عَلَيْهِ من غير أَن يقوى لرأيناهم»، (آكام المرجان في أحكام الجان، ص ٣٦- ٣٧).

هكذا عزيزي القارئ، إنهم مرة أخرى يبنون استنتاجاتهم وأحكامهم العقائدية على قضية باطلة، وهي أن السبب في الرؤية هو الشعاع الخارج من البصر !« .

ضد التصور الأسطوري للشيطان (٩)

١٥ نوفمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«من أسف أنه في الوقت الذي انتصر فيه الوحي على خرافات وأساطير الأولين، قد عادت تلك الخرافات والأساطير مرة أخرى متسللة عبر كتب العقائد والتفاسير والتواريخ وغيرها، تحت زعم قداسة أقوال بعض البشر. ومن أسف أصبحت تلك المرويات بمثابة العدسات الملونة التي ينظر منها البعض إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المتواترة، وقام بعض الوضاعين بنسبة مجموعة منها إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا!

ومن هنا، فإن من أركان البلاء في الخطاب الديني التقليدي، تقديس كلمات تصدر عن شخصيات بشرية تخطئ وتصيب لمجرد انتمائها لفرقة دينية أو زعمها لامتلاك علم الأولين. ولا شك أن هذا انحراف عن الطريق إلى الدين الخالص، ولا شك أيضا أن من يزعم هذا يُخلِّط بعيدا عن وحي الواحد الأحد في كتابه المبين. وهذا النوع من التقديس المزيف منتشر في بعض ربوعنا، ويقتات منه جمع غفير من زعماء القداسة الفارغة، وتقع في براثنه قطاعات من الناس بحسن نية دون أن تدري أنها بذلك تعرض نقاء إيمانها للخطر. ولو كان بالإمكان تحكيم العقل النقدي والوحي الإلهي النقي، لدخل كثير من مدعي القداسة والحديث باسم الله مستشفيات الأمراض العقلية لكي يخضعوا إلى بروتكولات العلاج من أنواع الهلاوس التي يعانون منها.

ومن أسف فإن المعتزلة الذين يرفعون راية المعقول والأشاعرة الذين يرفعون راية المعقول والمنقول يتوسعون في الاستدلالات والاستنتاجات في الأمور الغيبية، ويزيد الأشاعرة على المعتزلة في الاستدلال بالمرويات النقلية الموضوعة والضعيفة ومنها مجرد أقوال لأشخاص ليس لهم مصدر من الوحي الإلهي أو السنة المتواترة. هذا على الرغم من أنهم يرفعون شعارا أنهم لا يأخذون في العقائد إلا بالمتواتر. وما هو إلا شعار، أما الواقع والممارسة فشيء آخر؛ حيث تجد كتبهم عامرة بمرويات ليس لها سند من الوحي الإلهي الذي يملك الله وحده فيه مفاتيح الغيب.

ومن الأدلة على ذلك أن الأشاعرة وكثيرا من الفرق التي فرّقت دينها، يستدلون بأقوال وهب بن منبه في كتبهم وكأنهم يعدونه مصدرا من مصادر معرفة الغيبيات، ومن المعروف أن وهب بن منبه (٣٤ هـ - ١١٠ هـ) يستقي معلوماته ورواياته من الإسرائيليات القديمة وأساطير الأولين وحكايات العرب الخرافية قبل الإسلام، وهنا الإشكالية الكبرى: كيف يسقط تلك المرويات على تفسير العقائد الإسلامية؟ والإشكالية الأكبر: كيف يعده علماء كبار مصدرا من مصادر المعرفة بالغيبيات لمجرد أنه روى حكاية من الحكايات؟ ولماذا نجد اسمه ورواياته تتكرر كثيرا في كتب العقائد والتفاسير.

ولا يحسبن القارئ الكريم أن هذه المرويات الأسطورية عابرة، بل أنها متكررة في كتب الخطاب الديني التقليدي ولا تزال تسيطر على عقول قطاعات كبيرة من المسلمين! ومن أسف فقد نقل عن وهب بن منبه كثير من العلماء الكبار مثل: ابن إسحاق، وابن قتيبة، والطبري، والمقدسي، وابن كثير، والغزالي، والثعلبي، وغيرهم. وهذا مأخذ عليهم، لكننا لا ننكر فضلهم في جوانب أخرى، ولا نحكم عليهم حكما واحدا أبيض أو أسود، فكل منا يصيب ويخطئ، وهم هنا أخطأوا منهجيا في اعتبار حكايات ومرويات وهب بن منبه سندا من أسانيد معرفة الغيبيات، ومصدرا من مصادر معرفة تفصيلات عقائدية، ومرجعا من مراجع تفسير الوحي.

ومن الأمثلة على ذلك، نذكر موضوعا من الموضوعات التي يتحدثون عنها في كتبهم المتناقلة عبر القرون ولا تزال تُطبع حتى الآن، ويذكرون فيها مرويات خرافية عن وهبه بن منبه بوصفها حقائق! وذلك الموضوع أفرد له الشبلي في كتابه (آكام المرجان) الْبَاب الثَّامن وَالثَّلَاثِينَ عن (تحمل الْجنّ الْعلم عَن الْإِنْس وفتواهم للإنس)! وطبعا يذكر السند! :» قَالَ أَبُو بكر الْقرشِي، حَدثنِي عِيسَى بن عبيد الله التَّمِيمِي، حَدثنَا أَبُو ادريس، حَدثنِي أبي عَن وهب بن مُنَبّه، قَالَ: كَانَ يَلتَقِي هُوَ وَالْحسن الْبَصْرِيّ فِي الْمَوْسِم كل عَام فِي مَسْجِد الْخيف، إِذا هدأت الرجل ونامت الْعين، ومعهما جلاس لَهما يتحدثون، فَبينا هما ذَات لَيْلَة يتحدثان مَعَ جلسائهما إِذْ أقبل طَائِر لَهُ حفيف حَتَّى وَقع إِلَى جَانب وهب فِي الْحلقَة، فَسلم، فَرد وهب عَلَيْهِ السَّلَام وَعلم أَنه من الْجِنّ، ثمَّ أقبل عَلَيْهِ يحدثه فَقَالَ وهب: من الرجل؟ قَالَ: رجل من الْجِنّ من مسلميهم. قَالَ وهب: فَمَا حَاجَتك؟ قَالَ: أَو يُنكر علينا أَن نجالسكم ونحمل عَنْكُم الْعلم إِن لكم فِينَا رُوَاة كثيرَة وَأَنا لنحضركم فِي أشياء كَثِيرَة من صَلَاة وَجِهَاد وعيادة مَرِيض وَشَهَادَة جَنَازَة وَحج وَعمرَة وَغير ذَلِك ونحمل عَنْكُم الْعلم ونسمع منْكُم الْقُرْآن. قَالَ لَهُ وهب: فَأَي رُوَاة الْجِنّ عِنْدكُم أفضل؟ قَالَ: رُوَاة هَذَا الشَّيْخ، وأشار إِلَى الْحسن، فَلَمَّا رأى الْحسن وهبا وَقد شغل عَنهُ قَالَ: يَا أَبَا عبد الله من تحدث؟ قَالَ: بعض جلسائنا. فَلَمَّا قاما من مجلسهما سَأَلَ الْحسن وهبا فَأَخْبرهُ وهب خبر الْجني وَكَيف فضل رُوَاة الْحسن على غَيره، قَالَ الْحسن: يَا وهب أَقْسَمت عَلَيْك أَن لَا تذكر هَذَا الحَدِيث لأحد فَإِنِّي لَا آمن أَن ينزله النَّاس على غير مَا جَاءَ، قَالَ وهب: فَكنت أَلْقى ذَلِك الْجني فِي المواسم فِي كل عَام فيسألني فَأخْبرهُ، وَلَقَد لَقيته عَاما فِي الطّواف فَلَمَّا قضينا طوافنا قعدت أَنا وَهُوَ فِي نَاحيَة الْمَسْجِد، فَقلت: لَهُ ناولني يدك فَمد يَده إِلَيّ فَإِذا هِيَ مثل برثن الهر وَإِذا عَلَيْهَا وبر، ثمَّ مددت يَدي حَتَّى بلغت مَنْكِبه فَإِذا مرجع جنَاح، قَالَ: فأغمز يَده غمزة ثمَّ تحدثنا سَاعَة ثمَّ قَالَ لي: يَا أَبَا عبد الله ناولني يدك كَمَا ناولتك يَدي، قَالَ: فأقسم بِاللَّه لقد غمز يَدي غمزة حِين ناولتها إِيَّاه حَتَّى كَاد يصيحني وَضَحك. قَالَ وهب: وَكنت أَلْقى ذَلِك الْجني فِي كل عَام فِي المواسم ثمَّ فقدته فَظَنَنْت أَنه مَاتَ أَو قتل. قَالَ: وَسَأَلَ وهب الْجني: أي جهادكم أفضل؟ قَالَ: جِهَاد بَعْضنَا بَعْضًا».

ويذكر السيوطي الأشعري في كتابه (لقط المرجان) متابعا الشبلي خرافة أخرى تصنف في طبقات الهلاوس البصرية والسمعية، «قَالَ أَبُو عبد الرَّحْمَن بن شكر، حَدثنَا مُحَمَّد بن عِيسَى الجندي، حَدثنَا صَامت بن معاد، عَن عبد الرَّحْمَن بن يحيى، عَن أَبِيه يحيى بن ثَابت، قَالَ: كنت مَعَ حَفْص الطَّائِفِي بمنى، فَإِذا شيخ أَبيض الرَّأْس واللحية يُفْتِي النَّاس، فَقَالَ لي حَفْص: يَا أَبَا أيوب، أَتَرَى هَذَا الشَّيْخ الَّذِي يُفْتِي النَّاس هُوَ عفريت؟ قَالَ: فَدَنَا منْهُ حَفْص وَأَنا مَعَه، فَلَمَّا نظرت إِلَى حَفْص وضع يَده على نَعْلَيْهِ، ثمَّ اشْتَدَّ وَتبعهُ الْقَوْم وَجعل يَقُول: يَا أَيهَا النَّاس إِنَّه عفريت»!

وسوف تستمر هذه الخرافات المضحكة وغيرها في الحديث عن الغيبيات طالما استمر الخطاب الديني البشري الرجعي البعيد عن الوحي الأصلي، وسوف تستمر الضلالات والهلاوس طالما يتمترس أصحاب القداسة المزعومة وراء خطاب تراثي تقليدي مملوء بالغث والثمين، وتجاور فيه الأسطورةُ العلمَ!».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٠)

٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«اتسع المدى الأسطوري الذي وصلت إليه تيارات من التراث يقدسها البعض، في التجرؤ على الحديث عن عوالم لا نراها وليست تحت تجربتنا، واستندوا في ذلك إلى أخبار وروايات مرسلة ومكذوبة، وأحاديث ضعيفة النسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أو مسندة كذبا إليه صلى الله عليه وسلم. ثم يدعون أنهم لا يأخذون إلا بالمتواتر ويخدعون العوام، في ثقافة لا ينتصر فيها إلا أصحاب الصوت العالي بصحبة جوقة من بعض الجماهير المغيبة.

ونعطي بعض الأمثلة على ذلك مما يوردنه في كتبهم المنتشرة في عصرنا عن موضوع سلسلة هذه المقالات، حيث نجد في كتب الغزالي الأشعري (إحياء علوم الدين) ، والشبلي الحنفي (آكام المرجان) ، والسيوطي الأشعري (لقط المرجان)، وهم عادة يصنفون هذا الكتب في كتب العقائد، أقول نجد في هذا الكتب مجموعة ضخمة من الأحاديث الموضوعة والضعيفة والأقوال المأثورة التي ليس لها سند من الوحي الإلهي الذي يملك الله وحده فيه مفاتيح الغيب.

قال الشبلي:»قال أبو الْقاسم السّهيْلي: الْجنّ ثلاثة أصْناف كما جاء في الحديث، صنف على صور الْحيّات، وصنف على صور كلاب سود، وصنف ريح طيارة، أو قال: هفافة ذو أجْنحة. وزاد بعض الرواة: صنف يحلون ويظعنون وهم السعالى. قال: ولعلّ هذا الصّنْف هو الّذي لا يأْكل ولا يشرب إن صحّ أن الْجنّ لا تأْكل ولا تشرب، يعْني الرّيح الطيارة».

ثم يتابع الشبلي (آكام المرجان، ص ٣٨) مستشهدا بالأساطير، ومن ورائه السيوطي الأشعري (لقط المرجان، ص ٢١)، ومن قبلهم الغزالي الأشعري في كتابه (إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٦)، مدعمين تلك الأساطير بحديث ضعيف منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، رواه ابْن أبي الدّنْيا في كتاب (مكائد الشّيْطان)، والحكيم الترمذي في (نوادر الأصول)، أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، فقال: حدثنا الْحسّين بْن عليّ بن الْأسود الْعجليّ، حدثنا أبو شامة، حدثنا يزيد بن سنان أبو فرْوة الرهاوي، حدثنا أبو منيب الْحمصي، عن يحيى بن كثير، عن أبي سلمة ابْن عبد الرّحْمن، عن أبي الدّرْداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليْه وسلم :» خلق الله تعالى الْجنّ ثلاثة أصْناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرْض، وصنف كالرّيح في الْهوى، وصنف عليْهم الْحساب والْعقاب، وخلق الله تعالى الْإنْس ثلاثة أصْناف: صنف كالْبهائم لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله».

وسند هذ الحديث ضعيف جداً؛ لأن أبا منيب الحمصي مجهول. والْحسّين ابْن عليّ بن الْأسود الْعجليّ ضعيف يسرق الحديث. ويزيد بن سفْيان أبو فرْوة الرهاوي، ضعيف.

ومع ذلك يستدلون بهذا الحديث في كتب العقائد وعلوم الدين. والسؤال المنطقي: كيف يستدلون به في أمر عقائدي؟! وحتى لو صح كيف يستدلون بحديث لم يبلغ درجة التواتر في أمر عقائدي!

وليسمح لي القارئ الكريم أن أشغله ببعض المسائل العلمية الفنية التي ليس موضعها المقالات، ولكن حتى يعلم الجميع أننا لا نقول شيئا عبثا، وإنما عن دراسة علمية، وهذا دأبنا في كل المؤلفات والتحقيقات التي أصدرناها عبر أربعة عقود عن دور نشر كبرى، والرسائل العلمية التي أشرفنا عليها، والأبحاث العلمية المحكمة التي ألفناها أو أشرفنا عليها، ومنها مؤلفاتنا في علوم الحديث وتحقيقاتنا لكتب التراث، وتم تدريسها في العديد من جامعات العالم الإسلامي والعربي.

هذا الحديث الذي يستدلون به: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهواتف» (١٥٦)، و «مكائد الشيطان» (١)، وأبو الليث السمرقندي في «بحر العلوم» (١/ ٥٨٤) من طريق حازم بن يحيى الحلواني، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٣٩) (١٠٨١) من طريق أبي جعفر محمد بن العباس الأخرم. وأربعتهم: أبو يعلى، وابن أبي الدنيا، وحازم بن يحيى الحلواني، وأبو جعفر محمد بن العباس الأخرم عن حسين بن علي بن الأسود، به. وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٤٥٨) من طريق محمد بن الحسين الكردي البصري. وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٣٩) (١٠٨١) وفي «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ١٦٩) (١٨٢) من طريق موسى بن عبد الرحمن بن مهدي. وثلاثتهم: حسين بن علي بن الأسود، ومحمد بن الحسين الكردي البصري، وموسى بن عبد الرحمن بن مهدي عن أبي أسامة، به. وقد ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٥٤) (٢٢٨) عن أبي أسامة، به – هكذا معلقاً –. وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» – تحقيق د. التركي – (٦/ ٦٨٢). وأخرجه أبو بكر الذكواني في «الأمالي» (٩٤/ ٢) والحديث ضعّفه أيضا الألبانيّ في «السلسلة الضعيفة» (٨/ ٤٠) (٣٥٤٩). (تخريج أحاديث وآثار حياة الحيوان للدميري من التاء إلى الجيم ، ص: ٨٩٣).

وأقول نقلا، عن مراجع علوم الحديث والجرح والتعديل، إن الحديث مداره على يزيد بن سنان، وقال ابن حبان عنه: «وكان ممن يخطئ كثيراً، حتى يروي عن الثقات مالا يشبه حديث الأثبات، لا يعجبني الاحتجاج بخبره إذا وافق الثقات، فكيف إذا انفرد بالمعضلات؟!». وقال ابن عدي: «له أحاديث مسروقة عن الشيوخ»، وقال ابن معين: «ليس حديثه بشيء». وفي رواية: ليس بشيء. وقال البخاري عنه: «صدوق، مقارب الحديث، إلا أن ابنه محمداً يروي عن مناكير»، ولاحظ هنا أن حكم البخاري عليه بخلاف حكم باقي علماء الجرح والتعديل. وقال أبو حاتم: «محله الصدق، وكان الغالب عليه الغفلة، يكتب حديثه، ولا يحتج به». وضعّفه: أحمد بن حنبل، وابن المديني، وابن معين، والنسائي وزاد: متروك الحديث، والبسوي، والدارقطني. وفي رواية له وللنسائي: ليس بثقة. وقال أبو داود: ليس بشيء، وابنه ليس بشيء. وقال أبو زرعة: ليس بقوي الحديث. وقال البسوي في موضع: هو ضعيف، وابنه ضعيف، أضعف من الأب.. قال الذهبي في «الكاشف»: ضعفه أحمد. وقال في «المغني»: مشهور، ضعفه أحمد، وابن المديني. وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب»: ضعيف. أما أبو منيب الحمّصي فهو مجْهولٌ. «التاريخ الكبير» (٨ /كتاب الكنى ص٧٠)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٤٤٠)، «المقتنى في سرد الكنى» (٢/ ١٠٠). كما توجد نكارة في المتن، حيث قصر التكليف والجزاء على صنف واحد من أصناف الجن. (تخريج أحاديث وآثار حياة الحيوان للدميري من التاء إلى الجيم (ص ٨٩٠ – ٨٩٤).

جدير بالذكر أن هذا الحديث استدل به الغزالي الأشعري من قبل في كتابه الذائع الصيت (إحياء علوم الدين)، مع العلم أن من المستقر عند علماء الحديث والتخريج، ومنهم الحافظ العراقي، أن هذا الكتاب ملئ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، ومع ذلك يعدونه من الكتب المرجعية في الخطاب الديني التقليدي! بل يدعي بعض أنصار الخطاب الديني التقليدي قداسة كتاب الإحياء حيث يقول: «لو اجتمع علماء المسلمين كلهم ما استطاعوا أن يصنفوا مثله»! (انظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ج١/ ص ٥).

أترك الحكم للذين يقرأون ويصبرون على القراءة».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١١)

٢٩ نوفمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«سوف تستمر المعتقدات المزيفة طالما ظل يتمسك البعض باتباع الفرق وتقديس الرجال، وسوف يستمر الإيمان بالأباطيل طالما يصر بعض المتحدثين باسم الدين على التمسك بأقوال قادة الفرق والجماعات الدينية، وطالما يتمسكون برفض العودة المباشرة إلى المنابع الصافية للوحي، (وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل اللّه قالوا بلْ نتّبع ما ألْفيْنا عليْه آباءنا...) (سورة البقرة: ١٧٠).

وقد ترتب على ذلك خراب العقول، واضطراب التصورات، وتخلف الأمة، خاصة أن انتشار الأساطير تحت قناع الدين أدى إلى تكوين رؤية خرافية للكون والطبيعة والحياة. وبينما اجتهدت أمم أخرى في فهم الواقع، صنع بعض القدامى عالما ثانيا أسطوريا موازيا ليعيشوا فيه ويجذبوا الناس إليه، وتركوا الواقع الحي المعاش لحساب عالم الأسطورة والخرافة. أما الأمم المتقدمة فقد اجتهدت في فهم قوانين الطبيعة، بينما الأغلبية منا سارت وراء المتقنعين بالدين نحو عالم من صنع أوهامهم بعيدا عن الدين الخالص.

إن النظرة العلمية ترى عظمة الله في انتظام قوانين الطبيعة، ومن ثم تحاول فهمها وتوظيفها للسيطرة عليها والاستفادة منها في تحسين جودة الحياة، بينما النظرة الخرافية ترى عظمة الله في خرق قوانين الطبيعة بواسطة قوى أسطورية من صنع عقولها. لقد استطاعت الأمم المتقدمة السير قدما في اكتشاف الكون بالعلوم، بينما أمتنا لا تزال تعمل على اكتشاف الكون من خلال أقوال وروايات أسطورية في بعض الكتب الموروثة.

وأمثلتنا اليوم على هذا من الكتاب الشهير (إحياء علوم الدين) للغزالي الأشعري رحمه الله، وهو عالم له عندي احترام، وقد عكفت على بعض كتبه دراسة وتحقيقا في العشرينيات من عمري، ونشرتها في كبرى دار النشر في العالم العربي. لكني لا أقدسه ولا أسير وراءه أعمى منقادا، فهو بشر يصيب ويخطئ، وقد أجاد أحيانا وأخطأ أحيانا، من كتبه ما هو موضع تقدير في قاسم منها، ومن كتبه ما تسبب في تغييب العقول. ويُؤخذ عليه بشكل عام أنه كان لا يتحرى صحة الأحاديث المنسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وملأ كثيرا من كتبه بالأحاديث الضعيفة والمختلَقة، وبنى على ذلك أحكاما بعيدة عن المنهج العلمي الدقيق والنظرة العلمية للواقع.

ومن أسف فإن أراءه المبنية على أحاديث ضعيفة وموضوعة غيبت كثيرا من العقول، وسيطرت على قطاعات كبيرة وتسببت في إضعاف النظرة العلمية للكون لصالح النظرة الأسطورية.

وهنا أريد أن أتوقف لكي أوضح أنه من أكبر الأمراض التي تسيطر على عقول بعض أصحاب القداسة، طريقة التفكير الأرسطية (إما أبيض أو أسود) ولا ثالث بينهما، وهذه للأسف منشأ التطرف الذي يقوم على الطريقة نفسها (إما ... أو ...)، ومن هنا وفي حالة الغزالي لا نقول: (الغزالي إما انه عالم جيد أو ضعيف)، بل نقول (الغزالي أحيانا يجيد وأحيانا يخطئ)، مثله مثل أي بشر. أما الذين يفكرون بطريقة خاطئة فيقولون: (إما معنا أو ضدنا)، أو يقولون (نحن معه أو ضده) ولا ثالث بينهما!

في كتابه (إحياء علوم الدين)، يتحدث الغزالي عن ثلاث علل لتحديد أوقات كراهية الصلاة، يقول :» ففي النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة: أحدها- التوقي من مضاهاة عبدة الشمس، والثاني- الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم :»إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا طلعت قارنها، وإذا ارتفعت فارقها، فإن استوت قارنها، فإذا زالت فارقها، فإذا تضيفت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها»، ونهى عن الصلوات في هذه الأوقات ونبه به على العلة.

والثالث- أن سالكي طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات، والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل. ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعي، والإنسان حريص على ما منع منه، فَفِي تَعْطِيلِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ زِيَادَةُ تَحْرِيضٍ وَبَعْثٍ على انتظار انقضاء الوقت، فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذراً من الملل بالمداومة وتفرجاً بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر، ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفي الاستمرار على شيء واحد استثقال وملالا. ولذلك لم تكن الصلاة سجوداً مجرداً ولا ركوعاً مجرداً ولا قياماً مجرداً، بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة؛ فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل، فإذا كانت هذه أموراً مهمة في النهي عن ارتكاب أوقات الكراهة. إلى غير ذلك من أسرار أخرى ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله. ورسوله أعلم بها» (ج ١/ ص ٢٠٨).

في كلام الغزالي هذا، اختلطت الحقائق بالأساطير، فكراهية الصلاة في أوقات معينة، من المفهوم أنه لتجنب التشابه مع المجوس الذين يتعبدون في تلك الأوقات، وهذا ما ذكره الغزالي في العلة الأولى. ومن المفهوم أيضا أن النهي عن الصلاة في هذه الأوقات ربما يكون لكسر النمط والملل، وللتنويع في أشكال العبادة. وهذا مفاد ما ذكره الغزالي في العلة الثالث.

لكن المشكلة الحقيقية تكمن في العلة الثانية التي ذكرها مستندا إلى حديث ضعيف مرسل، وهو :»إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا طلعت قارنها، وإذا ارتفعت فارقها، فإن استوت قارنها، فإذا زالت فارقها، فإذا تضيفت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها»،

فهذا الحديث من حيث السند، أخرجه النسائي من حديث عبد الرحمن الصنابحي، وهو حديث مرسل، لأن الصنابحي لم ير النبي صلى الله عليه وسلم. فكيف يروي عن الرسول وهو لم يلقاه؟! وأوضح أكثر معنى الحديث المرسل من كتابي (مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه) الصادر عن مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع في الثمانينيات من القرن الماضي. وفيه تم الحديث التفصيلي عن الحديث المرسل ودرجاته وأنواعه وحجيته. ودون الدخول في تلك التفصيلات، فإن الحديث المرسل هو ذلك الحديث الذي يسقط من سنده مَنْ هو بين التابعي والرسول ، كأن يقول التابعي مباشرة: قال رسول الله كذا دون أن يذكر مَنْ نقل له الحديث عن الرسول. وسمى «مرسلاً» لأن «أرسل» بمعنى «أطلق»، فيطلق التابعي الإسناد دون أن يقيده براوٍ. ومن المعروف أنه لا يحتج بالحديث المرسل في الأحكام، ومن باب أولى لا يحتج به في العقائد.

إذن فالحديث الذي يستشهد به الغزالي الأشعري في حكم شرعي، بل أمر عقائدي أيضا، ليس بحديث صحيح السند. والأكثر مرارا أن يقرن ظاهرة طبيعية هي الشمس وحركتها بأمر أسطوري، وهنا تختل رؤية الكون عند المصدق لكلامه، وتتحول الظواهر الكونية ذات القوانين المطردة إلى ظواهر أسطورية تشكل أركان عقيدة المسلم وطريقة تعامله معها.

هل يمكن الآن أن نضع أيدينا على أحد أسباب تخلفنا العلمي أمام الأمم الأخرى؟ وهل يمكن الآن أن يفيق من غيبوبتهم أولئك الذين تنفجروا ذواتهم من التضخم الكاذب؟ هل لهم أن يتركوا الشجار والجدال والمعارك المزيفة وينخرطوا في طريق العقل النقدي والعلوم؟ هل لهم أن يدركوا أن التقدم طريقه العمل والمشقة وليس الصوت العالي والتعصب البغيض لقداسة مزيفة أو فرقة من الفرق؟».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٢)

٦ ديسمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إنني أشعر مع هؤلاء الذين يرجون الأساطير على أنها وحي إلهي، أن العالم مجموعة من الأشباح والعفاريت والشياطين يغيب فيها الواقع الحقيقي والظواهر الكونية البهية التي خلقها مبدع واحد أحد، وتتراجع فيه آيات الله الكونية المطردة لصالح عقائد تقرن كل فعل وكل ظاهرة كونية بالجن والشياطين، عالم يغيب فيه النور بسبب عقول تنظر بعدسات أسطورية لكل شيء.

إنه عالم من الهلاوس والوسوسات يصنعه المرضى بغياب العقل النقدي، والذين يقتاتون من السيطرة على العقل بالأوهام، فيجعلون بينهم وبين الوحي المقدس النقي عتبات من الروايات الخرافية، ويجعلون بينهم وبين الكون المنير عتبات من عوالم الظلام اللامرئية! حيث تغيب علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء لصالح عوالم السحر والشعوذة والخيمياء، هذه العوالم التي تسللت أفكارها إلى الدين الخالص تحت قناع من الروايات الضعيفة والمزيفة والكذوبة التي ليس لها أصل في القرآن والسنة المتواترة. ومع غياب العقل النقدي والوحي الخالص، تسود ظواهر التخلف؛ حيث يفتي ويختلف الجميع في عالم الغيب، ويشغلون عقولهم بقضايا بعيدة عن الواقع وعن حدودهم المعرفية، وهم أيضا يستشهدون بأحاديث منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم، بعضها ضعيف السند، وبعضها معارض للقرآن الكريم، وربما يكون بعضها صحيحا لكنه لا يصل إلى شرط المتواتر الذي يُؤخذ به في العقائد. وحتى لا يكون كلامي هذا كلاما مرسلا دون سلطان مبين، فسوف أعطي أمثلة عينية من كتبهم ذائعة الصيت مع أرقام الأجزاء والصفحات، وأترك الحكم للذين يقرأون ويصبرون على القراءة، أما أولئك الذين يقدسون أقوال أصحاب القداسة فنقول لهم: راجعوا أنفسكم على الوحي الإلهي الثابت ولا تكونوا مثل القطيع فلن ينفعكم أحد من الذين تقدسونهم أمام الله : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (سورة البقرة:١٦٦، ١٦٧).

وهذه الآيات الكريمة – بصرف النظر عن كونها مختصة بالكافرين فقط أم تشمل كل من أخطأ في عقائده وتصوراته نتيجة التقليد– فإنها تدل دلالة صريحة على رفض القرآن الكريم حجة كل مَن يحتج في تبرير أفكاره بمبدأ الاتباع الأعمى لبعض الأشخاص الذين يرون أنهم في مكانة مقدسة.

وربما يمكن القول انها تطال – من هذه الزاوية – كل أتباع الفرق والمذاهب الذين يقدسون فرقهم الدينية وأئمتها، ويتبعون منظومات عقائدية وضعها بشر وفق طريقة فهمهم الخاصة للوحي.

والمشكلة أن الأتباع لا يسألون أنفسهم: هل العقائد تُؤخذ من الرجال أم من الوحي نفسه؟ والمشكلة أيضا أن لدينا قطاعات واسعة تسير وراء كل ما يُروى في صفحات الكتب والخطب الانشائية.

ونواصل ضرب الأمثلة من الكتاب الأشهر (إحياء علوم الدين) للغزالي الأشعري، حيث يورد حديثا :» إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه»، وهذا الحديث أخرجه كما يقول الحافظ العراقي- ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال: غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث. ومع ذلك يورده الغزالي في أمر عقائدي يتعلق بعبادة من أروع العبادات وهي الوضوء كشرط للصلاة. ولا أدري هل يقصدون أنه شيطان واحد يلازم الجميع في الوقت نفسه عند الوضوء، أم يقصدون عدة شياطين تحمل الاسم نفسه والوظيفة ويبلغ عددها ذات عدد المتوضئين كلهم؟!

كما يورد الغزالي الأشعري حديثا ضعيفا عن أنس عن الرسول عليه الصلاة والسلام:» إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم»، والخَطْمُ هو الأَنف، أو مقدَّمُهُ. والخَطْمُ المنقارُ. والحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (مكايد الشيطان) وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في (الكامل) وضعفه. إنها رواية أسطورية أخرى تصور الشيطان وهو يضع أنفه على قلب الإنسان!

كما يورد الغزالي عن ابن وضاح حديثا نسبه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام :»إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده»، وهذا الحديث المزعوم ليس له أصل كما يقول الحافظ العراقي (ج ٣/ ص ٢٨- ٢٩).

ويستمر الغزالي في كتابه الذائع (إحياء علوم الدين) (ج ٣/ ص ٣٤) في سرد أدلته الخرافية التي ليس لها أصل إلا أقوال بعض الرجال دون أي سند من الوحي الثابت، «قال ثابت البناني: لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو. فانطلقوا حتى أعيوا، ثم جاءوا، وقالوا: ما ندري. قال: أنا آتيكم بالخبر. فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم. قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين، ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك. فقال لهم إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا « . وحديث ثابت أخرجه ابن أبي الدنيا في (مكايد الشيطان) هكذا مرسلا. فهو حديث ضعيف على أقل تقدير. ومع ذلك يتجرؤون على أمر غيبي دون سند من قرآن وسنة متواترة، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم لا يأخذون في مذهبهم إلا بالأحاديث المتواترة في العقائد!

وتستمر الخرافات، حيث يورد الغزالي حديث أبي أمامة :»إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً، فاجعل لي بيتاً. قال: الحمام». الحديث أخرجه الطبراني في الكبير، وإسناده ضعيف جدا، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضا.

انظر كيف ينقلون وينسبون حوارات غيبية إلى الله سبحانه وتعالى، استنادا إلى مرويات ضعيفة السند أو لا أصل عن الرسول عليه الصلاة والسلام؟! ولا أدري هل هم على وعي أنهم بذلك يتجرؤون على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى دين الله تعالى؟ إن الدين لا يُؤخذ في عقائده إلا باليقيني الثبوت. هذا ما أعرفه، لكن بعض أصحاب القداسة لهم رأي آخر.

إنها روايات خرافية تتسلل إلى الدين من خلال بعض علمائه، ومن أسف تشكل عقول العوام بل وكثيرا من عقول النخبة الذين يسيرون طبقا لمبدأ الاتباع والتقديس، وبهذا يتراجع الدين الخالص وراء سحب وضباب من الروايات والعقائد الأسطورية».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٣)

١٣ ديسمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في الحقيقة إن كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي الأشعري لا ينطوي على إحياء لعلوم الدين، بل هو مزج للحقائق بالأساطير، ومزج للوحي بالخرافات، وهو يقدم منظومة تتجاور فيها العقلانيات بالأوهام، ويتجاور فيها التصوف النبيل والتصوف الشارد، وتتداخل به الأحاديث الصحيحة بالضعيفة، والمتواترة بالمكذوبة. والأخطر أنه لا توجد فيه معايير لتمييز الدين الخالص من الدين المحمل بروايات أسطورية وحكايات شعبية وأقوال منتحلة من ديانات أخرى.

ويعتمد الغزالي رحمه الله تعالى على منظومة تجمع بين العقائد الأشعرية والتصوف والثقافة الهلينيستية التلفيقية. وأكاد أقول هو مرآة عاكسة للثقافة التي سيطرت وأدت إلى تراجع العالم الإسلامي من زمن الغزالي وحتى الآن، بسبب تغييب العقلانية النقدية القائمة على البرهان، وبسبب تغييب الوحي القطعي الثبوت وراء سحب وضباب لصالح معتقدات بديلة تقوم على ظني الثبوت، أو ما ليس له أصل، أو روايات إسرائيلية، أو خرافات وحكايات شعبية. ولا يذكرها الغزالي على أنها مرويات وحكايات للتسالي ومغازلة الخيال في كتاب من كتب الأدب والأقاصيص، وإنما يذكرها على أنها دين وفي كتاب (إحياء علوم الدين)!

والغريب أنه يحول العقلاني إلى أسطوري، وما له علة قوية من الواقع أو الوحي يحوله أيضا إلى علة أسطورية في هذا الكتاب التغييبي، وما له علة علمية أو حضارية يحوله إلى علة من عالم الأشباح! ومع أن هذا الكتاب به كثير من العناصر الإيجابية لكنها اختلطت بالأكثر منها من العناصر التحريفية لمعاني الدين النقي الخالص.

وعلى سبيل المثال عندما يتحدث الغزالي عن تقليم الأظفار، يقول: «الأظفار وتقليمها مستحبٌّ لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم :» يا أبا هريرة أقلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها». ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه، للحاجة لا سيما في أظفار الرجل، وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك. ولم أر في الكتب خبرا مرويا في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام. ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه. فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل واليد أشرف من الرجل». إحياء علوم الدين (١/ ١٤١).

يبدأ الغزالي بكلام معقول:» الأظفار وتقليمها مستحبٌّ لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ»، لكنه يعقبه بكلام خرافي غير معقول؛ حيث يورد حديثا ضعيفا منسوبا للرسول عن أبي هريرة، حيث يزعم الراوي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال:» يا أبا هريرة، قلم ظفرك؛ فإن الشيطان يقعد على ما طال منها». وهذا الحديث – كما قال الحافظ العراقي في كتابه (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار) – أخرجه الخطيب في الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر: «قصوا أظافيركم فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر». إحياء علوم الدين (١/ ١٤١).

إذن فإن الدافع للنظافة عنده من الدين يأتي في مواجهة الشيطان، ويتخيل أن النبي الكريم يقول ذلك. ويعتقد أن الشيطان يقعد على ما طال منها! والشيطان يجري ما بين اللحم والظفر! ولنترك إذن روعة النظافة وبهاءها والجوانب الحضارية فيها، ولنترك أيضا أنها من الفطرة المستقيمة، ومن الأفعال التي يحبها الله! انظر في المقابل إلى التعبير القرآن الراقي: (لَمسجدٌ أسّس على التّقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجالٌ يحبّون أن يتطهّروا واللّه يحبّ المطّهّرين) (التوبة، ١٠٨). فالطهارة سلوك قويم، والطهارة محبة، والطهارة موضع للتقدير الإلهي. ثم إن الوضوء عند الغزالي ليس مقاصده إزالة الأجسام غير النظيفة، فالوضوء صحيح حتى لو ظل الوسخ تحت الظفر، يقول: « ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء، لأنه لا يمنع وصول الماء، ولأنه يتساهل فيه للحاجة لا سيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد. وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك».

وهكذا تحول الوضوء مع الغزالي الأشعري إلى عمل شكلي فقط، هو وصول الماء إلى الموضع وليس الطهارة وإزالة الأوساخ، مع أن القرآن الكريم يتحدث بشكل واضح وصريح عن الطهارة والتطهر وأن الله يحب المتطهرين والمطهرين، ولا يمكن تصور عملية التطهر دون إزالة الوسخ. لكن هذا يمكن في الخطاب الديني التقليدي الذي تجلى في أبرز تجلياته عند الغزالي الأشعري في كتابه المقدس عند كثير من الناس (إحياء علوم الدين).

وفيما يلي عبارة دالة على منهجية الغزالي في هذا الكتاب، يقول: «ولم أر في الكتب خبرا مرويا في ترتيب قلم الأظفار، ولكن سمعت أنه صلى اللّه عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام. ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة؛ إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه».

فالغزالي يؤكد أنه لم ير خبرا مرويا في هذه النقطة (أي ترتيب قلم الظفار)، أما ما يذكره من أنه سمع « أنه صلى اللّه عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام»، فليس له أصل، يقول الحافظ العراقي في كتابه (المغني عن حمل الأسفار): حديث البداءة في قلم الأظافر بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإبهام، لم أجد له أصلا، وقد أنكره أبو عبد اللّه المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به.

هكذا يبحث الغزالي عن أي خبر مروي ليؤيد استنتاجاته حتى ولو كان الخبر ضعيفا أو ليس له أصل، إنه يبحث عن الخبر وكفى، والعقل عنده خادم للاستنباطات من المرويات أيا كانت. إنها العقلية النقلية التي تقدم النقل على العقل، ولا يكفيها الوحي الإلهي فتبحث عن مرويات من ثقافات بالية، وكأن الوحي بحاجة إلى سند وظهير، وكأن الوحي غير كامل، وكأن الوحي ليس كتابا مبينا!».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٤)

٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«في الخطاب الديني الجديد، نريد العودة إلى الدين الحقيقي المنسي بسبب خطاب ديني أسطوري متكاسل انتشر وذاع. إننا مع الدين الحقيقي المعبر عنه في النص الإلهي: القرآن الكريم مفسرا بالسنة النبوية الصحيحة الثابتة، وضد الخطاب الديني الأسطوري الذي يتعارض مع الوحي الإلهي.

ومن أسف، فإن الخطاب الديني التقليدي، لعبت فيه الأحاديث الضعيفة والموضوعة كذبا على الرسول صلى الله عليه وسلم، دورا في تشكيل الرؤية العقائدية غير المنضبطة عند كثير من القطاعات في التراث، وحتى الآن. وقد أدى ذلك إلى غياب العقائد المنضبطة التي أكد عليها الوحي. وقد كان لتلك العقائد غير المنضبطة التي ليس لها أصل من الكتاب والسنة المتواترة، دور كبير تجاوز عالم المعتقدات النظرية إلى عالم السلوكيات العامة، فالنظر أساس العمل، إن صح النظر فسوف ينعكس هذا على سلامة ودقة العمل، وإن صح المعتقد فسوف ينعكس على السلوكيات العامة.

إن الأفكار الخاطئة تؤدي إلى سلوكيات خاطئة. ومن أسف فإن الجانب العقائدي الأسطوري المتعلق بالشيطان كان له أبلغ الأثر على الثقافة العامة المحركة للسلوك والأفعال التي تتجاوز النطاق الفردي إلى النطاق العام، وتتجاوز المجال الخاص إلى المجال العام. وهذا يفسر لنا كيف أن حالة التراجع التي حدثت للأمة كانت في منشئها بسبب تصورات عقائدية فاسدة.

ولنضرب على ذلك مثلا من كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي الأشعري، ففي كتاب (آداب الكسب والمعاش)، وهو الكتاب الثالث من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين، وقد تناول الغزالي في كتاب (آداب الكسب والمعاش) آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها، وشرحها في خمسة أبواب، ويخصص الباب الخامس لما عنونه بـ (في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته).

ويرى الغزالي أن شفقة التاجر على دينه تتم بمراعاة سبعة أمورٍ، وعن الأمر الخامس منها في الجزء الثاني من الإحياء (ص ٨٦)، يقول حرفيا: «الخامس- أن لا يكون شديد الحرص على السّوق والتّجارة، وذلك بأن يكون أوّل داخلٍ وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان، يقال: إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر: (لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو). وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها فإن بها باض الشيطان وفرخ. روي عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر (إن إبليس يقول لولده زلنبور: سر بكتائبك، فأت أصحاب الأسواق، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها). وفي الخبر (شر البقاع الأسواق وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجا). وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة. هكذا كان صالحو السلف فقد كان منهم من إذا ربح دانقا انصرف قناعة به. وكان حماد بن سلمة يبيع الخز في سفط بين يديه، فكان إذا ربح حبتين رفع سفطه وانصرف. وقال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: أمر اليوم أعمل في الطين. فقال: يا ابن بشار إنك طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته، أما رأيت حريصا محروما وضعيفا مرزوقا؟ فقلت: إن لي دانقا عند البقال. فقال: عز علي بك تملك دانقا وتطلب العمل. وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ومنهم بعد العصر ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوما أو يومين وكانوا يكتفون به».

في هذا النص للغزالي، نرى الجانب العقائدي الأسطوري المتعلق بالشيطان كيف كان له أبلغ الأثر على الثقافة العامة المحركة للسلوك المتعلق بالتجارة والاقتصاد. حيث ينسب الغزالي دون سند صحيح لبعض الصحابة الكرام النهي عن التبكير في دخول الأسواق، وعن التأخر فيها. لماذا؟ لأن الشيطان باض بها وفرّخ! هكذا ينسب لهم دون سند من وحي كريم من القرآن والسنة المتواترة!

الشيطان من النوع الذي يبيض! الشيطان من النوع الذي يفرّخ! والفرخ: في الأصل حسب اللغة هو ولد الطّائر. والفرخ: ولد كلّ بائضٍ. وأفرخ الطائر: صار ذا فرخ. وأفرخت البيضة: انفلتت عن الفرخ، خرج منها، انبثق منها.

إن الغزالي يستدل، بأخبار ضعيفة وموضوعة، على النهي عن التبكير إلى التجارة ودخول الأسواق في أول افتتاحها، ويترك الأحاديث الصحيحة التي تدل على العكس، مثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث رواه ابن حبان، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وأحمد، عن صخر بن وداعة الغامدي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى عليه وسلم قال: اللهم بارك لأمتي في بكورها. وكان إذا بعث سرية أو جيشا بعثهم من أول النهار، وكان صخر رجلا تاجرا، وكان يبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله. (انظر: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحقق: محمد عثمان الخشت الناشر: دار الكتب العربي- بيروت، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤هـ).

ويزيد الغزالي في الأساطير دون سند من وحي كريم، ويعمق الموقف من التكاسل عن التجارة بخبر منسوب دون سند إلى معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (إن إبليس يقول لولده زلنبور: سر بكتائبك، فأت أصحاب الأسواق، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها). إذن فهي مهمة زلنبور بن إبليس!

وفي وسط هذا الجو الأسطوري، يأتي الغزالي بأمر غريب فيقول :» أن لا يكون شديد الحرص على السّوق والتّجارة، وذلك بأن يكون أوّل داخلٍ وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان، يقال: إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر: (لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو)».

هكذا يريد منع ركوب البحر بغرض التجارة بسبب خبر ضعيف أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو، وقيل حسب الحافظ العراقي رحمه الله: إنه منقطع.

ومع أنه كان من صحابة النبي الكريم مَن كان غنيا غنى كبيرا من التجارة، وساعدت أموالهم في دعم صعود الإسلام، فإن الغزالي يشيع جوا من التكاسل مستشهدا بأخبار مرسلة عن بعض السلف ويستخلص من هذه الأخبار الاستخلاص التالي، يقول: «وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر، ومنهم بعد العصر، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوما أو يومين، وكانوا يكتفون به»!

هل تأكدت الآن أيها القارئ الكريم من صحة ما قلناه في بداية هذا المقال، من أننا نريد العودة إلى الدين الحقيقي المنسي بسبب خطاب ديني أسطوري متكاسل انتشر وذاع. إننا مع الدين الحقيقي المعبر عنه في النص الإلهي (القرآن الكريم مفسرا بالسنة النبوية الصحيحة الثابتة)، وضد الخطاب الديني الأسطوري الذي يتعارض مع الوحي الإلهي».

ضد التصور الأسطوري للشيطان (١٥)

٢٧ ديسمبر ٢٠٢٠ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إن المتعصبين لا يقرأون، والأعجب أنهم لا ينصتون، وإن أنصتوا فهم لا يستمعون، فينسبون للمتحدث كلاما لم يقله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وهذا دأب الكهنة المزيفين قديما وحديثا، ودأب جماهيرهم التي تنقاد وراءهم انقياد القطيع إلا من له عقل نقدي يراجع به نفسه. وتلك ظاهرة رصدها القرآن الكريم عن أصحاب العقول المغلقة في قوله: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) (الفرقان: ٤٤). وعندما يسمع المتعصبون للآخرين، فإنهم لا يسمعون إلا صدى أفكارهم المشوهة عن الأخرين، أو هم يعرفون الحقيقة لكنهم يريدون صنع بطولات زائفة للدخول في معارك وهمية بالتدليس وصنع سحب من الضباب حول أفكار الآخرين! إنهم يعدون الخوارج التكفيريين القتلة للأبرياء من أهل القبلة! لكنهم يعدون الدفاع عن القرآن والسنة الصحيحة ضد الفرق المتطرفة خروجا عن جادة الصواب. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إنهم ينحازون إلى الفرق العقائدية المتناحرة ضد بعضها البعض، ولا يحتكمون إلا إلى كتب وأقوال الفرقة التي ينتمون إليها. وإذا اقتربت من بطلان كلام بعضهم ومخالفته للقرآن والسنة المتواترة، اتهموك في دينك على الرغم من إيمانك بكل ثوابت الدين وأركانه، وعلى الرغم من أنك تدافع عن الدين الخالص في مواجهة الأباطيل! إنني أحب الغزالي القديم رحمه الله تعالى، لكن محمدا صلي الله عليه وسلم أحبّ إليَّ. وربما تعجبني بعض أقول الغزالي ولا يعجبني بعضها الآخر من المخالف لصحيح الدين وصريح المعقول. لكني أحب كل أقوال محمد صلى الله عليه وسلم المتواترة الصحيحة عنه. وربما نقرأ المرويات الأسطورية من قبيل الدراسة أو الاستمتاع الأدبي بالأساطير كلون من ألوان التسلية، لكننا لا نتخذها دينا مثل الغزالي الأشعري وغيره، فديننا لا نأخذه إلا عن ربنا سبحانه ورسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم.

والغزالي رحمه الله على الرغم من أني أحبه، وعكفت على كتبه في مطلع الشباب، قراءة ودراسة، وقمت بنشر العديد منها بعد دراسة وتحقيق ومراجعة من لجان علمية، في العقد الثامن من القرن الماضي في كبرى دور النشر، فعلى الرغم من ذلك فإن عقلي ومرجعياتي من القرآن والسنة الصحيحة وعلوم الحديث وعلوم القرآن، جعلتني لا أقبل منهجيته في كتاب (إحياء علوم الدين) التي أدخلت في الدين ما ليس منه اعتمادا منه على أساطير وإسرائيليات وأحاديث ضعيفة وموضوعة وروايات عن بعض السلف غير متحقق من صحتها.

ونعطي في مقال اليوم مثلا جديدا، يعكس الثقافة الأسطورية المحقرة للمرأة بوصفها حليفا للشيطان! وهي الثقافة المخالفة لصحيح القرآن الكريم في آياته البينات، ولسنة النبي الكريم الصحيحة المحبة للمرأة كإنسان كامل الأهلية.

ففي أحد كتب (إحياء علوم الدين) (ج ٣/ ص ٩٩- ١٠٠)، ويطلق عليه الغزالي (كتاب كسر الشهوتين)، وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات، يذكر الغزالي مجموعة من المرويات الضعيفة والإسرائيليات بالنص التالي:» وعن ابن عباس في قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب)، قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنه قال في تفسيره: «الذكر إذا دخل. وقد قيل: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله». وَكَانَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني». وقال صلى الله عليه وسلم: «النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال». روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس. فقال: لا حياك الله، ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه. قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بني آدم. قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً لا تخل بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها، فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول علم موسى ما يحذر به بني آدم. وعن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح. وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي، فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب.... روى في غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة». فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع».

ولنقف سريعا عند أدلة الغزالي في هذا النص، أولا نجده يفسر آية كريمة بحديث لا أصل له كما قال الحافظ العراقي، وهو حديث ابن عباس في قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب)، قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنه قال في تفسيره : «الذكر إذا دخل»! وهو بذلك يخالف كل معايير اللغة وضوابط علم الحديث ومقاصد القرآن الكريم! ولن أعلق أكثر من ذلك الآن على هذه النقطة – أيها القارئ الكريم- فقد أوشكت مساحة المقال على الانتهاء، فقط اعمل عقلك وكتاب ربك في مدى فسادها ومخالفتها لصحيح المنقول وصريح المعقول. وبقية التعليق على هذا النص المخالف لصحيح الدين في المقال القادم إن شاء الله تعالى...».